سرّ المعراج
و
تجلّيات المراقي

رواية

صدقي شعباني

ماستر

سر المعراج وتجليات المراقي

رواية..

صدقي شعباني

لوحة الغلاف

رشـــا أيمـــن

الجمع والإخراج

التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/ ٢٠٢١/٩٢٣٧م

ISBN: 978-977-85768-9-4

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

ماســـتر ©

٢٠٢١م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

الإهـــــداء

إلى الّذي اختفى من حياتي فجأة... إليه حيثما كان... أهدي هذا الأثر عربون محبّة وامتنان دائمين متلازمين... إلى صديقي : «م . ع» . «مظفّر عبد الله»، المتخيّل الرّوائيّ الّذي كانه ذات يوم صديقي المحترم جدّا، والوفيّ جدّا، حتّى في آلامه وعذاباته . «محمود علوي».

التّوقيع: ص .شعباني.

تصدير:

إنّ للقلــــب مبرّراتــه الّتي لا يدركهــا العقــــل.

«بليز باسكال»

الجزء الأوّل

((١٠.))

السّاعة الواحدة والنّصف صباحا...

في الغرفة الصّغيرة خارج الحوش الكبير: الغرفة الّتي اتّخذتها مسكنا لي رغم الاحتجاجات الّتي كان يلاحقني بها أفراد العائلة، والّتي صمدّت أمامها بكلّ شجاعة وعناد...

كان الضّوء خافتا في الدّاخل. كنت فقط أنير الأباجورة الصّغيرة على طاولة قديمة مخلّعة تبعد عنّي بضعة أمتار.، وكنت أجلس على السّرير أمام نضد مرتفع القوائم... فنجان القهوة أمامي، وبين شفتيّ السّيجارة الخامسة من العلبة الثّانية الّتي كنت اقتنيتها في منتصف ذلك النّهار، عندما كنت قافلا من مركز عملي خارج المدينة؛ وقد فرغت للتّوّ من قراءة كتاب. أذكر الآن أنّه غير مهمّ.، وبدأت أشعر بملل وثقل في أجفاني، ورغبة ملحّة في أن لا أستسلم وأن أقاوم النّعاس، رغم أنّ حلم التّمدّد على السّرير في تلك السّاعة المتأخّرة كان يغريني دون هوادة.

جعلت أمشي وأتريّض على امتداد الغرفة، لأطرد أطياف

السّأم، فلفت نظري، وأنا أصوّب عينيّ نحو الحاجز المرمريّ الوطيء الّذي يفصل الغرفة إلى شطرين غير متكافئين، عدد قديم لجريدة أسبوعيّة... لا أدري لماذا تملّكني إحساس جارف بلا حدود أن أتناول الجريدة، فوجدتني أتقدّم بخطوات بطيئة كالمأخوذ، وأسحبها رويدا رويدا بأطراف أناملي، وأمضي بها إلى مكاني الأوّل بجانب السّرير.

جلست، وبدأت أقلّب الصّفحات بلا مبالاة ظاهرة في بادئ الأمر... مررت على العناوين بسرعة دون أن يشدّ انتباهي أيّ منها... توقّفت قليلا عند الصّفحة الأدبيّة، وقرأت قصيدتين وقصّة قصيرة نسيت في حمّى الإرهاق والضّجر عمّا تتحدّث... جلت ببصري على صفحة الحوادث... لا جديد... لا جديد يذكر على الإطلاق... دائما هناك أموات، كما أنّ هناك دائما آخرين يولدون، وربّما يكون الّذين يولدون أكثر بكثير من عدد الّذين يموتون! تساءلت بقرف .بيني وبين نفسي .، وفيما يشبه الهوس الفلسفيّ: «ترى أيّهما أجدى: أن يكون عدد الأموات أقلّ أم عدد الأحياء؟!» ألفيتني أرمي بالجريدة على الطّاولة، وبنفس درجة القرف والهوس الفلسفيّ اللّذين اعترياني وأنا أسائل نفسي منذ قليل... كان قد ران على جفنيّ ثقل لا قبل لي بمقاومته، وكنت على وشك أن أسبلهما على ذبالة النّور الضّعيفة في الدّاخل حينما استرعى انتباهي . وبقوّة مباغتة مفاجئة لا تردّ . إعلان صغير مثبت بطرف الجريدة في الجهة اليسرى؛ وربّما يكون ما شدّني إليه قصره، من ناحية، فقد

صيغ في بضعة أسطر لا تتجاوز السّتّة على أقصى تقدير، ثمّ إنّه، من ناحية أخرى، قد كتب بلون مغاير، وزاد من إذكاء فضولي عبارة «هامّ جدّا» الّتي تصدّرت الإعلان...

تناولت الجريدة بسرعة كبيرة كأنّما كنت أخشى أن تختفي فجأة، أو تتلاشى، أو تضيع، وقرأت الإعلان في المرّة الأولى، فلم أفهم شيئا، وقرأته مرّة ثانية، وفي المرّة الثّالثة غامت نظراتي، ودلفت بخيالي إلى عالم لا أدري ما هو أو كيف هو!!... أإلى هذه الدّرجة؟!... ماذا يعني كلّ هذا؟!... كان شيئا لا يصدّق مطلقا!! وقد استغرقت وقتا غير قصير قبل أن أثوب إلى نفسي وأدرك جليّة الأمر.

كان الإعلان يقول:

«... في الثّاني عشر من ربيع الأوّل، نقل إلى مستشفى الضّاحية جثمان الفقيد «م . ع» الّذي تمّت وفاته في ظروف ملتبسة غامضة؛ وأودع المشرحة في انتظار عرضه على الطّبيب الشّرعيّ لاكتشاف أسباب الوفاة؛ وفي اليوم الموالي، لم يعثر على الجثّة، الّتي لم يبق منها سوى اليدين والرّجلين؛ وقد وقع إبلاغ الشّرطة في الإبّان، وما تزال الأبحاث جارية إلى الآن للإلمام بملابسات الاختفاء...»

في غمرة انشداهي وانصعاقي من أثر الخبر، سحبت السّيجارة السّادسة وأشعلتها، ورحت أجذب منها أنفاسا متسارعة مضطربة، رغم أنّ الدّخان قد صار بلا طعم في فمي.

وحاولت أن أحصر شتات أفكاري في فكرة واحدة ثابتة محدّدة، لكن وجدت محاولاتي جميعها تبوء . في كلّ مرّة . بالفشل... ألقيت بالسّيجارة، وهي ما تزال مشتعلة، في المنفضة، ودون أيّ إحساس واضح تقريبا؛ وقمت نصف قومة عندما شعرت أنّ دماغي قد ينفجر في أيّة لحظة جرّاء الاهتياج والغليان اللّذين ما فتئا يحاصرانني، ثمّ استويت قائما، ورحت أذرع فضاء الغرفة جيئة وذهابا... كالمجنون!! كان المشي مفيدا لمن هو في مثل حالتي، وقد وافاني أثره بأسرع ممّا توقّعت، فقد بدأت تزايلني حالة الاضطراب، وبدأت أستعيد شيئا من هدوئي رويدا رويدا... أدركت أنّي ربّما أكون قد خدعت، وأنّي قد أخذت على حين غرّة، ولم يكن خادعي أحدا من النّاس، بل كان مجرّد استعداد من جانبي لصنع الأكذوبة وتصديقها، سيّما وأنّ الإرهاق قد أخذ منّي كلّ مأخذ، ورغبتي في مقاومة النّعاس قد كان لها الأثر السّيّئ والانعكاس السّلبيّ غير المأمول... أوليس يقولون: إنّ الشّيء إذا بلغ الحدّ انقلب إلى الضّدّ!! وأنا أمّلت من وراء كبح جماح النّوم قليلا من لذّة وبعض انتشاء، فتحوّل كلّ ذلك إلى حطام أحلام، وانقلب وبالا عليّ!!

الأكذوبة...!؟!

بلى، إنّها أكذوبة . أو هكذا يخيّل إليّ على الأقلّ .، ولديّ تبريرات كثيرة تدعم هذا الاستنتاج المباغت الّذي نزل عليّ بردا وسلاما، في لحظة حسن طالع. أوّلا صغر الإعلان... أليس صغر حجمه دليلا على أنّه أريد به ملأ فراغ في الجريدة لا غير؟!

وكثيرا ما يقع ذلك، وبأسلوب سافر لا يصعب اكتشافه على كلّ حاذق ذي عين ثاقبة. ثانيا، مضمون الخبر نفسه... إنّه أشبه بالاستحالة؛ فمن تراه يصدّق أنّ جثّة تختفي، هكذا، وفجأة، ولا يبقى منها سوى اليدين والرّجلين؟! ولنفرض مثلا أنّ الجثّة قد اختفت . وهذا ليس صعبا تصديقه على كلّ حال . فلماذا لا يبقى منها غير اليدين والرّجلين؟! ولماذا اليدان والرّجلان بالذّات، وليس الرّأس مثلا، وهو الجزء الرّئيس في البدن، أو الصّدر، أو أيّ جزء آخر؟! ولنفرض أيضا أنّ أحدا قد تعمّد سرقتها، فلماذا لا يسرقها كلّها، ويكلّف نفسه عناء استبقاء اليدين والرّجلين، ممّا قد يعرّضه لافتضاح أمره، وبالتّالي قد يقلّل من إمكانيّة فوزه بالنّجاة والعافية فيما لو رامهما؟ ترى ما السّرّوراء كلّ ذلك؟!

بعد تفكير طويل، وبعد أن حسوت حسوات عجلى من فنجان القهوة على الطّاولة، وشفطّت من السّيجارة الّتي ذهب أكثرها، وهي في المنفضة، انتهيت إلى القناعة التّالية:
.كلّ ما يجب عليّ فعله الآن، وفورا، أن أنام، فقد مضى من اللّيل أكثره، ولديّ عمل ينتظرني في الصّباح... وعليّ أن أعتبر كلّ الأمر مجرّد مزحة ثقيلة من مزح الصّحافة الّتي لا يندر أن تلتجئ إليها لشدّ انتباه السّادة القرّاء، وخاصّة السّذّج منهم.

وتساءلت في ما يشبه الهوس الفلسفيّ، الّذي أصبح كثيرا ما يلازمني هذه الأيّام:

. هل أرتضي لنفسي أن أكون أحد هؤلاء السّذّج، ويسخر منّي صحفيّ هاو متبطّل؟!!

وألقيت بالحمل كلّه وراء ظهري، وقصدت سريري فتمدّدت فوقه، وما عتمت أن رحت أغطّ في نوم عميق...

((٢٠.))

كنت أعتقد أنّه ما إن يمرّيوم أويومان، على أقصى تقدير، حتّى أكون قد تخلّصت من كابوس الإعلان وملاحقته؛ وقد شرعت منذ الصّباح الباكر. حوالي السّادسة والنّصف تقريبا . في التّصرّف على أساس من هذه القناعة، فضغطّت زرّ الأباجورة بجانبي، فانحسرت لذلك أطياف اللّيل الّتي كانت رابضة في الغرفة، وتمطّيت وفركت عينيّ بتشهّ، ثمّ لبست ثيابي على عجل، وقصدت الحوش الكبير على مبعدة يسيرة من غرفتي.

تناولت إفطاري على توقيع حكايات جدّتي الّتي لا تكاد تنتهي، وقد ساعدني ذلك كثيراً على التّخفّف من وطأة الإعلان إلى حين... ناولتني جدّتي فنجان القهوة بيديها النّحيلتين الرّقيقتين، فتناولته ممتنّا، ومددت يدي إلى جيبي فسحبت سيجارة أشعلتها، ثمّ رحت أعبّ من نسغ الحياة الكامن فيها... لم تتوقّف جدّتي عن سرد حكاياتها، غير أنّي لم أكن قادرا على الإصغاء إليها إلى النّهاية، فسرحت وراء فلول ذاكرتي النّافرة؛ إذ ذاك، طالعني من كوّة ضيّقة في

أتونها وجه «مشيرة»، وبإغراء مدمّر، لم أملك حياله إلاّ أن أشيح بوجهي عن جدّتي الّتي لا بدّ أنّها كانت تراقبني بعينيها الذّئبيّتين، حتّى لا تفضحني نظراتي أمامها... و «مشيرة» هي المستخدمة الجديدة بمصلحتنا، لا أكاد أعرف عنها شيئا باستثناء الأحاديث الّتي كان يتناقلها الزّملاء فيما بينهم، والّتي كانوا يتفنّنون في اقتناصها بأساليب متناهية الدّقّة، فنحن في المصلحة لا نكاد نفعل شيئا سوى تبادل النّمائم والوشايات، وتناول الأعراض، وفي أحسن الأحوال، إذا نفد جرابنا من القيل والقال، نقرأ جرائد اليوم، ونحسو القهوة حتّى انتهاء موعد الدّوام... علمت أنّ «مشيرة» قد تخرّجت في إحدى الجامعات الأجنبيّة، وقد ظلّت طيلة خمس سنوات تتردّد على دواوين التّشغيل، وتتّصل بأصحاب الإعلانات، ولم تعدم جرأة مقابلة بعض المسؤولين المتنفّذين، ولكن دون جدوى؛ ففي كلّ مرّة تصطدم بمرارة حقيقة أنّ مجال اختصاصها غير متوافر في هذه البلاد، ولا في أيّ من الدّول الأخرى المجاورة.

وسألت زميلا لي أعرفه، بيني وبينه دوالّ لا تنكر:

.وما اختصاصها؟

فمال بفمه على أذني هامساً خشية أن تسمعنا «مشيرة» الّتي كانت تجلس وراء مكتبها في الجهة المقابلة:

.هناك من يقول إنّها درست السّوبرنيطيقا...

وصمت قليلا، وهو يسترق النّظر إليها دون أن تخفي عيناه المتلصّصتان وميض إعجاب ممزوج بشهوة وحشيّة تجاهها، ثمّ التفت إليّ ثانية، وقال بصوت أكثر ارتفاعا، حدست من

خلاله أنّه يريد لها أن تسمع الحديث الدّائر بيننا هذه المرّة:
. حظوظ... ما كان أولاني وإيّاك بهذا الاختصاص؛ كنّا على الأقلّ أمضينا سنوات طيّبة في موسكو...
فقاطعته قائلا فيما يشبه الهمس:
. ولكنت اشتغلت جاسوسا، ولا يستبعد أن تقضي نحبك إذا اكتشف أمرك!!
فسألني متضاحكا:
. ومن ذا يكشف أمري؟!
فقلت بأكثر جدّية:
. ما أسهل هذا... أيّ خطأ مهما كان بسيطا قد يوقعك في الفخّ.
فربّت بمودّة على كتفي، وقال وقد غدا صوته أشبه بالمناجاة:
. هل صدّقت؟... ما أبعد موسكو عنّا وما أبعدنا عن موسكو!! إنّه مجرّد حلم لن يقدّر له أن يتجاوز أركان هذه الغرفة... ثمّ إنّ موسكو قد انتهت، وانتهت سيطرة السّوبرنيطيقا أيضا...
وبعد فترة صمت، واصل مداعبا وقد بلغ صوته أقصى درجات خفوته:
. تصوّر أنّ مشيرة تعمل جاسوسة... أليس ذلك جميلا؟!
فسألته بدوري مستهجنا:
. جاسوسة على من؟!
فوضع كلتا يديه على فمه ليجهض ضحكة كادت تنطلق

رغما عنه، وقال موغلا في دعابته:
.علينا نحن الاثنين!!

لم يكن من العسير عليّ التّعرّف إلى «مشيرة» بنفسي، فيما لو رمت ذلك، ودون الاستعانة بأيّ واحد من الزّملاء، بل إنّ لديّ من البراعة في استقصاء الأشياء الصّغيرة ما تقصر دونها جهود جميع زملائي مجتمعين، ولكنّي امرؤ أوثر السّلامة، في كلّ الأحوال، لا سيّما إذا تعلّق الأمر بالنّساء، والحسناوات منهنّ على وجه الخصوص... كان واضحا لدى أصدقائي في المصلحة منذ البداية أنّي الشّخص الوحيد الّذي نادرا ما يشير إلى زميلتنا الجديدة، بل الشّخص الوحيد الّذي يستنكف حتّى من مجرّد انزلاق اسمها من بين شفتيه، رغم أنّها . والحقّ يقال . فتاة غاية في الرّقّة واللّطف، وقد سعت، منذ أوّل يوم لها بالمصلحة، إلى ربط صلات، وتوثيق عرى الزّمالة بيننا وبينها... في الواقع، لقد كان ما ذكرته آنفا هو نصف الحقيقة، أمّا نصفها الآخر، فهو أنّه على الرّغم من تظاهري المتعمّد بعدم الاكتراث واللاّمبالاة، فإنّ «مشيرة» قد ملكت عليّ كلّ كياني منذ اليوم الأوّل الّذي رأيتها فيه. ولكن ما منعني من الاقتراب منها، أو مجاملتها كما هو الشّأن بالنّسبة إلى باقي الزّملاء، شعور عميق كان يدعوني إلى عدم التّورّط، وحفظ مسافة ما . دائما . بيني وبين الجنس الآخر... قد يذهب بكم الظّنّ بعيدا . سادتي .، بعد هذا التّصريح، وقد يخالجكم شكّ مدمّر في أصل رجولتي، ولكن أقسم لكم أنّ الأمر على خلاف

ما قد تتوقّعون. فعلى العكس، إنّ ما يعتريني من وله بالنّساء والكلف بهنّ ما لو انسكب بقاع البحر لفاض به البحر؛ ولكنّ المسألة. بكلّ بساطة. تتلخّص فيما يلي:

. كانت المرأة. بالنّسبة إليّ، وفي أغلب الحالات، إن لم يكن في كلّها. رمزا لجمال عصيّ، لا يجوز المساس به إطلاقا، أو تدنيسه بأيّ حال؛ حتّى أنّه قد تتداول عليّ موجات من النّشوة العارمة، وأطياف من سعادة ما بعدها سعادة، وأنا أتطلّع إلى فاتنة تطلّ عليّ بحضورها من بين ثنايا صورة، أو عرضا على امتداد الطّريق... أنا لست مثاليّا. سادتي.. ولا يعني اعترافي أنّي من أنصار الجمال لأجل الجمال. كلاّ، فاشتهائي. كاشتهائكم. بلا حدود، ورغبتي لو وضعت في كفّة بإزاء كلّ رغباتكم مجتمعة لرجحت كفّتي كفّتكم. ولكن سبب موقفي. الّذي يبدو لكم غريبا، دون شكّ. نفور فطريّ من الزّواج، وفي نفس الوقت خشية. لا أدري مصدرها. من ربط علاقات عشوائيّة. قد تتساءلون في استنكار: لماذا؟ وتسدّدون أصابع الاتّهام إليّ مباشرة دون رحمة. فأقول بكلّ بساطة وتجرّد، ودون أدنى خوف أو خجل، بأنّي أكره كلّ الحالات الّتي تطرأ على المرأة بعد الزّواج من بودار الحمل وآلام المخاض والطّلق ثمّ الولادة... بلى، إنّي أمقت كلّ ذلك، وأمتعض. على الأخصّ. من فكرة أن يكون لي وليد من صلبي؛ ولو قدّر لي، في يوم من الأيّام، أن أتزوّج، لاخترت زوجتي من بين العواقر... قولوا عنّي ما شئتم. سادتي.. غير أنّي امرؤ أكره الكذب، ولا أحبّ الّذين يتحجّجون به لأيّ سبب من الأسباب!!

قد تقولون:

.أنانيّ!

فأجيب:

.ربّما.

قد تقولون أيضا:

.معقّد!

فأقول لكم:

.شكرا.

ولا يمنعني ذلك من إتحافكم بحكاية طريفة حدّثتني بها جدّتي، بعد سنوات من ولادتي، ووفاة والدتي. قالت:

. كان والدك قد بنى بوالدتك، ومكثا زمنا طويلا في أرغد عيش وأهنئه، إلى أن علقت منه؛ ومرّت شهور، وفي نهاية الشّهر التّاسع منها، ولدتك . وكان والدك متغيّبا ،. وقد أرسلنا إليه بشيرا بالخبر، فما كان منه لمّا سمعه إلاّ أن تجهّم، واسودّت سحنته، وقال: «ما كان ينقصني إلاّ هذا... ألا لعن الولد وأمّ الولد!!»

قد تقولون:

. إذن، عرف السّبب فبطل العجب.

وقد تقولون:

.هذا الشّبل من ذاك الأسد.

فأقول بتواضع، وبلا فخر:

. أوّلا، لا أستحقّ أن أنعت بالشّبل. وثانيا، قد يكون ما قلتموه صحيحا، بل هو صحيح دون جدل، فعلم الوراثة

الّذي أعتبر نفسي من أنصاره المتعصّبين، يؤكّد بما لا يدع مجالا للشكّ أنّ خصائص الآباء يورّثونها الأبناء، والأبناء ينقلونها إلى الأحفاد، وهكذا دائما... وإلى ما لا نهاية. لكن، في المقابل، أقرّ بأنّي تعهّدت هذا الموقف بالرّعاية، وقد أضفت إليه من قناعاتي المكتسبة الشّيء الكثير.

في أحد الأيّام، سألني صديق جمعتني به المصادفة:
.هل أحببت في حياتك؟
فأجبته دون تردّد:
.كثيرا.
وسألني مرّة أخرى:
.وهل تحبّ؟
فقلت أيضا:
.أجل.
وسألني مرّة ثالثة، بعد أن تحوّلت صداقتنا إلى كلف فاق حدود العشق:
.فلماذا ترفض أن تتزوّج إذن؟
فقلت:
.لأشاهد جميع النّاس يتزوّجون!!
فعاد يسأل بنبرة بين السّخرية والإشفاق:
.وتبقى بعدهم؟
فقلت بصدق:
. أجل... لأظلّ أعزب؛ فإنّ من يحبّ ويقرأ عن الحبّ لا

يجب أن يغتال حبّه بالزّواج.

فقال:

. هذا حقّا موقف غريب... إنّي أراك توغل في أتون أنانيّة بلا حدود.

فقلت:

. هذه فلسفتي، ولست مستعدّا للتّراجع عنها قيد أنملة.

... عرفت قبل «مشيرة» كثيرات، وعرفت بعدها أكثر؛ ولم تكن هي بأيّ حال من الأحوال أجملهنّ، بل إنّي في لحظات الاستغراق، وحين الخلوّ التّام إلى نفسي، وفي محاولة لاستعادة الأشياء والأحداث داخل مخيّلتي، والنّظر إليها على ضوء الانفعالات الطّارئة، وهدوء البال الّذي يكون قد اكتنفني، وبشكل مفاجئ، أستطيع أن أقول إنّ جمالها لا يمتاز عن جمال أيّ أنثى غيرها. فما مصدر هذا الكلف إذن؟ وما سبب كلّ هذا الاضطراب الّذي كان يعتريني كلّما تطلّعت إليها خلسة، وفي غفلة من أعين الرّقباء؟...أرجّح أنّ سبب ذلك يكمن . أساسا . في كوني استغرقت في اكتشافها فترة أطول بكثير من اكتشاف اللّواتي عرفتهنّ قبلها، واللّواتي عرفتهنّ بعدها على حدّ سواء، إلى درجة أنّه لو طلب منّي في الأيّام الأولى من مجيئها أن أصفها وصفا دقيقا لأرتج عليّ، ولما استطعت أن أحير جوابا... اكتشافي لـ «مشيرة» كان أشبه بالولادة المتعسّرة المستعصية، وكنت أشعر دائما في قرارة نفسي أنّي اجتثثتها من حشاشة فؤادي، وأضفت عليها من خيالاتي وأوهامي، وصببتها أخيرا في القالب الّذي استوت فيه أنثى فارهة،

أشعر كلّما نظرت إليها برغبة جامحة في البكاء والنّشيج. هذه «مشيرة» إذن، صنيعتي الّتي لم يخوّلني ضنى وضعها التّأمّل بإمعان في تقاسيم تشكيلها ودقائق فتنتها الملغزة، إلاّ بعد أسابيع طويلة من النّصب والإرهاق. فلم أعرف مثلا أنّ شعرها المنساب في ليونة يضرب إلى حمرة إلاّ بعد خمسة أيّام على وجه التّحقيق، وبعد أن كدت أيأس من مخادعة زملائي، كي أتمكّن من مسارقتها لحاظا خاطفة... لم يكن من الممكن في البداية أن ألاحقها. ولو خلسة. خارج حدود المكتب، وكان لزاما عليّ أن أكتفي منها بتلك النّظرات اللّجوج الّتي أختلسها من حين لآخر، وفي ذات المكان الّذي لا يعدم، في أيّة ساعة من ساعات النّهار، وجود نمّامين بارعين، وجواسيس لا يجارون في جوسستهم... وبعد عشرة أيّام، اكتشفت أنّ شكلها العامّ لا يعيبه سوى استعداد بيّن للامتلاء؛ ولعلّ هذا الاستعداد عينه هو ما أضفى عليها تلك المسحة من الفتنة الّتي شدّتني بعنف إلى إسارها... جيدها متناهي الدّقّة والبياض، أملس يحاكي المرمر في نقاوته وصفاء بشرته، وينساب في لطف إلى حدود كتفين عبلين، وصدر متوّج ينوء تحت عبء مكوّرات غاية في الرّوعة والفتنة... كنت أخشى. حقيقة. أن أنهار فيما لو جازفت باكتشافها خلال يوم واحد، لذا عمدت إلى التّأجيل والتّأنّي حتّى تكتمل الرّؤية، وتتحقّق المتعة، ويتمكّن الوله... في الأسابيع التّالية، ودائما خلال اللّحظات الّتي يسمح بها كرم الزّملاء، لا أدري لماذا وقر في نفسي أنّ «مشيرة» تحبّ اللّون الأحمر، رغم أنّها في الظّاهر تميل ميلا مطلقا إلى الاحتشام،

ولا تلبس . بدلا من ذلك . إلاّ الفساتين الطّويلة ذات الألوان القاتمة!! هل يكون ما ذهبت إليه هو الحقيقة أو مجرّد وهم صوّره لي خيالي الجامح في لحظة عشق غير معقول؟! قد أكون . لفرط تدلّهي . ربأت بتلك البطن المستوية في شبه ضمور وبعض امتلاء، وتلك العجيزة المتسلطنة، أن تواريهما مثل تلك الثّياب الّتي تكاد تميل بألوانها القاتمة إلى الفجاجة! وقد أكون انتهيت إلى قناعتي تلك على إثر كلّ رنوة أسترقها منها، فتأكّد لي أنّ مظهرها سيكون . دون أدنى شكّ . غاية في البهاء والرّوعة لو تسربل في احمرار النّمنمات والتّقاطيع! ربّما أكون أيضا قد قست على نظريّة العناصر الأربعة، فانتهى بي المطاف إلى ابتكار نظيرة لها في عالم الألوان: فإذا كان الكون بكلّ عناصره ومكوّناته، ولقرون متوالية، قد خضع إلى سلطة النّار والهواء والماء والتّراب، أو لن يكون أجمل أن يتقيّد ببهاء الألوان وسلطانها؟!

قلت لصديق، ذات مرّة، أسأله:

. ما أحبّ الألوان إلى نفسك؟

فقال فورا، ودون تفكير:

. الأخضر.

فسألته ثانية:

. لماذا؟

. لأنّه اللّون المحبّذ في جنّة الخلد.

فعدت أسأله من جديد، قاصدا بذلك ممازحته:

.وهل تعتقد أنّ الجنّة خلقت لأمثالنا؟

فأجاب بدوره، وبدعابة فاقت حدود دعابتي:

. أمّا لك أنت، فلا أدري، ولا أظنّ أنّك أهل لدخولها؛ وأمّا عن نفسي، فأعتقد أنّني كفء لدخولها.

وأغرقنا .كلانا .في ضحك قطعته قائلا، وقد تعمّدت بذلك تغيير مجرى الحديث في نفس الوقت:

. أمّا أنا فأفضّل اللّونين الأحمر والأسود، وأمقت البياض.

سأل مستهجنا:

. الأحمر والأسود؟!... وتمقت البياض؟!

فقلت، وقد قصدت إلى امتصاص دهشته واستهجانه معا:

. أجل، إنّي أعشق هذين اللّونين؛ وأرى أنّ القبيحات لا يحقّ لهنّ إطلاقا أن يرتدين ثيابا حمراء أو سوداء...

قال:

. يا سلام... فمن يلبس الأحمر والأسود حسب رأيك؟

. الجميلات طبعا.

فقال سائلا، وقد عاوده استهجانه:

. ولماذا «طبعا» هذه؟!

. لأنّهنّ .بكلّ بساطة .جميلات.

. والقبيحات... ماذا يرتدين في رأيك؟

فقلت بين الجدّ والهزل، وقد غلب جدّي على هزلي:

. الأبيض أو أيّ لون آخر، عدا اللّونين اللّذين ذكرت.

. لكن لماذا؟!

.لأنّهنّ .بنفس البساطة الأولى . قبيحات.
فقال، حينئذ، معلّقا:
.هذا أعجب رأي أسمعه في حياتي.

... ومن غريب ما حدث لي في حكايتي مع «مشيرة» أنّي أهملت .وربّما يكون ذلك ضربا من ضروب السّهو أو النّسيان، أو من محاسن المصادفات الّتي كان يدّخرها لي القدر الرّحيم . أبرز سمة من سماتها، ولا أراني أبالغ إذ أقول إنّها السّمة الأكثر تمييزا لحسنها المتفرّد وجمالها المكنون، بالإضافة إلى نظرة في عينيها كان من الصّعب عليّ وصفها، ولكنّي ما أفتأ أزداد يقينا كلّما سارقتها إيّاها أنّها تذكّرني بمأساتي المزمنة (ولذلك حديث آخر أنا ذاكره في غير هذا الموضع)... قلت إذن إنّي أهملت أبرز سمة تميّزها، وهو ذلك الخال الأسود الصّغير، الّذي كان يرتسم بجلال قريبا من ملتقى الشّفتين في الجهة اليسرى، كأنّه حبّة السّمسم... وتحضرني الآن حادثة، جمعتني بثلّة من زملاء الدّراسة، في أحد أحياء الحاضرة، وكان الفصل صيفا، والوقت مساء، ونحن نفترش بعض البسط في رواق المبنى الّذي نقطن فيه، ونذاكر على أنغام السّيّدة «هيام يونس»... وأذكر أنّي رفعت عينيّ فجأة عن الأوراق الّتي كنت أراجعها، وقلت مدفوعا بهسيس النّسمات وجنون اللّيل:
.الأغنية جميلة حقّا؛ والأجمل منها خال صاحبة الأغنية.
وكانت صورة السّيّدة «هيام يونس» تتصدّر غلاف الشّريط، فأخذتها بين يديّ متأمّلا كأنّي أريد أن أثبت لنفسي

أنّي على حقّ في ما ذهبت إليه.

عندئذ، قال زميل لنا، وكان قد وفد إلينا من إحدى مدن الجنوب البعيدة، بمناسبة دنوّ موعد الامتحانات، وكان لمّاحا، إلى درجة جعلتني أضعه في عداد أصدقائي القلائل المعدودين:

.هي أيضا لها خال!!

ولم يزد على ذلك... وعندما تطلّعت إليه كانت ترفّ على شفتيه المكتنزتين أطياف ابتسامة حلوة عذبة. وقد انتويت أن أسأله مستفسرا، غير أنّ صوتا بداخلي أجهض نيّتي فأحجمت.

في مرّة أخرى، وكنّا بمفردنا، قال في حميّا ولهه وانتشائه:

. آه، لو رأيتها...!! اسمها راوية... هناك تعرّفت إليها... كنت أراجع لها بعض الدّروس مع صويحباتها... وأسرني خالها...

ثمّ صمت قليلا، ريثما يمنح نفسه بعض الوقت لتهدئة انفعاله، وقال:

. لا أتصوّر كيف ستكون حياتي من دونها... عندما تسنح لك فرصة رؤيتها، ستدرك أنّي لا أبالغ قطّ.

كان القدريأبى إلاّ أن يعيد معي نفس اللّعبة؛ والحقيقة أنّي لا أجد غضاضة في ذلك، وأحسّ صادقا أنّ شيئا من سعادة رحيمة لن يتأخّر حتّى يطرق أبواب قلبي الموصدة... لقد كنت، في كلّ مرّة أرنو فيها إلى «مشيرة»، أغفل أو أتغافل عن رؤية

ذلك الخال، ولعلّ سبب ذلك يرجع إلى خوفي المقيم من أن يكشف أحد الزّملاء أمري، ويهتك ستري. وذات يوم، ذهبت إلى المصلحة مبكرا، على خلاف عادتي، فوجئت بها تقف أمامي، وأنا أهمّ بالباب لأفتحه. كنّا وحدنا... أنا وهي... ومع ذلك، خفت وارتعت. كانت المفاجأة أقوى من شجاعتي بكثير. قالت في رقّة وعذوبة:

.صباح الخير.

فتلجلجت، ولم يسعفني صوتي بغير همهمة مسكينة؛ ولكن في المقابل، أسعفني القدر بما لم أكن أتوقّعه أبدا... لقد أتاحت لي تلك الفرصة أن أرى خالها... أن أتملاّه، ودون الخوف من افتضاح أمري... وشعرت آنئذ بمسّ رقيق يتسرّب عبر نخاعي الشّوكيّ إلى أقصى نقطة في الدّماغ... وزغردت أصوات معربدة بقلبي... واهتزّ كلّ كياني... كان القدر الرّحيم يخبّئ لي أكثر من هذه المفاجأة، وكأنّه أراد أن يعوّضني عن ساعات الخوف والتّطلّع والاضطراب... كان اكتمال هلاكي في نظرة عينيها؛ بلى، نظرة عينيها!! تلك النّظرة الصّامتة... الضّاجّة... المدوّية... الحزينة... الأسيانة... إنّها المأساة!! بلى، إنّها مأساتي الّتي من أجلها عشقت كلّ العيون المندسّة فيها نظرة كنظرتها؛ وعشقت عيني «مشيرة» أكثر من كلّ العيون الّتي عرفت، لأنّ مأساتي كانت بهما أحدّ وطأة وأعمق أثرا.

قد تقولون:

.ما باله هذا المجنون، يناقض نفسه بنفسه؟ احترنا، والله، في أمره، فلا ندري .تحقيقا .حبّه من عدم حبّه، ولا صدقه من

كذبه!!

أنا لا أرى في ذلك تناقضا البتّة؛ وما ترونه أنتم تناقضا، ويخيّل إليكم أنّه ضرب من الجنون، أو طيف من مسّ، أراه بدوري العقل عينه متمظهرا في أجلى أشكاله. غير أنّي، في المقابل، أعترف أمامكم أنّ المسألة تحتاج إلى بعض الشّرح المسهب، وكثير من الصّدق والشّجاعة، من جانبي، حتّى أتمكّن من تقريب الصّورة إليكم، وبقدر لا بأس به من التّجرّد... إنّي .ساداتي .- نذرت منذ سنوات طفولتي الأولى إلى حياة قاسية كلّها رهبانيّة وانعزال؛ وعلى إثر وفاة والدتي، تعمّقت معالم هذه الحياة القاسية لتصبح أشبه ما يكون ببؤرة من السّواد القاتم والظّلمة المطبقة؛ وقد كان مقدّرا لي أن أتوارب في طيّات سنوات طويلة موحشة قبل أن أستفيق على أوّل صدمة... في الحبّ!! لا يعني ذلك أنّي لم أعرف الحبّ خلال تلك السّنوات العجاف، ولكنّه حبّ «سرّي»، إذا جاز لي أن أنعته بذلك!... أرى الفتاة فتعجبني، ويتمكّن من قلبي الإعجاب بها، غير أنّي لا أتجاوز حدود ذلك الإعجاب، فلا أسعى إلى مغازلتها، أو التّعرّض لها من قريب أو بعيد، بل إنّي لا أكلّف نفسي حتّى مجرّد ملاحقتها، من بعيد، كما هو الشّأن بالنّسبة إلى من هم في مثل سنّي، أو في مثل وضعي، بمعنى أدقّ... ورضيت بقدري، واستسلمت له دون قيود أو شروط، مكتفيا بمداراة رغباتي كلّما ألحّ عليّ نحيبها، والتّناسي في أغلب الأحيان، فلا أعدم أن أشغل نفسي بكلّ ما هو مفيد وغير مفيد على حدّ سواء... كأن أقرأ كتابا، أو أهرب من عزلة الغرفة إلى عزلة الصّحراء،

أو أستمع إلى الموسيقى، أو أنام داعيا الله أن لا يبتليني بعذاب الأحلام...!! ورغم رضاي بهذا القدر، وحدبي عليه، واعتقادي في ديمومته واستمراريّته، فإنّ هذا القدر نفسه كان يضع خططا معاكسة، أو بالأحرى خططا ضدّ إرادتي، ففتح عينيّ المغمضتين على عالم المرأة المخمليّ، وزجّ بي في أتون دوّامة ذات جلجلة وصليل؛ فكانت المرأة أوّلا... وكانت المرأة ثانيا... وكانت المرأة عاشرا... وكانت المرأة إلى الأبد!!

قد تتساءلون:

.أهو الكبت؟

وقد تحلّلون حالتي من منظور علم النّفس الحديث، فتعزون ما ألمّ بي إلى الحرمان، أو القمع، أو الحاجة، أو غير ذلك من المقولات الّتي أعرفها سلفا، وحفظتها عن ظهر قلب مذ كنت طالبا في الثّانويّة؛ ولكنّي، رغم قناعتي بجدوى علم النّفس في الكثير من الحالات المرضيّة، والأزمات النّفسيّة، أرى أن أعطي حكايتي أبعادا جديدة، بمنأى عن الكلمات الطّنّانة والنّظريّات المستهلكة.

قد يكون قدرا أعمى، أو قدرا رحيما، ذاك الّذي أصبح يوجّه خطواتي، وقد يكون أيّ شيء آخر...!؟ على أيّ حال، لقد سقطّت، وانتهى الأمر؛ أو بالأحرى، لقد سقطّت إلى الحدّ الّذي يمكنني معه تدارك أمري، فيما إذا أزمعت ذلك؛ ولكن .صدّقوني .لم أكن على استعداد للتّراجع، لم تخامرني فكرة الارتداد إلى الخلف مطلقا؛ وهذا بالذّات ما ضاعف من ألمي، وأورثني حسرة في القلب من الصّعب اندمالها... لقد ظللت

أرنو إلى عالمي المخمليّ الجديد عن بعد، ولم أحاول. ولو مجرّد محاولة. الاقتراب منه، لذلك بقي لفترة طويلة مشكلا عليّ، ملغزا في غرابة، محيّرا إلى حدود الإرباك. وكنت أتساءل، بيني وبين نفسي: «إلى متى هذا الخوف؟ ألا يجوز أن أتقدّم خطوة إلى الأمام؟ إلام أبقى مجرّد فيلسوف أحمق يقف على قمّة ربوة متآكلة؟ فلأحزم أمري، ولأضرب في خضمّ العباب!!...» ولمّا أتّخذ القرار، وأوشك على الإقدام، لا أجد الشّجاعة الكافية، وتنوح بداخلي أصوات تحذّرني مغبّة الفشل والإحباط... أعود حينئذ من حيث بدأت، وتتواصل اللّعبة اللّعينة بين كرّوفرّ.

... في الحاضرة، حطّمت إسار هذه الحلقة؛ وفي أحد الصّباحات الممطرة، تغلّبت على تردّدي نهائيّا... ظللت قبل ذلك أيّاما بطولها أخطّط وأضع الافتراضات، وكنت في كلّ مرّة أجد استعدادا صادقا وإحساسا طاغيا جاوزا حدود الإعجاب يدفعاني إلى الأمام بجنون. قلت لنفسي: «إنّه الحبّ أخيرا... وإلاّ لماذا تنتابني كلّ هذه الشّجاعة الآسرة!» غير أنّ هذا الاعتقاد لم يمنعني من الرّويّة وإعمال العقل، كيما تأتي النّهايات مطابقة للبدايات، فوقر لديّ أنّ خير وسيلة أقتحم بها عالم «مي». هكذا كان اسمها. أن أعرض عليها في البداية صداقة بريئة. وهكذا كان!!

في المكتبة قلت لها، وأنا لم أتخلّص تماما من خجلي:

.فلنصبح أصدقاء.

ابتسمت... وافقت دون تردّد، ومنذ ذلك اليوم صرنا أصدقاء. أصبحت أنتظرها كلّ صباح أمام قسم اللّغات،

فنثرثر قليلا، ثمّ نلمّ بالدّرس... وكان عامل الزّمن يعمل لصالحي، فجعلني أتعرّف إليها أكثر، كما جعلها تكتشف فيّ . من خلال بعض القصائد الّتي كنت أنشدها أمامها . مولد مسخ حزين... ومسكين أيضا.

قالت لي، تحدّثني عن نفسها، و هي تمسك سيجارة بين وسطاها وسبّابتها، وتخفي عينيها الجميلتين وراء عويناتها السّوداء:

. أشعر أنّي أوشك على الاختناق كلّما أكون في المنزل... لا أطيق البيت، ولا أطيق أحدا فيه... أودّ لو أبقى هنا دائما.

واكتشفت المأساة وراء كلامها، كما كانت المأساة مندسّة في عينيها، وراء عويناتها. إنّها مأساتي!!

وتساءلت:

.هل أحبّ مي؟

فجاوبني صوت ضعيف ينبعث من أبعد نقطة في أغواري يقول مغريا:

.أجل، إنّك تحبّها... بلى، إنّه الحبّ.

وقرّرت أن أصارحها. كنت أعتقد أنّ النّقطة الصّفر قد حانت لإعلان الإقلاع المرتقب. وانتظرتها ثاني صباح . على عادتي . أمام القسم، وطال انتظاري، ولم تأت!!

بعد ثلاثة أشهر، وعندما رجعت من أرق العطلة إلى أحضان الحاضرة، التقيت بصديق سألني دون تمهيد:

.هل تذكر مي؟

كدت أتجاهل السّؤال، معتبرا ذلك سوء أدب من جانبه...

فمن أين له أن يعرفها؟ ولماذا ينطق اسمها بكلّ هذه البساطة والوقاحة؟... لا يحقّ له أن يفعل ذلك البتّة... وددت لو... أنّي اخترقت بإصبعيّ... أصل عينيه!!

وقطع عليّ موجة الغضب المعتملة بداخلي بأن قال:

. لا تقل لي إنّك لا تعرفها؛ فلا داعي للإنكار... لقد لاحظت طيلة العام الماضي أنّك مهتمّ بها...

فقاطعته محتدّا:

.وما يهمّك من أمرها؟

فقال وهو يبتسم ابتسامة حمّلها قدرا كبيرا من الإشفاق والرّثاء:

.لا شيء؛ ولكنّي أردّت أن أقول لك...

فقاطعته مرّة أخرى، وبلهفة لا تكاد تخفى:

.أن تقول لي ماذا؟

.أردت أن أقول لك إنّها تزوّجت وسافرت.

سألته، وأنا لا أكاد أتمالك نفسي عن البكاء:

.سافرت إلى أين؟

.لا أدري.

.لماذا؟!

. لأنّها أرادت ذلك... هكذا النّساء، إذا فعلن شيئا فمن السّخف أن نسألهنّ لماذا!!

كان صعبا جدّا... صعبا إلى حدّ الإيلام أن أفجع في أوّل حبّ انفتحت له مغاليق قلبي، وترنّقت بمنظر حسنه عيناي؛ ولكن، ما العمل؟ ما العمل، وأنا لست من ذوي الميولات المرهفة إلى

حدّ الشّذوذ، والحساسيّة المفرطة إلى حدّ الجموح، لأفكّر في الانتحار، أو أضع حدّا لحياتي على قمّة جبل أو في قاع النّهر؟ بلى، تعذّبت... قضيت ليالي مسهّدة دون نوم... فكّرت في إدمان الشّراب... أو المخدّر. وكان أقصى ما خامرني في لحظات اليأس والضّغط النّفسيّ أن أهجر الحاضرة كشكل من أشكال الانتقام المازوكيّ، واضعا بذلك نهاية بائسة لمسيرة مظفّرة من النّجاحات في الدّراسة... فكّرت في كلّ ذلك، لكن لم يتبادر إلى ذهني قطّ أن أخمد أصوات عذاباتي بالانتحار... أهو الخوف من الانتحار؟ أم الخوف من الله؟ أم مجرّد ضياع هذا الاحتمال في خضمّ الاحتمالات الّتي كانت تغلي بها مراجلي آنذاك؟

الحزن... ومدينة الصّمت ليلا... وعلى الفراش كان يطالعني وهو يقرأ، دون أن تفارق السّيجارة إصبعيه وشفتيه:

«يعرف الموت أنّي أحبّك/ يعرف وقتي/ فيحمل صوتي/ ويأتيك مثل سعاة البريد/ ومثل جباة الضّرائب/ يفتح نافذة لا تطلّ على شجر/ (قد ذهبت ولم أعترف)./ يعرف الموت أنّي أحبّك../ يستوجب القبّة النّصف../ تستقبلين اعترافي../ وتبكين زنبقة ذبلت في الرّسالة/ ثمّ تنامين وحدك وحدك وحدك/ يشهق موت بعيد/ ويبقى بعيد/./ إلى أين أذهب؟! إنّ الجداول باقية في عروقي/ وإنّ السّنابل تنضج تحت ثيابي/ وإنّ المنازل مهجورة في تجاعيد كفّي/ وإنّ السّلاسل تلتفّ حول دمي/ وليس الأمام أمامي/ وليس الوراء ورائي/ كأنّ يديك

المكان الوحيد./ كأنّ يديك بلد/ آه من وطن في جسد!»[1]

... ما إن أشرف الجرح الأوّل على الاندمال . وكان ذلك بعد جهود مضنية أشفت بي على موارد الهلاك . حتّى ابتليت بالجرح الثّاني؛ وما كنت أظنّ، أو خطر بخلدي، ولو للحظة، أنّ الصّدمة ستحلّ بمثل هذه السّرعة الخاطفة والقوّة المهولة. لقد نسيت أو تناسيت بليّتي . وهكذا أنا دائما . وانسقت دون رويّة وراء جموح عواطفي تجاه الآنسة «ث»، «الفاتنة المحترمة المبجّلة!»... ترى من قال ذلك؟! من وسمها بكلّ تلك الصّفات؟ ولماذا؟ ومن هي الآنسة «ث» لتستحقّ كلّ هذا التّبجيل والاحترام؟!

سادتي...

أنتم لم تعرفوها، كما عرفتها أنا؛ ولم تستمعوا إلى صوتها، وهو يتردّد في أصقاع نفسي كأنّه نفخ المزمار، أو همس الملائكة. ولو اتّفق أن وضعكم القدر وجها لوجه أمام جاذبيّة حضورها، لربّما... أقول ربّما خلب ألبابكم ثراء كونها واتّساع مراميها... يا لله!! هذا الصّوت هو ما شدّني إليها... أعماني عن كلّ ما عداه، فلكأنّه السّحر أو الإيمان أو همس اليقين، أو اللاّمسمّى الّذي يجل عن كلّ اسم ووصف... كنت أشعر كلّما التقيت الآنسة «ث» أنّي أحترق في عالمها... أذوب في أتون أوساعها... ويحلو لي دائما أن أستمع إليها، ولو كنت أملك قدرة آنئذ لامتنعت حتّى عن التقاط أنفاسي... إنّه ذات الصّوت! إنّه حزنها... ومأساتي!

وقرّرت أخيرا أن أصارحها... في القطار، انتحيت بها جانبا،

---

١ محمود درويش. من قصيدة «موت آخر... وأحبّك»

وكانت جيوشنا تندحر أمام الهجمات الآتية من كلّ الجهات؛ وقلت لها هامسا في صدق:

. أحبّك.

نظرت إليّ في البداية باستغراب كأنّها لم تصدّق أذنيها؛ وما لبثت أن طفرت دموع سخينة من عينيها اللّؤلئيّتين، وقالت بنبرة عطوف، ودون غضب:

. إنّي فتاة منذورة لغير الحبّ.

سألتها، وقد استحالت حماستي الأولى إلي خيبة أمل:

. فلمن، أو لأيّ شيء أنت منذورة إذن؟

فقالت، وهي تنظر إليّ بتحديد، كأنّها تعاتبني:

. لراجي الصّغير... لوالدي... لوالدتي... للعائلة.

وصدّقتها، إذ لم أكن أملك غير ذلك.

وفي اللّيل بكيت... أجل، بكيت بحرقة، كما لم أبك من قبل؛ وتمدّدت على سريري في غرفتي الصّغيرة، وكان النّوم آخر ما أفكّر فيه.

الحزن... ومدينة الصّمت ليلا... وعلى الفراش كان يرنو إليّ، وهو يقرأ، دون أن تفارق السّيجارة شفتيه وإصبعيه:

«رجل وامرأة يفترقان/ ينفضان الورد عن قلبيهما،/ ينكسران./ يخرج الظّلّ من الظّلّ/ يصيران ثلاثة:/ رجلا/ وامرأة/ والوقت.../ . / لا يأتي القطار/ فيعودان إلى المقهى/ يقولان كلاما آخرا،/ ينسجمان/ ويحبّان بزوغ الفجر من أوتار جيتار/ ولا يفترقان.../ . / ... وتلفّتّ أجيل الطّرف في ساحات هذا القلب./ ناداني زقاق ورفاق يدخلون القبو والنّسيان في

مدريد./ لا أنسى من المرأة إلاّ وجهها أو فرحي.../ أنساك أنساك وأنساك كثيرا/ . / لو تأخّرنا قليلا/ عن قطار الواحده./ لو جلسنا ساعة في المطعم الصّينيّ،/./ لو مرّت طيور عائده./ لو قرأنا صحف اللّيل/ لكنّا/ رجلا وامرأة يلتقيان...» [٢]

كان من الممكن أن أتّعظ بعد هذه التّجربة، وأرتدّ على عقبيّ غير آسف، وقد فكّرت في ذلك فعلا، وطال بي التّفكير، ولكنّي كنت . في كلّ مرّة . أؤجّل لحظة القرار الحاسم إلى وقت غير معلوم؛ ثمّ، وبمثل الإلهام الّذي لا يواتي المرء إلاّ مرّة واحدة في العمر، اهتديت إلى حلّ ظننت آنذاك أنّه سيخلّصني من قلقي وكلّ الأصوات المتردّدة بداخلي... قلت لنفسي: «لماذا لا أظلّ على ما أنا عليه؟ لماذا أتراجع أخيرا، وبعد أن قطعت أشواطا على درب التّغلّب على حيائي؟ ثمّ إنّي لست الوحيد الّذي أبتلى في أعزّ ما يملك، بل إنّ ما حدث لي لا يكاد يعتبر شيئا يذكر أمام ما ألمّ بأساطين العشق وأرباب الهيام... فأين أنا من عروة والمجنون وجميل وكثير...؟! وما بليّتي في مقابل بلاياهم؟!»... ساعدني ذلك كثيرا على التّصبّر والسّلوى، كما أنساني إلى حدّ ما قسوة التّجربتين السّابقتين؛ ووجدتني أعترف لنفسي، بكلّ شجاعة، أنّ الحياة لا يمكن أن تتوقّف عند هذا الحدّ، وهي لا تحفل قطعا بخيبة فلان، أو آلام علاّن، بل إنّها لا تحفل حتّى برزء وفاته، وهي تمضي حتما، ورغما عن كلّ شيء!! فلماذا الإصرار على الحزن؟ ولماذا ألجّ في العناد كبغل حرون؟!

---

٢ محمود درويش. «قطار السّاعة الواحدة»

دخلت معترك تجربة جديدة...

دخلتها بأكثر حذرا!! وأصبح لا يعنيني من العالم المخمليّ الّذي قدّر لي أن أُبتلى به، وأشدّ إلى عمقه كوتد، إلاّ مأساتي الّتي كنت أتحرّى معالمها في أتونه... النّظرات الأسيانة... الملامح السّريّة الغامضة... الصّوت الدّافئ الملغز... والكلمات الرّابضة على حدود مطلق لا يرى!! جمعتني المصادفات بكثيرات، كنت ألتقيهنّ عرضا في الشّارع، أو في دور السّينما، أو المجتمعات البوهيميّة، وربطتني ببعضهنّ علاقات حميمة، وكان لزاما عليّ أن أخوض معهنّ في أحاديث شتّى... أحاديث متشعبّة أحيانا؛ ولقد لاحظت. غير مرّة، وبإحساسي الّذي لا يخيب. أنّ أغلبهنّ كنّ يؤمّلن من وراء هذه الأحاديث شيئا بعينه... شيئا محدّدا، لم أخطئه في نظراتهنّ المتلهّفة، وإيماءاتهنّ المضطربة القلقة، وهو أن يسمعنني أقول بنبرة العاشق المدلّه: «أحبّك... أحبّك...»؛ قطعا، كنّ يجهلن سرّ حكايتي مع هذه الكلمة، كما كنّ يجهلن. وهذا هو المهمّ في نظري. أنّي آليت على نفسي أن لا أتفوّه بهذه الكلمة ما حييت، ولأيّ أنثى مهما بلغت درجة فتنتها وألق سحرها... كنت أكتفي منهنّ بنظرات مختلسة، بلمسات عابرة غير مقصودة؛ ونتحدّث طويلا، ونفترق في النّهاية، وأنا أحرص ما أكون أن لا أتطرّق إلى حديث الحبّ مهما كلّفني ذلك من ألم باطنيّ وتبكيت ضمير.

«مشيرة» نفسها ليست استثناء... إنّها لا تختلف عنهنّ في كثير من الأمر، سوى أنّها تمتلك خالا ساحرا، وصوتا رائعا

فاتنا. وقد قرّرت. عندما ضاقت بي مشاكسة المكان والتّحسّب من عيون الزّملاء. أن ألاحقها خارج المكتب من باب التّسلية... صرت أتأخّر في المصلحة، متظاهرا بإتمام بعض المهامّ المتأخّر إنجازها، حتّى يخرج جميع الزّملاء؛ وقد كانت «مشيرة» . في العادة . آخر الخارجين. حينئذ، أنسحب في صمت، وأتّخذ طريقا مغايرا للطّريق التّي تسلكها، فإذا ما توارت، وغيّبتها عطفة جانبيّة، وأكون قد اطمأننت إلى ابتعادها، أرتدّ على عقبيّ مسرعا، وأنا أجهد أن ألحق بها دون أن تراني... وقد تمكّنت خلال فترة ملاحقتي إيّاها، والّتي باتت شبه مستمرّة، عدا أيّام العطل، أن أتعرّف إلى الحيّ الّتي تقطن به، ورقم منزلها، وكلّ شيء عن عائلتها الصّغيرة، المكونّة من أمّ عجوز، وأخت في الرّابعة عشرة من عمرها، طالبة في الثّانويّة.

قد تتساءلون:

.هل أحببتها فعلا؟

فأجيب بتأكيد:

.لا أعلم.

وقد تتساءلون أيضا:

.هل كنت تنوي الزّواج بها ما دمت تلاحقها؟

فأجيبكم صادقا، وبتأكيد أيضا:

.قطعا لا.

... في الآونة الأخيرة، أدركت أنّها أصبحت على علم يقينيّ بملاحقتي إيّاها؛ ولعلّ ما شجّعها على الصّمت، ومنعها من التعرّض لي، أنّها كانت تنتظر ما ستنتهي إليه هذه «اللّعبة».

ولعلّها كانت تبني آمالا عراضا على هذه المطاردة... لعلّها أيضا ساءلت نفسها: «ما سرّ هذا الإصرار؟ ولماذا يلجّ في مطاردتي؟ وماذا يريد منّي بالضّبط؟» ولم أتطوّع بالطّبع لأوضّح لها ما عمي عنها من هذه التّساؤلات؛ ويبدو أنّها لم تكن متعجّلة فتظاهرت بتجاهل الموضوع في صمت.

في أحد الأيّام، وكان ذلك بعد انتهاء الدّوام، تابعتها من بعيد على سير العادة، ولم أكن أعلم أنّها قرّرت أن تضع حدّا حاسما لتجسّسي عليها... في منتصف الطّوار المؤدّي إلى بيتها توقّفت، وكنت قريبا منها إلى الحدّ الّذي لو تراجعت عنده لأدرك أيّ عابر سبيل أنّي كنت بصدد ملاحقتها، فحثثت الخطى إلى الأمام، ومضيت مسرعا بجانبها، متظاهرا بعدم رؤيتها. ولكنّها كانت تملك من الجرأة ما جعلها تتطلّع إليّ وعلى شفتيها ابتسامة فيها مكر وإشفاق، ثمّ تقول بشجاعة، ودون مواربة:

. أنت؟

التفتّ إليها، وكأنّي أراها لأوّل مرّة، وقلت متظاهرا بالدّهشة، الّتي فضحتها خشخشة مترقرقة في صوتي:

. مشيرة...!! أهلا بك.

فقالت متضاحكة:

. أهلا بك أنت في حيّنا...

ثمّ، وبنبرة ماكرة لم تحاول إخفاءها:

. لا شكّ لديك الآن أنّي أسكن في هذا الحيّ.

فقلت مماحكا، وبنبرة أودعتها أكبر قدر ممكن من التّغابي والتّجاهل:

.لقد كنت مارّا من هنا...

فقاطعتني بصراحة مخيفة:

. وأمس... وأوّل أمس... وطوال الأيّام المنقضية، هل كنت أيضا تمرّ من هنا بالمصادفة؟!

سألتها، وأنا أتصنّع الغضب، في حين أنّي أكاد أموت خجلا وحياء في أعماقي:

.هل أعتبر أنّه لا يحقّ لي أن أمرّ من هنا ما دمت تقطنين في هذا الحيّ؟

فقالت بجرأة:

.كلاّ... ولكنّي متأكّدة أنّك كنت تطاردني، وتصرّ على ذلك. فماذا تريد منّي؟

طأطأت رأسي، وخرج صوتي مسكينا، وأنا أقول لها في ذلّة:

.لا أريد شيئا... لقد كنت مخطئا فسامحيني.

وتوقّفت عن مطاردتها؛ وكنت أخشى أن تخبر الزّملاء بما حدث لي معها، ولكنّها لم تفعل.

((٣٠.))

غادرت البيت... اجتزت الفناء الدّاخليّ للحوش، ودلفت من الباب إلى الخارج، وأنا أستمرئ إحساسا غريبا بالطّمأنينة والقلق والسّعادة والتّحسّب معا. وقد كان ذلك الإحساس من العمق والتّأثير بحيث أذهلني عن نفسي، إلى الحدّ الّذي جعلني لا أشعر بتغلغل الحرارة المحرقة في جسدي، وحبّات العرق الغزيرة الّتي كانت سرعان ما تتحوّل إلى لزوجة مقلقة، فتتسبّب في التصاق ثيابي بجذعي وبطني.

وقد انضاف إلى ذلك المزيج الغريب من الأحاسيس المتناقضة إحساس طارئ بالقرف خالطته شفقة مترقرقة، ورثاء بائس، قد استدرّه جدّي العجوز، وهو يتّخذ مكانه الأزليّ على كرسيّه، أمام غرفته، بالحوش الكبير... في السّادسة والسّبعين من عمره، بالكاد يستطيع المشي جرّاء قيامه بخمس عمليّات جراحيّة كلّفته ثروة طائلة . على إمساكه وتقتيره .. لا يفتأ يتحدّث، يروي الحكايات الطّويلة لكلّ من هبّ ودبّ، عن الماضي البعيد، والحياة الصّعبة، والنّضال المتواصل... «وأرمى . في النّهاية . كخرقة بالية، أو شيء لا قيمة له... لا زوجة... لا أبناء... والآمال العراض القديمة تذهب كلّها

قبض الرّيح.» هكذا كان جدّي ينهي سلسلة حكاياته الّتي تتكرّر دائما، وبنفس النّبرة تقريبا، مع إيداعها كمّا مهولا من النّقمة والغضب، ولا يضطرّ إلى الإضافة إليها، أو تغيير بعض أجزائها، إلاّ فيما ندر... عندما كان جدّي صحيحا معافى، كان يحلو له أن يتحدّث في كلّ مكان، ودون خجل؛ لا يستثني في ذلك حتّى أكثر الأسرار قداسة، إلى أن صار كلّ النّاس في المدينة . تقريبا . على علم بما يحدث عندنا . إن صدقا أو كذبا .: ففي الأسواق كان له أنجياء وخلصاء، وفي حلقات الشّيوخ المسائيّة، وفي بيوت الجيران، حتّى إنّه كان لا يستنكف من مساررة النّساء، والخلوص نجيّا إليهنّ... «فلانة، زوجتي، تفضّل الموت على رؤيتي، تزور الأقارب والأباعد، وتهملني كشلو بلا قيمة... والأنكى من ذلك، هل تصدّقون... كبرى بناتي تضنّ عليّ حتّى بإلقاء التّحيّة... ترفض التّحدّث إليّ... وأبنائي كلّهم، ما منهم إلاّ عاقّ أو شقيّ...»

وتهاطل الشّكوى، أكثر من حبّات المطر في يوم شتائيّ ثقيل أسود، وتتوارب نبرة العتاب تحت غطاء من سخرية لاذعة، وانتقاد فيه تشفّ:

.هذا والدكم...

.لا يستحقّ منكم كلّ ما تفعلون به...

.فلانة مقصّرة في حقّه .والحقّ يقال ....

.حاولوا أن تجبروا بخاطره، إكراما لشيبته على الأقلّ...

... لمّا اضطرّ جدّي إلى لزوم البيت أخيرا، بعد أن ناء جسده

الضّعيف العجوز بوخز المشارط والمقصّات، لا شكّ أنّه كان يعلم أنّه ضرب من حوله حصارا لا يمكنه الفكاك منه، داخل بيته نفسه، فأصداء حكاياته قد بلغت أسماع جدّتي، وأدرك إخوة والدتي تأثير هذه الحكايات، الّتي مرّغت سمعتنا في الوحل، مرّة وإلى الأبد... في خضمّ هذه العداوة المتبادلة، والنّفور المسكوت عنه، كانت خالتي الصّغرى هي واسطة الحلقة بينه وبين بقيّة العائلة... تغسل ثيابه، تجلب إليه طعامه، تكنس غرفته، تسوّي فراشه، وتحتمل، في صبر، تذمّره ونزقه المتواصلين.

ماذا تبقّى لجدّي من الحياة، وهو لا يستطيع حتّى مجرّد الخروج إلى دنيا النّاس؟! ماذا تبقّى له، وهو يشعر في قرارة نفسه أنّ المدينة صارت أبعد إليه من البحر المحيط؟! ماذا تبقّى له من الأنجياء والخلصاء والأصدقاء؟! لا شيء البتّة... لا أحد يستطيع أن يملأ فراغ حياته؛ وحتّى العائلة لم يحاول أن يكسب فيها فرداً يمكن الرّكون إليه!!

... الرّاديو هو التّعزية الوحيدة، والصّراع الدّائم، الدّائر بينه وبين القطط أصبح المتنفّس الّذي يقذف من خلاله بكلّ ما يكبّل نفسه الضّاجّة اللّوّامة!! هل تصدّقون أنّ الهرّة في منزلنا تخافه ولا تخافنا؟! تتمسّح بأرجلنا، تقف عند باب المطبخ ملحّة في السّؤال، لا تعبأ بتهديداتنا، ولكن ما إن تراه حتّى تولّي فرارا... إنّ القطط تدرك . بغريزتها . أنّه يبغضها، ويتمنّى لها الهلاك وسوء العاقبة. ربّما عرفت ذلك في نظرات

عينيه الّتي توشك أن ترمي بشرر كاللّهب، أو في قبضة يديه الّتي كانت ما تفتأ تجمع الحصوات وتكوّمها حتّى يتسنّى له قذفها متى شاء... مرّة، سقط جدّي، وهو يلاحق إحداها، وقد كدنا نيأس . آنذاك . من سلامته، لولا أنّ الأمر قد انتهى على خير.

في صبيحة ذلك اليوم، وقبل أن يغيّبني باب الحوش الكبير، طالعني على كرسيّه، وهو يحدّق فيّ مليّا... حيّيته لأطرد الارتباك، وأستعيد شيئا من توازني وهدوئي؛ فردّ وعقّب قائلا:

.لعنة الله على هذه القطط...

وصمت قليلا، وطال الصّمت، حتّى ظننت أنّه لن يتكلّم ثانية، فقلت مجاملا لعلمي بطباعه، وسوء ظنّه في كلّ شيء، حتّى في أقرب النّاس إليه:

.وما بال هذه القطط، يا جدّي؟

وقبل أن يجيبني، نهض فجأة عن الكرسيّ، والتقط حصوات كان يضعهنّ على نافذة غرفته، ومضى وهو يتعثّر؛ وعندما اقترب من الفجوة الضّيّقة الفاصلة بين حوش عمّي وحوشنا، رمى الحصوات كيفما اتّفق، وانتظر قليلا ريثما سمع مواء القطط المذعورة، ثمّ استدار، وهو يقول مركّزا عينيه الصّغيرتين على وجهي:

. هذه القطط ستقتلني بالتّأكيد؛ إنّها لا تنام ولا تدع من

ينام!

.لا عليك، يا جدّي. هدّئ من روعك، ولا تبال كثيرا.

حينئذ، انفجر في وجهي. كان في غاية الانفعال والغضب:

. إنّها قطط ملعونة؛ أجل ملعونة... ولكنّ العيب ليس عليها، بل على جدّتك الّتي تدلّلها. لماذا كلّ هذا؟ لو كانت على الأقلّ تأكل الفئران! ولكنّها تعافها، وحتّى لو ألفتها أمامها لنظرت إليها شزرا، وتجاوزتها في تعال. قل لي أنت: هل رأيت قططا كهذه؟

اضطربت. خفت أن أراجعه لئلاّ يغضب. فقلت بعد أن سعلت لأجلو صوتي وأطرد بقايا الخوف العالقة بحنجرتي:

. معك حقّ، يا جدّي. هذه القطط غير عاديّة بالفعل. إنّها تحبّ اللّحم وتذر ما سواه.

وانسحبت ببطء لأضع حدّا لهذه المهاترة الصّباحيّة، فوصلني صوته ساخرا مشرشرا:

.وهل وجدناه .نحن .اللّحم لنعطيه القطط؟ هذه القطط لا ينفع معها إلاّ السّمّ يفتّت أمعاءها فتهلك ونرتاح منها.

لم أولِ كلماته الأخيرة أهميّة كبيرة، إذ تظاهرت بعدم سماعها؛ وحثثت خطاي دون أن أنظر يمنة أو يسرة حتّى لا يتصيّدني بعينيه الفاحصتين الثّاقبتين، وحينئذ لا مفرّ من الاستسلام والدّخول معه في حديث قد يتواصل ساعات وساعات...

تركت لساقيّ أن تحملاني، فانسقت إليهما مستسلما

مطمئنّا إلى رفقهما بي، وتعهّدهما إيّاي، دون الحاجة إلى الخوض في تفاصيل الشّارع ومسالك الطّريق، الّتي باتت مألوفة لديّ بحكم نفس العادة الّتي كانت تقودني كلّ صباح إلى المصلحة... وقد كان هذا السّلوك، بما يكتنفه من شرود ذهنيّ وتشتّت في الأفكار، كثيرا ما ينتابني سلخ الرّبيع وبداية الصّيف، فلا أملك حياله، حينئذ، إلاّ الصّدوع بالرّضوخ والتّسليم؛ وحتّى لو حاولت المقاومة، من جانبي، وتوفّرت النّيّة الصّادقة لذلك، فإنّي مقتنع تمام الاقتناع بأنّ محاولتي محكوم عليها بالفشل سلفا... جرّبت أكثر من مرّة أن أصمد أمام حرارة أشهر الصّيف، وخلتني أقف على أرض صلبة من الصّعب . إن لم يكن من المستحيل . أن تميد بي فتزلّ فيها قدمي، ولكنّي أفاجأ، في كلّ مرّة، بتلافيف دماغي تتحلّل إلى دويبات صغيرة مشاكسة تنغل في أصل أعصابي دون هوادة، فتحرمني هدأة البال والشّعور بالتّوازن. وكان يكفي أمام هذه الهشاشة المفرطة والحساسيّة القلقة اللّتين يولدّهما داخلي سلطان الحرارة، أن يعنّ لي أيّ مثير، أو طيف، أو فيض وهم، حتّى أشرد على أطراف الملكوت؛ فأتّحد دون إرادة منّي بعالم غير العالم، وأناس غير الّذين أعرفهم ويعرفونني، وأحبّهم ويحبّونني؛ أرى ما لا يرون، وأسمع ما لا يسمعون، وقد يطغى بداخلي إحساس أو شعور ما، فتنفرج شفتاي . فيما يشبه الإشراق . وتندّ عن لهاتي كلمات مختصرة لخواطر استثارتها أطياف أو خيالات لا وجود لها إلاّ بين أتون عالمي، فيشفق بعض من يراني من حالتي تلك، وقد يشير إليّ بعضهم

الآخر إشارات خاصّة لا أخطئ معناها البتّة، كأن يشير إليّ بإصبعه الّذي يكون قد وضعه على جانب من عارضه، أو يشير بأصابعه جميعا، محرّكا إيّاها بشكل لولبيّ متسارع... إنّي أحسّ تلك الكلمة دون أن أسمعها، ولا أغضب، لأنّي بكلّ بساطة لا أملك الوقت الكافي للغضب، أو بالأحرى لا أستطيع أن أركّز كلّ طاقتي لاستدعاء إحساس الغضب... وقد يحدث أحيانا أن أستفيق من بعض شروداتي، الّتي أصبحت شبه مزمنة، فأجدني مسترسلا في حديث لا أوّل له ولا آخر، متّهما نفسي بالخبل والجنون، وعندما تنطّ إلى ذاكرتي صور أولئك الأشخاص الّذين أصبحت أثبت ملامحهم وإشاراتهم دون عناء، ترفّ على شفتيّ بدايات ابتسامة ساخرة باهتة، وأقول لنفسي كأنّما لأتعزّى:

. إذا كنت أنا نفسي متّهما لذاتي، قاسيا في الحكم عليها، فكيف أغضب من أشخاص لم يعدوا الواقع في تشخيص حالتي... إنّني حقّا لمجنون!!

لذلك، وبتدرّج بدأ نسقه يتسارع بعنف في السّنوات الأخيرة، أصبحت أمقت الصّيف حدّ الموت، وأودّ لو أنّ فصول العام جميعها شتاء (وللشّتاء بقلبي مكانة لا تضاهى!): وقد كنت في لحظات المعاناة القصوى، والبرم اللاّمتناهي، أستشيط ضجرا، فأنفّس عن قلّة صبري لبعض أصدقائي، وقد كان بينهم .لسوء حظّي .نصير للصّيف. فكنّا كثيرا ما نبدأ الحديث لننتهي إلى شبه خلاف فيه تطفح المساوئ والمزايا... ويظلّ السّؤال الأزليّ، بيني وبينه، دون إجابة: أيّهما أفضل،

الصّيف أم الشّتاء؟ ويصرّ على رأيه، وأصرّ بدوري على رأيي. ونألو على أنفسنا أن لا نعود إلى حديث الفصول، فننسى، ونعود لنخوض فيما كنّا اختلفنا فيه!!

كان من الممكن أن أضع حدّا لمحنتي السّنويّة، سيّما وأنّ لديّ فضلة من مال وفسحة من وقت يكفيان لإخراجي من بؤرة حرارة لا ترحم، ولا تترك لمخلوق أن يستدرّ الرّحمة؛ وأحزم أمري، في كلّ عام، وأقرّ العزم على الهروب إلى بعض مناطق الفيء والماء والظّلال، ولكن تسنح في كلّ مرّة سوانح، وتشرئبّ برؤوسها خطوب، تجعلني أعيد حساباتي من جديد؛ وينضاف إلى قائمة أصيافي الحارقة صيف جديد! ما الحيلة إذن؟!... لا حيلة سوى الغرفة الصّغيرة والكتب والسّجائر... كنت أدخّن في الصّيف أضعاف أضعاف ما أدخّنه على امتداد باقي الفصول؛ ولم يكن ذلك لرغبة في التّدخين، ولكن لعيب متأصّل دأبت عليه أصابعي في مداعبة علبة السّجائر سائر ساعات اليوم؛ فلا أشعر إلاّ والسّيجارة بين شفتيّ، يتكرّر الشّيء نفسه دائما، حتّى إنّه لتمرّ عليّ فترات أنسى فيها كم سيجارة دخّنت، لكثرة ما أكون قد استهلكت من السّجائر... لقد تمكّنت منّي عادة التّدخين، ومع العادة امّحت كلّ الإرادة!!

كانت المسافة بين المصلحة والبيت بعيدة إلى الحدّ الّذي لو رام فيه أيّ إنسان أن يقطعها مشيا على الأقدام، لاعتراه وهن ونصب، وتملّكه إجهاد ما بعده إجهاد؛ ومع ذلك، لم

أكن أشعر. في يوم من الأيّام . أنّي أيّ إنسان، لذلك قرّرت، ومنذ البداية، أن أدأب على قطع المسافة مشيا، رغم الفرص المتاحة في اقتناء سيّارة، سوف لن تكلّف ميزانيّتي سوى قسط هيّن عند نهاية كلّ شهر؛ ورغم إلحاح جدّتي الّتي كانت تشفق عليّ من رحلة المسافات الطّويلة كلّ يوم، واعتراضات بعض الزّملاء الّذين كانوا لا يفهمون سببا واضحا لإصراري، ولا يقتنعون بأيّ تبرير أدلي به كدليل على سلامة اختياري.

لقد أصبحت، لكثرة ما قطعت هذه المسافة، أعرف كلّ تفصيل من تفاصيلها، مهما كان دقيقا، وأثبت، وفي أيّ ساعة من ساعات النّهار، كلّ عطفة من عطفاتها، وكلّ نهاية طوار، وكلّ بداية حارة... حتّى إنّي لأستطيع . وأنا في أقصى حالات شرودي . أن أدلّ أيّ سائل أو عابر سبيل إلى وجهته دون أن أنظر أمامي لتحقّق الطّريق.

في ذلك الصّباح، أسلمني زقاق الحارة إلى بداية الشّارع الإسفلتيّ الطّويل، الّذي كان ما يزال ينوء تحت عبء الصّمت، وقد غمرت جنباته حفنات صغيرة من أشعّة الشّمس المبكرة... كان كلّ شيء نائما، ورفيف الأشجار الّتي كانت تشرئبّ بقاماتها الغيداء الشّامخة، وهي مرابطة أمام أسوار بعض البيوت، تحفّ بأغصانها حفيفا متواصلا له مداعبة ومناغاة سرعان ما تنفذان إلى شغاف القلب دون كبير عناء... وكانت المدينة . وأنا سائر باتّجاهها . أشبه بواحة خضراء وسط

صحراء مترامية الأطراف، تظهر طورا، وتختفي طورا آخر، مواربة في فيض من الدّفء والنّور، ملغزة، منطوية على أدقّ تفاصيلها وجزئيّاتها، الّتي كنت أكتشف منها دوما طرفا غائما، يظلّ كلّ يوم في حاجة إلى اكتشاف جديد... آه، هذه المدينة لكم أشعر حيالها بضآلة لا أدري مصدرها! ولكم أعشقها ولا أدري سببا لهذا العشق!!

انتظرت قليلا قبل أن أقطع الطّريق، وأنا بين اليقظة والنّوم، أنظر إلى أسراب السّيّارات وهي تعبر الشّارع، ولا أراها؛ وأنظر إلى خليط سرابيّ من البشر في اضطرابهم، على اختلاف وجهاتهم، رائحين آيبين؛ وأنا، واحد منهم، مسلم قيادي إلى إصرار قدميّ وتعهّد ساقيّ... قطعت الطّريق أخيرا، وأنا ألتفت التفاتات يسيرة بين حين وآخر، يطالعني صفّان من البنايات على جانبي شارعين متحاذيين، وخطّ لا نهاية له من خضرة أزليّة كان يرمقني بلا مبالاة أقرب إلى البلاهة... المقاهي، كراسي بمختلف الألوان والأحجام في أفنائها، مناضد ذوات قوائم طويلة؛ هنا، كلّ شيء يطالعك قريبا، غاية في البساطة، ودون تعقيد، المكتبات بجانب المحلاّت، بائع الزّهور يعرض زهوره ووروده على مقربة من كشك بائع السّجائر... وهنا، أيضا، لا حدود ولا فواصل لهذا المزيج الغريب من الأصوات تسمعها فكأنّما تسمع صوتا واحدا، أو تسمع الأصوات جميعها.

سألت يوما أحد زملائي ممازحا، ونحن نشرب القهوة،

وندخّن، في فناء مقهى على إحدى نواصي المدينة:
.لماذا المدينة هكذا دائما؟
فركّز فيّ عينين متلصّصتين مستطلعتين، ثمّ قال وقد شحن نبرته بمزيج غريب من السّخرية والمكروالدّعابة:
.لو لم تكن هكذا لما كانت مدينة!!

... سرت في شبه خطّ مستقيم: إلى يساري مرآب للسّيّارات، ومقابله، على مبعدة، نفس الملامح والمعالم من خضرة آسرة وبنايات لا تحدّ العين مراميها... كان عليّ أن أمضي في مسار تصاعديّ، مخلّفا في الأسفل عالما ضاجّا بما فيه، ومن فيه، مستقبلا عالما آخر، هو بدوره، منطو على سماته الفارقة، وأشيائه الحميمة... دلفت عبر القوس الحجريّ المقنطر إلى أثيريّة السّوق وأرج الصّباح، الحامل في طيّاته تلك الرّوائح الأنثويّة المغرية، والتّقاسيم الّتي لا يمكن أن تخطئ تحديدها، من أيّ جهاتها طالعتك!؟... في ذلك الصّباح .كما في كلّ صباح . تتحوّل كلّ النّساء إلى أنثى واحدة تختصر في دائرة محيطها كلّ الأزمنة الممكنة والأمكنة المستحيلة؛ ولا يهمّ كثيرا أن تكون هي «مشيرة»، أو «مي»، أو الآنسة المحترمة جدّا «ث»، ما دام مجرّد حضورها كافيا لتوجيه شرودي من عالم الخيالات والأطياف إلى عالم السّحر!!

كانت فورة الإحساس الجديد بطغيان هذه الأنثى المجلّلة بطراوة الصّباح قد بلغت أوجها، وأنا أخطو ذاهلا نحو باب

المصلحة الكبير. وقد كان بالإمكان أن يصحبني حتّى أستقرّ على كرسيّ وراء المكتب، كما كان يحدث في سائر الأيّام، لولا أنّ شيئا . على خلاف مألوف العادة . قد هزّ كياني كلّه، واجتذبني دفعة واحدة من مملكة الوجوم الّتي كنت قابعا فيها... لقد تعوّدت أذناي من قبل صخب المكاتب والأقسام داخل المصلحة، واستأنستا بجلبتها وضوضائها اللّتين تكادان لا تنقطعان أبدا، باستثناء تلك اللّحظات العابرة الّتي كان مديرنا يزور فيها مكاتبنا؛ وفي هذا اليوم، يستطيل الصّمت شامخا، أشبه بجدار عملاق لا يمكّن أيّ صوت من النّفاذ إليه، ويجثم السّكون كإله من آلهة الزّمن القديم... للوهلة الأولى، لم أستطع أن أفهم شيئا، وذهب بي الظّنّ مذاهب شتّى، وشككت للحظة أنّه قد يكون اليوم يوم عطلة. إلاّ أنّني سرعان ما تذكّرت أنّ اليوم هو الأربعاء؛ فما الّذي حدث؟ وما كلّ هذا التّكتّم الأبتر الأبكم؟ هل يكون قد حدث لأحد الزّملاء حادث أو مكروه؟!

دفعت الباب... دفعته برفق شديد وحذر، وأنا أجيل نظراتي الوجلة خلل المكان... لا شيء غريب البتّة... أو على الأقلّ لا شيء يثير الاهتمام، سوى أنّ فناجين القهوة ما تزال على حالها، مليئة، ودخان السّجائر قد انعقد سحابات في فضاء الغرفة الصّغيرة، ذات النّافذة الوحيدة... كان الكرسيّ وراء مكتب «مشيرة» شاغرا؛ والزّملاء، كلّ منهم، يمسك بجريدة بين يديه، وقد استغرق في قراءتها في دأب، لم يكن من

شأنه في يوم من الأيّام... خلال السّنوات القليلة الّتي تمّ فيها تعييني، وحتّى وقت قريب، لم يكن أيّ من الزّملاء يغفل عن فنجان قهوته الصّباحيّة، كما أنّه لا يمكن أن يصبر عن الثّرثرة الّتي صارت طابعنا جميعا، وشعارنا في المصلحة كلّها بين باقي المكاتب والأقسام.

جلست على الكرسيّ، متحاملا على نفسي، وسألت في شبه اهتمام:

.هل زميلتنا مشيرة متغيّبة اليوم؟

ردّ عليّ أحد الزّملاء مستنكرا، ودون أن يرفع رأسه عن الجريدة:

.ومتى كان أمرها يهمّك؟

وقبل أن أعلّق، قال زميل آخر، ودون أن يكلّف نفسه عناء رفع رأسه عن الجريدة:

.مشيرة قدّمت إجازة مرضيّة.

وساد الصّمت من جديد، ثقيلا، رتيبا، ممضاً.

((٤٠.))

ما ظننته . في البداية . أمراً طارئاً، ما يفتأ أن يزول بزوال أسبابه، غدا عادة متأصّلة، وتقليدا لا غنى عنه في مصلحتنا، وبالتّحديد في مكتبنا... طالت إجازة «مشيرة» المرضيّة، وبقينا . أنا وثلاثة زملاء آخرين . نلوك وحدة قاتلة بين جدران الغرفة الأربعة، وينزرع داخلنا صمت مقيت، لا فكاك منه... في الأيّام القليلة الماضية، جهدت أن أعيد إلى المكان حيويّته رغم انطوائيّتي الّتي عرفت بها في المصلحة، كما حاولت أن أبثّ روحا جديدة بين الزّملاء الّذين غدت هيآتهم الصّامتة أقرب إلى هيآت أشباح هائمة... أصبحت أتعمّد طرح الأسئلة، وأغالي في إبداء الحماسة، في جميع المواطن، ومهما كان الأمر تافها، وأشير إشارات خاصّة، وأومئ إيماءات محدّدة، ومستفزّة، في بعض الأحيان؛ إلاّ أنّ جميع جهودي ذهبت سدى؛ فلا فناجين القهوة عادت لتفرغها الأفواه في الأجواف، ولا الأيدي توقّفت عن تقليب صفحات الجرائد الصّباحيّة؛ وكان قصارى ما أظفر به ابتسامة ساخرة، أو نظرة رثاء، أو صيحة قصيرة زاجرة فيها استنكار واستهجان.

لا أعلم شيئا عمّا يشغلهم هكذا... ولم أحاول أن أسأل عن السّبب. وربّما كنت . في أعماقي . أحبّذ تأجيل لحظة السّؤال الحاسمة، الّتي لا شكّ أنّها قادمة، إن عاجلا أو آجلا... وكنت أخوض . متعمّدا . في كلّ المواضيع، وأضرب في أتون بحر متلاطم من الأحاديث المتشعّبة، وأداور، وأتوخّى طرقا ملتوية، غاية في الإلغاز والتّعقيد، وأتجنّب السّؤال الحاسم:

. ماذا حدث؟!

كان لديّ إحساس يقينيّ غامض أنّ الإجابة عن هذا السّؤال تكمن . لا محالة . بين طيّات صفحات الجرائد الّتي يقرأونها، ويوالون قراءتها كلّ صباح في حمّى متزايدة؛ ورغم أنّ هذا الإحساس ما انفكّ يملأني قناعة بصدق حدسي، ويلجّ داخلي كبندول ساعة حائطيّة لا يتوقّف البتّة عن الحركة والدّندنة، فإنّي لم أجازف أبدا . ورغم الإغراءات المتعدّدة . بشراء جريدة من تلك الجرائد!

قلت لنفسي متسائلا:

. لماذا هذا الإصرار؟

وتركت السّؤال معلّقا دون إجابة؛ إلاّ أنّه، في لحظة ما، وبمثل الكشف الّذي لا يسنح إلاّ مرّة واحدة في العمر، طفت على سطح ذاكرتي إرهاصات السّاعة الواحدة والنّصف من صباح ذلك اليوم البعيد، وتراءى أمامي في خفّة البهلوان ذلك الإعلان القصير، وما كان استثاره في نفسي من بلبلة واضطراب. «هل لما يقرأون علاقة بذلك الإعلان؟ هل هي الجثّة المختفية؟ هل هو سرّ اليدين والرّجلين؟»

بدأت تعاودني الشّكوك وحالة الاكتئاب والاضطراب، الّتي كانت زايلتني طيلة أيّام برمّتها، وأصبحت كثير النّزق، سريع الغضب، أغضب لأتفه الأسباب، ولا أهدأ حتّى أكون قد أتيت على نصف علبة من السّجائر... ولعلّ الأدهى من كلّ ذلك أنّ نفسي قد عافت الطّعام، وصرت شديد البرم بحكايات جدّتي الّتي كانت تستقبلني بها كلّ صباح في غرفة المعيشة، وأصبحت مناورات جدّي مع القطط تثير في نفسي كمّا هائلا من القرف والحنق بدل الشّفقة والرّثاء... لم أعد أطيف بالحوش الكبير إلاّ لماما، ولزمت غرفتي الصّغيرة خشية أن يصدر عنّي في لحظة غضب ما قد يسيء إلى جدّي أو جدّتي. كنت أقضي في الغرفة ساعات بطولها، لا أملّها ولا تملّني، وأكون إمّا نائما، أو أقرأ كتابا، أو أستمع إلى الموسيقى.

وذات مساء، تناولت ذلك العدد القديم من الجريدة، وأعدت قراءته مرّات ومرّات، وقد كنت أدقّق بين ثنايا ذلك الإعلان الصّغير، عساني أظفر فيه بخيوط حلّ اللّغز، أو الحلقة المفقودة الّتي قد تعيد إليّ هدوئي من جديد... لا شيء واضح على وجه الدّقّة... مجرّد سطور هزيلة... وباستثناء التّاريخ المثبت بعناية، فلا شيء يستحقّ الذّكر؛ وحتّى الاسم اكتفي فيه بالأحرف الأولى... هذا يعني أنّ الخبر قد يكون مشكوكا في مدى صحّته! قد يكون كلّ الأمر مجرّد لهو صحفيّ، فلماذا أقلق إذن، ويعتريني كلّ هذا الاضطراب؟!

... المدينة الآن، لم أعد أراها كما كنت أراها من قبل!... لقد انسدل أمام عينيّ مثل الغشاوة، ممّا جعلني أرتدّ إلى داخل أعماقي، مثل قوقعة تنطوي على ما فيها من أسرار... هذه المدينة، إنّها لتتوقّف الآن عن أن تكون ساحرتي الفاتنة، وتتلاشى شيئا فشيئا، حتّى لا أعود أرى منها إلاّ مجرّد صور باهتة يكتنفها السّراب من جميع جهاتها... لم أعد أدري كيف أخرج من الغرفة الصّغيرة صباحا إلى الحوش الكبير، ولم أعد أفقه ممّا تحدّثني به جدّتي شيئا على الإطلاق، كما لم أعد أتبيّن من الشّارع الإسفلتيّ المترامي أمامي، ولا المعالم والبنايات في الطّريق إلى المصلحة، سوى بقايا صور أو مزق متشظّية تقبع على حافّة بركان قد خمدت نيرانه منذ آلاف السّنين... والأشجار، يا إلهي! وذلك الحفيف الموقّع لنغمة الحياة على امتداد تلك الأسوار، في عناق محموم لابتهالات آتية من الأقاصي! أين كلّ ذلك، يا ترى؟ وأين تلك الرّائحة المختصرة لروائح كلّ النّساء؟... لا شيء... لا شيء تبقّى، سوى رتابة القلق وحمّى الإعلان!!

لم أعد قادراً على الاحتمال أكثر... كان الحمل الّذي أنوء به لا يطاق، حاولت كثيرا أن ألقي به عن كاهلي كي أستريح، ولكنّ محاولاتي جميعها كانت بلا فائدة! وانضاف إلى هذا الحمل همّ جديد، حيث غدت نهاراتي معايشة محمومة لأصوات تلحّ عليّ بإصرار، ودون انقطاع، ولياليّ فوضى من الكوابيس والأحلام المزعجة.

... قرّرت أخيرا أن أضع حدّا للمأساة، مأساتي...!!

كان أوّل شيء فعلته، في أحد الأيّام، وأنا في طريقي إلى المصلحة، أن اشتريت جريدة صباحيّة... كنت مارّا بأحد الأكشاك، فحانت منّي التفاتة إلى رفيف الجرائد المعروضة في شموخ بعناوينها الكبيرة الحمراء... لم يكن من الصّعب عليّ قراءتها، إذ كانت المسافة بيني وبينها لا تتجاوز ثلاثة أمتار على أقصى تقدير... بهتّ... انجذبت عيناي إلى السّطور كما لو كانتا تحت تأثير مغناطيسيّ مدمّر... «أغرب الجرائم تحدث في بلدنا الآمن والتّحريّات ما تزال حثيثة!»... «هل الفاعل فرد أم أفراد!»... «رائحة الخيانة تلوح في الأفق!»... «لا بدّ من تجنيد كلّ الطّاقات لإيجاد حلّ للّغز!»... «هل هناك أياد أجنبيّة تستهدف المساس بأمن البلاد!»... «عدد الجثث المفقودة فاق الخمسين!»... «حانت السّاعة الصّفر لإطلاق صفّارة الإنذار!»... وعناوين أخرى كثيرة لا يحدّها حصر!!

تأبطّت الجريدة، مقاوما رغبة جامحة في أن ألقي نظرة عجلى على صفحاتها، أو على الأقلّ تصفّح عناوين الصّفحة الأولى؛ وحثثت الخطى دون أن أتوقّف كثيرا عند تفاصيل المكان، الّتي كانت . في أوقات سابقة . مثيرا يحفزني دائما إلى الانطلاق وراء عالم شروداتي المخمليّ...

احتجبت الشّمس قليلا وراء سحابة سوداء صغيرة، ولفّ

الشّارع الطّويل لفترة حشد مداهم من الظّلال الرّقيقة، رغم أنّ حمأة القيظ المبكرة قد استمرّت تلهب الأجساد شبه العارية... حرارة يونيو، وهذا الصّيف الّذي يهجم فجأة دون سابق إنذار... انكمشت السّحابة الصّغيرة وتلاشت، وعادت الشّمس لتتربّع على عرش جلالها، طابة صفراء متوهّجة، ترسل أشعّتها مثل سياط غاية في المضاء، أو أسياخ من النّيران الحارقة...

عندما أشرفت على بناية المصلحة، وطالعني بابها الحديديّ الكبير، عادت الشّمس فجأة إلى الاختفاء، واتّحدت تلك السّحابة الصّغيرة الرّاحلة مع سحابات أخريات أكبر منها حجما، واستحال الأفق الّذي كنت أحسبه، منذ قليل، في متناول يدي، إلى خطّ رقيق جدّا راح يبتعد رويدا رويدا حتّى ذاب وسط حلقة من الظّلمة الغازية... لاحت بروق هنا وهناك، كانت تختفي لحظة، ثمّ تعاود الظّهور بغتة، وفي الوقت الّذي لا أكون متوقّعا لجلائها فيه... خطوط قصيرة متكسّرة ترجف بخفّة، أشبه بحراب ذوات شعب، يغطّي وهجها على بعض الأنوار الضّعيفة الهزيلة الّتي ما تزال ترسلها بعض مصابيح الإنارة العامّة... هزم الرّعد هزيما مدوّيا، انقبضت له حنايا نفسي... توقّف الهزيم لحظة، ثمّ عاد من جديد، بأكثر حدّة وعنفا، حتّى بدأت أستشعر كأنّ أعضاء جسدي طفقت تتخلّع دون إرادة منّي... بدأ المطر ينزل رذاذا حانيا... كنت أحسّ قطراته الصّغيرة الحنون، الّتي تشبه حبّات السّمسم،

على رأسي، تتخلّل جمّتي حتّى تنساح على فروة رأسي، فأشعر بنشوة طافحة ما بعدها نشوة؛ وقد جعلني ذلك أفكّر في خلع سترتي، إلاّ أنّي عدلت عن ذلك في اللّحظة الأخيرة كيلا أجلب انتباه أولئك الّذين كانوا يمرّون في كلّ الاتّجاهات من حولي... سرعان ما تحوّل ذلك الرّذاذ الواني إلى زخّات عنيفة في إثر زخّات، وقد تذكّرت الجريدة، فدسستها كيفما اتّفق في جيبي، إلاّ أنّ ذلك لم يقني مغبّة البلل، حتّى صرت، وأنا أهرول على غير هدى، نحو باب المصلحة، أشبه بديك مبلول.

دخلت المكتب، وانحططت بكامل ثقلي على الكرسيّ... لم أكلّف نفسي عناء إلقاء السّلام، فقد كان المكان يكتنفه صمت مطلق وسكون... وكانت الوجوه غاطسة وراء صفحات الجرائد، كأنّها تحتمي من شرّ خطر داهم، والفناجين... فناجين القهوة، ما تزال على هيئتها، كما أتى بها الفرّاش منذ زمن غير قصير... لم تندّ عن أحدهم نأمة، لا ولا حركة أو مجرّد صوت، يشي بأنّ وجودي الطّارئ بينهم قد أثار أدنى اهتمام لديهم... هنا الصّمت، ولا شيء غير الصّمت؛ هنا مقبرة الصّمت والسّكون، ومشيّعو الجنازة ممنوعون من أيّ صوت يصدرونه!!

لم يلبث الفرّاش أن دخل حاملا صينيّة عليها فنجان من القهوة؛ ألقيت التّحيّة عليه، فارتسمت على شفتيه ابتسامة مسكينة، وأومأ بعينيه المرمدتين إلى بقيّة الزّملاء،

وهزّ رأسه في أسف، كأنّه ينعى أيّام العزّ الّتي ولّت في صخب وثرثرة وانطلاق... وضع الفنجان على المكتب، وقال وهو يهمّ بالخروج:

.شيء غير متوقّع... مطر في الصّيف!

ومضيفا في نبرة فيها نصح صادق:

.لقد تبلّلت، يا أستاذ... امسح رأسك جيّدا، واخلع سترتك حتّى لا تصاب برشح مفاجئ.

جذب الباب وراءه، ورحل، فبقيت وحدي مواربا في شبه عزلتي... حسوت حسوات متتالية من الفنجان، ثمّ أخرجت سيجارة أشعلتها، وجذبت منها أنفاسا، تعمّدت أن أختزنها مدّة في صدري، ثمّ أطلقتها فاستحالت حلقات فوق رأسي... تصعد، تلتحم، تتّحد، تتضامّ، ثمّ تبدأ بالهروب والتّلاشي... مسحت رأسي جيّدا بمنديلي، وخلعت سترتي فعلّقتها على مسند الكرسيّ، وأخرجت الجريدة، فنشرتها أمامي، متفاديا، للوهلة الأولى، النّظر إليها كأنّما أروم تأجيل لحظة الاكتشاف أكبر قدر ممكن... حسوت حسوة أخرى من الفنجان، وجذبت من السّيجارة نفسا جديدا، وانصببت دفعة واحدة على الجريدة بعينين منهومتين...

لم يكن بالصّفحة الأولى شيء ذو بال، باستثناء العناوين الكبيرة الّتي كتبت باللّون الأحمر، ربّما لجلب الانتباه، وبالتّالي تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح فيما لو نجحت

تلك العناوين في اجتذاب أنظار الزّبائن... ومررت على باقي الصّفحات متأمّلا، متحفّزا، مستثارا، دون أن أنجح في تركيز اهتمامي في شيء محدّد بذاته. والحقيقة أنّه لم يكن هناك مقال واحد أو تحقيق يستحقّ عناء العناية والقراءة. وعندما بلغت الصّفحة الأخيرة، وكدت ألقي بالجريدة على طرف المكتب يائسا، استرعى انتباهي ذلك الإعلان... حتما، لم يكن نفس إعلان السّاعة الواحدة والنّصف من ذلك الصّباح الّذي غدا الآن بعيدا موغلا في النّسيان، ولكنّه إعلان آخر يشبهه... الحيّز نفسه... السّطور نفسها... العدد نفسه... وتلك الملاحظة: «هامّ جدّا!!»

قرأت السّطور في سرعة ولهوجة؛ وأعدت قراءتها في سرعة أقلّ، إلاّ أنّ الاضطراب الّذي اعتراني أوّل مرّة لم يزايلني، فلم أتوّصل إلى فهم ممّا قرأت شيئا... وأعدت القراءة مرّة ثالثة بعد أن حسوت الحسوة الأخيرة في الفنجان، وأشعلت سيجارة لم أعد أذكر كم عددها...

«الجثّة الخمسون تختفي في ظروف غامضة من المستشفى المركزيّ في الحاضرة! فبعد الجثّة الأولى والجثث الّتي تلتها، تختفي اليوم جثّة أخرى، ولم ينجح رجال الدّرك، إلى حدّ الآن، في اكتشاف الفاعل المجهول، أو الشّبكة الّتي هي وراء عمليّة السّرقة... وإذن، هل يحقّ لنا أن نيأس؟ أم نظلّ على ثقتنا برجال مباحثنا الأفذاذ في حلّ اللّغز، وتخليصنا من حمّى الكابوس الّتي انتابتنا جميعا؟... نأمل ذلك!!»

لم أتمالك نفسي أن صحت مستغربا:

.غير معقول... هذا مستحيل!!

كان من الصّعب على زملائي أن يحافظوا على هدوئهم الخرافيّ أمام صيحتي الشّاذّة، الّتي لا بدّ أنّها اخترقت فضاء المكتب إلى باقي الأقسام والمكاتب الأخرى... نطّت وجوههم من بين الصّفحات الّتي كانوا يقرأونها، والّتي كادت تنسيني ملامحهم وقسماتهم لكثرة ما استأثرت بهم دوني؛ فجبهتني على محيّاها نظرات غاضبة متّهمة، يشوبها قلق واستنكار يمازجهما خوف وتحسّب.

قالوا جميعا بصوت واحد يسألونني:

.مالك؟ ماذا بك؟

فقلت دون أن أتخلّص من دهشتي:

.الإعلان... هذا الإعلان...

قاطعني زميلي الّذي كان يجلس بجانبي، وكانت بيني وبينه . فيما مضى .دوالّ لا تنكر:

.إنّه ليس أوّل إعلان.

أنا دهشا مستغربا:

.عجباً! وهل قرأتموه؟

فقال زميلي، وقد عاد يتصفّح أوراق الجريدة من جديد:

.كلّ يوم نقرأ إعلانا مثله.

انتهزت هذه الفرصة، فأردت أن أبعث روحا جديدة داخل المكتب، وأمدّ في حبل الحديث الّذي كان انقطع منذ أيّام. قلت سائلا، وقد بدأت أستعيد شيئا من هدوء البال والأعصاب:

.وهل تصدّقون ما يُكتب في هذه الجرائد؟
فنطّ وجه زميل جديد من وراء صفحات جريدته، وقال في وثوق:
. ولم لا؟... أصبح الواحد في هذه الأيّام لا يستغرب أيّ شيء؛ فالأشياء الّتي هي أبعد ما تكون عن التّصديق هي الأشياء الأحرى بنا أن نصدّق حدوثها في المقام الأوّل.
قلت، وقد استعدت هدوئي تماما:
. قرأت عن جثّة سرقوها، ولم يتركوا منها غير اليدين والرّجلين!
فقال الزّميل الثّالث، ولم يكن قد قال شيئا إلى حدّ تلك اللّحظة:
.ونحن أيضا قرأنا عنها. ما الغرابة في ذلك؟
قمت نصف قومة عن الكرسيّ، ثمّ عدت فجلست، وقد بدأت أستشعر الرّطوبة الّتي بدأت تنتشر في أرجاء المكان، وقلت وأنا أجيل نظراتي بينهم أستقرئ أفكارهم على صفحات وجوههم:
.وأنتم، ألا تجدون ذلك غريبا؟ لماذا لا يسرق الفاعل الجثّة كلّها؟ لماذا يدع الرّجلين واليدين؟ واليدين والرّجلين بالذّات؟
قال زميلي الّذي بجانبي في سخرية:
.لماذا لا تسأله هو بدلا من سؤالنا نحن عن شيء لا نعلمه؟
فأجبته بدوري بسؤال آخر، وبنفس اللّهجة السّاخرة:
.وهل أعرف مكانه؟
ثمّ مضيفا بعد قليل:

.لو كنت أعرفه لما تردّدت لحظة في سؤاله عن ذلك.

حينئذ، ألقى أحد الزّملاء.وكان اسمه «معتمرا». بجريدته جانبا، واتّجه بكلّيته نحونا، وقال يسألنا وقد بدأت تلوح في نبراته جدّية لامتناهية، لا تتّفق البتّة مع نظرات عينيه السّاخرة المضطربة:

.صحيح...إنّه لمثير للدّهشة أن تختفي الجثّة، ولا يبقى منها سوى الرّجلين واليدين. فلماذا يفعل السّارق ذلك حسب رأيكم؟

قال «عامر»، وهو الزّميل الّذي كان يجلس بجانبه:

. قد لا يكون لدى السّارق أيّة غاية سوى إثارة الفضول وجلب الانتباه.

قلت:

.أرجّح أنّ الفاعل ليس شخصا واحدا...

فسألني «معتمر» مقاطعا:

.وما أدراك أنت بذلك؟

قلت، وأنا أتطلّع تارة نحو السّقف كالمفكّر، وطورا أرمق زملائي في شبه تحفّظ متفاديا إثارة سخطهم:

.لو كان الفاعل شخصا واحدا لكان فعل بجميع الجثث ما كان فعله بالجثّة الأولى.

أشار إليّ «رامز»، وهو اسم زميلنا الثّالث، معقّبا:

.تقصد الرّجلين واليدين؟

فأومأت أن «نعم».

لبث «رامز» مطرقا يسيرا، ثمّ قال هامسا كالمحدّث نفسه:

. قد يكون الفاعل شبكة تتاجر في الأعضاء البشريّة...

فابتدره «عامر» قائلا:

. أو شبكة من شبكات احتراف الجريمة.

ثمّ مخاطبا إيّانا جميعا:

. لاحظوا أنّنا لا نعلم شيئا عن أسباب الوفاة... كلّ شيء محتمل إذن، وكلّ التّخمينات ممكنة في ظلّ غياب الدّليل.

الجزء الثّاني

((١٠.))

.جريدة «كلّ النّاس».

انترنت وكالات، الصّفحتان ١٠ و١١:

... هل يجوز أن نعتبر ما حدث بالمستشفى المركزيّ، وعلى امتداد الأيّام الأخيرة الماضية، غريبا إلى الحدّ الّذي قد يؤدّي بنا إلى مهاوي اليأس؟ وهل من الممكن.واللّغز مازال غامضا لم يحلّ بعد.أن نتمادى في وضع افتراضات واحتمالات من شأنها أن تدخل البلبلة والاضطراب على قرّائنا الكرام، وبالتّالي على عموم الرّأي العامّ الّذي.لا بدّ.وأنّه يأمل أن يوضع حدّ حاسم لكلّ هذه الجرائم الرّهيبة؟

إنّي.شخصيّا.أفضّل أن تقف كلّ جرائدنا.وليس جريدتنا فحسب. على الأحداث والوقائع، تنقلها بكلّ صدق وأمانة، دون زيادة أو نقصان، أو نقد أو تحيّز... وأن لا تنزع أيّة واحدة منها إلى دسّ مضمر، أو تعليق ساخر من صحفيّ حانق، أو تخمين أو حدس قد يؤدّي إلى تعقيد المسألة، والتّشكيك في النّوايا الطّيّبة لرجال مباحثنا الأفذاذ.

وإنّي على يقين أنّ كلامي هذا قد يحمل على غير محمله الصّحيح؛ وقد اتّهم بالتّواطؤ مع جهات ما، ويطعن في قناعاتي الصّحفيّة (الّتي أخبركم، ودون فخر، أنّي لم أتخلّ عنها البتّة منذ ثلاثين سنة، وحتّى عندما كنت صحفيّا مغمورا بالجريدة)؛ وقد تشير إليّ أصابع الغضب مهدّدة متوعّدة، وتجهر الأفواه بسخطها وشتائمها في غير تحفّظ أو احترام. ولكن، لا يهمّ. في نظري. كلّ ذلك ما دمت مقتنعا تمام الاقتناع بصواب الرّأي الّذي ذهبت إليه.

وإذن، فلنبدأ...

كان الخيط الأبيض قاب قوسين أو أدنى من ملامسة الخيط الأسود والاتّحاد به، وتخت النّجوم الّذي كان يغطّي وجه السّماء طيلة اللّيلة الفائتة بدأ يتشظّى، ساحبا وراءه مملكة النّور بلألائها، ولم يبق من ملايين النّجوم الّتي كانت قبل ساعات قلائل تملأ الكون سوى نجيمات مستوحشة، مجهولة، ظلّت تلمع هنا وهناك...

لم تكن السّاعة قد دقّت الثّانية صباحا بعد؛ وإنّما سمع الممرّض المناوب دقّتيها الاثنتين ببهو المستشفى بعد ربع ساعة من إلقائه نظرة على المشرحة، وعلى الرّغم من حالة الاضطراب العارمة الّتي كانت تملّكته... هكذا أفاد «عبد المنعم حقّي» . الممرّض المناوب، ٢٣ سنة، وأب لطفلين . في محاضر الشّرطة، وللجريدة عندما طلبت إليه مترفّقا أن يدلي

بشهادته للقرّاء، باعتباره شاهد العيان الأوّل، إن لم يكن الوحيد... والحقيقة أنّه لم يرفض، وقد قرأت وراء ابتسامته الّتي كانت تملأ كلّ وجهه أنّه لم يسبق له أن تحدّث إلى صحفيّ من قبل، وربّما كان يرغب في تخليد اسمه وراء سطور هذا المقال الّذي أنا بصدد تدبيجه الآن.

وعندما سألته عرضاً، وقبل أن ندخل في تفاصيل ما حدث:

. هل كنت متأكّدا أنّ ما حدث كان لا بدّ له أن يحدث... أعني، هل لاحظت أنّ شيئا مريبا جعلك تشكّ، وبالتّالي تلقي نظرة على المشرحة؟

أجابني، وهو مبهور الأنفاس، ينظر إليّ نظرة توسّمت فيها قدرا كبيرا من البلاهة والضّياع:

. أبدا، يا أستاذ... لقد حدث كلّ شيء هكذا، وبمحض الصّدفة، كأنّ شيئا خفيّا بداخلي كان يدفعني إلى إلقاء نظرة على المشرحة، وفي ذلك الوقت بالذّات.

... إذن، وفي ظلّ الظّروف الملتبسة الرّاهنة، لا بدّ لنا، أو على الأقلّ، لا بدّ لي أن أسلّم بما قاله الممرّض المناوب «عبد المنعم حقّي»... سأقول معه إنّ اكتشافه لاختفاء الجثّة كان بناء على مجرّد تخمين... حدس... أو بمعنى أدقّ، وسأستعير الكلمة الّتي كان هو نفسه استعملها: كان اكتشافه بناء على «إلهام»...

قال:

. أحسست كأنّ صوتا قصيّا، آتيا من خارج وعيي، يلج أعماقي، ويلحّ عليّ دون هوادة؛ وعبثا حاولت تجاهله والاستغراق في النّوم من جديد... كنت متعبا جدّا، وقد ظللت يومين متتابعين لم يغمض لي فيهما جفن... أنت تعلم طبعا طبيعة عملنا... دائما هناك ما نفعله... لا نستريح قطّ... إمّا مع الطّبيب في غرفة العمليّات، أو في قسم الإسعافات. المهمّ، اجتثّني ذلك الصّوت المشاكس من لذاذة نوم مفعم بالأحلام الرّائعة. رأيت (واسمح لي بهذا الاستطراد) كأنّ زوجتي وضعت لي مولودا... ذكرا، (زوجتي كانت حاملا، تنتظر الطّلق بين لحظة وأخرى)... تمطّيت في السّرير، وفركت عينيّ لأجلو عنهما ثقل النّعاس... تفقّدت النّوافذ في الغرفة بعد أن أضأت النّور... كانت النّوافذ مغلقة... دلفت من الباب إلى الممرّ الخارجيّ... سكون شامل يلفّ المكان، ولا أثر لحركة أو ما يشبه الحركة... انطلقت إلى باقي الممرّات، أتفقّد النّوافذ نافذة نافذة... كلّها مغلقة... عبرت البهو... طالعني الحارس اللّيليّ بقامته المديدة يدخّن سيجارة، وعندما رآني أشار إليّ بيده محيّيا... رددت تحيّته في فتور، وانطلقت سريعا . كأنّما بفعل إلهام . إلى المشرحة... هناك رأيت اليدين والرّجلين، ولا أثر لباقي الجثّة... تملّكني رعب لا يضارع... فتحت فمي لأصرخ... لم أستطع... اضطربت رجلاي... كدت أسقط... غير قادر على التقدّم إلى أمام أو التّأخّر إلى وراء، بالكاد صرخت:

.عمّ إبراهيم...

عندما جاء «عمّ إبراهيم». الحارس اللّيليّ. كنت على وشك أن يغمى عليّ... لم أره بوضوح، غير أنّي بهتّ لمنظر بندقيّته المشهرة في وجهي، وهذا ممّا أدخل هلعا مضاعفا عليّ... صحت به أن أبعد سلاحك جانبا... كنت خائفا من احتمال انطلاق رصاصة طائشة، سيّما وأن عمّ «إبراهيم» نفسه كان في وضع مُزر لا يحسد عليه... سمعت صوته المبحوح من أثر التّدخين والمفاجأة، يلعلع في أرجاء المكان:

. من هناك؟... ماذا هناك؟

اقتربت منه متحاملا على نفسي، واستندت بيدي المرتجفة على كتفه لمّا أحسست أنّي لم أعد قادرا على الثّبات أكثر من ذلك... فتحت فمي لأتكلّم، وقد حاولت أن ألفت انتباهه إلى مكان الجثّة المختفية بإشارة أو إيماءة، إلا أنّه سحبني بخفّة إلى الممرّ، خارج المشرحة، وهو يقول:

. لا تتعب نفسك، يا ولدي. أنت في حاجة إلى الرّاحة... عندما تستعيد نشاطك، ستقول لي ماذا حدث.

لم أدر ماذا حدث بعد ذلك... وكلّ ما بقي عالقا في ذاكرتي من آثار ذلك الحادث أنّي حين استفقت بعد ساعة أو ساعتين، وجدت نفسي على السّرير، وعمّ «إبراهيم» بجانبي يحرسني وقد تورّمت عيناه الذّابلتان بفعل السّهر.

أزحت اللّحاف عنّي، وسحبت نفسي من السّرير، واتّكأت على الوسادة الكبيرة الملقاة بجانبي، وقلت بصوت خفيض

امتزجت فيه بقايا النّوم بأثر المباغتة:

.عمّ إبراهيم... عجبا! ما الّذي جاء بي إلى هنا؟ ولماذا غادرت مكان الحراسة؟!

بدا لي وكأنّه لم يسمعني جيّدا، فقد كانت تلوح على سحنته الدّاكنة عميقة السّمرة نظرة متبلّدة، وهو يغالب أطياف النّعاس، فأعدت عليه السّؤال مرّة أخرى، متعمّدا رفع صوتي عساني أخرجه من حالة الذّهول الّتي ألمّت به... نظر إليّ منجذبا بسلطة الصّوت، غير أنّه لم يرني، ووثب على الكرسيّ الّذي كان متمدّدا عليه، وقال بأدب يداخله اضطراب كأنّه أمام مدير المستشفى:

.المعذرة، لقد غادرت مكان الحراسة بناء على طلبك...

وصمت قليلا، ريثما استجمع أفكاره المشتّتة، وبعض شجاعته، ثمّ واصل قائلا:

.لقد سمعت صوتك داخل المشرحة، فهرعت إليك دون تأخير.

قلت باهتمام:

.إنّه لأمر رهيب، يا عمّ إبراهيم...

وتوقّفت لحظة عن الكلام، وأنا أتطلّع إليه عساه يسألني مستطلعا جليّة الأمر، غير أنّه ظلّ صامتا ساكنا كصنم، فأمسكت بطرف الحديث من حيث كنت قطعته، وأنا أستشعر مرارة في أعماقي، وخيبة أمل تدبّ في أوصالي:

.أتذكر الجثّة الّتي نقلناها البارحة إلى المشرحة؟

قال:

. أجل، أذكرها...
فقاطعته قائلا:
. إنّها جثّة ذلك الرّجل الغريب؛ وقد أمرنا بنقلها إلى المشرحة في انتظار الطّبيب الشّرعيّ... هل تعلم ماذا حدث لها؟
فقال يسألني باهتمام لأوّل مرّة:
. وماذا حدث لها؟
قلت، وأنا أنطّ من السّرير، وقد بدأت تعتريني موجة جديدة من الخوف:
. لقد اختفت الجثّة... اختفت الجثّة، ولم يبق منها سوى اليدين والرّجلين!
ندّت عن عمّ «إبراهيم» صيحة فزع، وصوّب بندقيّته دون وعي نحو نقطة غير مرئيّة في الغرفة كأنّه يواجه الفاعل الحقيقيّ وجها لوجه؛ وسألني دون أن ينظر إليّ:
. ومن أخفاها؟... هل يمكن أن تختفي وحدها؟
قلت مغتاظا:
. وما يدريني بالّذي أخفاها؟
نظر إليّ، وهو ما يزال شاهرا بندقيّتة، وقال يسألني:
. ماذا يجب أن نفعل الآن؟ هل نتكتّم على الأمر حتّى يأتي المدير؟
فقلت على الفور:
. الأمر على غاية الخطورة... لا بدّ من إخبار الشّرطة، وهم سيتكفّلون بالباقي.
كان التّلفون على الكومودينو بجانب السّرير، فهرعت إليه

وأدرت قرصه؛ وما عتم أن وصلني من الطّرف الآخر صوت خشن تبيّنت فيه سلطة رجال البوليس وصلفهم... قلت للصّوت إنّ الأمر على غاية من الأهميّة، وأمددته بالعنوان كاملا حتّى يرسلوا إلينا فريقا للمعاينة.

خرجنا . أنا وعمّ «إبراهيم» . من الغرفة مخترقين الممرّ إلى البهو، ومن ثمّ دلفنا من الباب إلى الخارج... كانت حشود الظّلام تنسحب مخلّفة وراءها خدوشا سديميّة قد بدأت تمّحي شيئا فشيئا وراء خطّ الأفق جرّاء دفقات شفيفة من النّور كانت تنبجس تباعا من حدود اللاّمكان؛ وكانت نسيمات باردة، مشبعة بطراوة أواخر اللّيل، تتسلّل متغلغلة، فأشعر بها تنغل في أعماقي، ويعتريني مثل الخدر كلّما أوغلت في داخلي، راحلة عبر جميع مسامّي...

كنت أرتدي قميصا أبيض قصير الأكمام، وفوقه سترة المستشفى الطّويلة، فشددتها حولي بعناية، وانطلقت ألوذ بهيكل عمّ «إبراهيم» الضّخم؛ وقد خامرتني . وأنا أقترب منه . فكرة غريبة ضحكت لها في باطني... تخيّلت أنّ عمّ «إبراهيم»، بملامحه المخضرمة، وشعره الجعد تحت عمّته الكاكي، ولحيته الكثّة، وقد شاب سوادها بياض كثير، لا يمكن إلاّ أن يكون كائنا خرافيّا، خارج حدود الزّمان والمكان، لا تؤثّر فيه حرارة أو برودة، ولا تفزعه تقلّبات الطّقس مهما بلغت من التّمرّد والعتوّ... كنت أظنّ . باقترابي منه . أنّي آوي إلى حصن

مكين، لا أشعر بين حدوده بخوف أو انخذال، ولا تطالني داخله أيّة قوّة غيلة أو غدرا.

جذب عمّ «إبراهيم» سيجارة أعطانيها، وتناول أخرى، ثمّ أشعل عود ثقاب قرّبه منّي... أشعلت سيجارتي، وانتظرته حتّى أشعل سيجارته، ثمّ قلت له، وقد بدأ يروق مزاجي، ويعاودني انطلاقي القديم:

.ربّما يكون في الأمر سرّ لا نعلمه، يا عمّ إبراهيم... وربّما لا يكون هناك جريمة ولا مجرم...

رمقني عمّ «إبراهيم» بنظرة تائهة، وكأنّه حدس ما يجول بخاطري، ولكنّه أراد التّأكّد من حقيقة حدسه، فسألني:

. فبماذا تفسّر ما حدث إذن؟... إنّي، يا ولدي، رغم جهلي وعدم درايتي بهذه المسائل، أعلم أنّه لا بدّ لكلّ جريمة من مجرم، كما أنّه لا دخان من دون نار...

فقاطعته قائلا:

.أنت على حقّ... لكن، لاحظ أنّ هذه ليست جريمة عاديّة، فأيّ مجرم هذا الّذي يستنكف من أخذ الجثّة كاملة، فيأبى إلاّ أن يترك الرّجلين واليدين؟!

سألني وهو ينفث الدّخان من منخريه فيسترسل حلقات متضامّة سرعان ما تتلاشى:

.فبماذا تفسّر ما حدث إذن؟

قلت، وأنا أرنو إلى نقطة غير مرئيّة أمامي:

. قد يكون ما حدث بفعل قوى خفيّة... عفريت أراد أن يتسلّى مثلا، ويضحك على لحانا.

قال:

. لا يستبعد أن يكون الأمر كما ذكرت؛ لكن، حذار، يا ولدي، أن تذكر مثل هذا الكلام أمام رجال البوليس والنّيابة، وإلاّ عدّوك مجنونا، وظنّوا بك الظّنون.

قلت:

. هناك حكايات كثيرة... وكلّها حكايات يقينيّة لا تقبل الشّكّ.

قال:

. وأنا أعرف أيضا حكايات أغرب من الخيال؛ ولكنّها في الحقيقة أكثر واقعيّة من وجودي ووجودك في هذا المكان بالذّات، وفي مثل هذا الوقت من النّهار.

قلت:

. حدّثني صاحب لي قال: كانت تسنح لي سوانح أسلو فيها كلّ شيء، وأعزف عزوفاً غريباً عن المأكل والمشرب، ويعتريني كره مدمّر للبيت ولمن فيه. ولحسن الحظّ أنّي لم أكن عطلا من هواية، فقد كنت صيّاداً بارعاً، لا يجارى؛ وكان يحلو لي أن أنفرد في الجبال، متوحّداً، منصرفا إلى عزلتي؛ وبين الفينة والفينة، يطرق سمعي زئير أسد أو عواء ذئب، أو يطيف بي سرب من الغزلان أو الأيائل، فأستعدّ لتسديد طلقاتي؛ ولم يحدث مرّة أن رجعت خائبا، خالي الوفاض... ولكنّ سعادتي لا تكتمل إلاّ إذا ظفرت بواحدة من تلك الزّواحف العظيمة الّتي يحفل بها المكان، سيّما الثّعابين العملاقة أو الحيّات المرقّطة ذات الأنياب القاتلة... وقد كنت . حين أصطاد بعض الحيّات

. أكشط غشاءها، وأنتزع رأسها وذيلها، ثمّ أشويها على النّار، وآكلها، ويكون ذلك طعامي طيلة النّهار... وقد حدث مرّة أن لمحت على مبعدة منّي ثعبانا طوالا ذا وبر. خمّنت آنذاك أنّ قطره يتجاوز الخمسة أمتار إن لم يكن أكثر: فصوّبت بندقيّتي نحوه، وتريّثت مليّا، ثمّ أطلقت، إلاّ أنّني لم أصب الهدف لسوء الحظّ؛ وقد قدّرت الأسوأ لعلمي أنّ الثّعابين الجبليّة إذا أخطأها الرّصاص استحالت إلى خطر محتّم يخشى معه الموت؛ وبالفعل فقد تفطّن ثعباني إلى صوت إطلاق النّار، فانطلق يعدو ورائي، ولولا أنّني كنت أحتفظ برصاصة إضافيّة سدّدتها نحوه في الوقت المناسب لكان افترسني... وتقضّت أيّام عسر شديدة. طلّقت فيها البيت طلاقا لا رجعة فيه، وألممت بصحبة سوء اتّخذتهم من دون النّاس خلاّناً، لا نبرح حانات المدينة ومواخيرها إلاّ إلى الجبل أو الصّحراء؛ وفي أيّ من هذه الأماكن، كنّا نشرب حتّى يتعتعنا السّكر، ونفسق صحبة العواهر والبغايا... إلى أن بدأت أستشعر بداخلي أعراضا غريبة، غاية في الغرابة: أتحرّك فكأنّ شخصا يتحرّك داخلي، وأضحك فكأنّ شخصا يضحك معي، وأنام فكأنّ طيفا يلتصق بي في إغراء، لا حيلة معه لتقيّ أو متعفّف... كانت أنامل مدرّبة تلج فتحة قميصي فتتخلّل شعري الغزير، ثمّ تنزل شيئا فشيئا حتّى تداعب سرّتي، وترسم دوائر كأنّها النّيران حولها، وتهجم دفعة واحدة فتحتوي قضيبي ككلاّبتين حزيزتين، وتشرع في الشّدّ عليه بدراية وحنكة إلى أن أشعر به يتضخّم من اللّذّة والألم، ولا تدعني حتّى أفعلها!! إذ ذاك،

أحسّ كأنّ شيئا مثل الأسياخ يلتصق بشفتيّ، وينزلق عبرهما إلى حلقي ولساني... وليت الأمر توقّف عند هذا الحدّ! فقد صارت هذه الأعراض تنتابني أينما حللت، وحيثما كنت: في الشّارع، في المقهى، وفي الحانة أمام أصحابي؛ وفي جميع هذه الحالات، تتضاعف مأساتي، ويزداد كدري؛ ويغتنم ذلك الطّيف أو الشّبح الخفيّ هذه الفرصة ليعبث بي كيفما يشاء... يقبلّني... يلتصق بي... يفتح قميصي... يتشبّث بفتحة السّروال... أحسّ يديه تعبثان بذكري... أجنّ... أسبّ... ألعن، ثمّ أولّي هاربا؛ وهكذا اعتزلت النّاس جميعا، وقبعت في غرفتي أنتظر فرجا قريبا!

قالت جارتنا تحدّث والدتي، وقد زارتها يوما:

.اسمعي، يا أختي... سأحدّثك بحديث عجيب لم أحدّث به أحدا غيرك، فاكتمي عليّ، الله يجبر بخاطرك... أمس، عندما كنت في فناء الدّار بجانب الباب الخارجيّ، لمحت امرأة في الزّقاق لم أرفي الحيّ كلّه مثيلا لها، ترتدي ملابس فاخرة غالية الثّمن، ولكنّها غاية في البشاعة، بشعرها الأحمر الأجعد، وأذنيها الطّويلتين، وأنفها المعقوف، وعينيها الحمراوين... ولمّا هممت بتعقّبها اختفت ولم أعثر لها على أثر!!

طنّ في أذني كلامها، وحرّك وترا كان خامد في أعماقي؛ وأدركت للحظة، وأنا مستلق على سريري في لامبالاة أنّ تلك المرأة الجهنّميّة هي سبب بلائي، وهي ليست من جنس البشر أصلا، ولا يمكن أن تكون ملاكا هابطا من السّماوات العلى، وإنّما هي جنّية شبقة متعهّرة تبغي التّمعّش من رجولتي...

وليتها كانت جميلة!! حينئذ، قد يهون عليّ الأمر، ولكنّ سوء حظّي أوقعني في هذا المطبّ الّذي لا فكاك منه...

قال عمّ «إبراهيم»، وهو يشعل سيجارته الثّالثة من عقب السّيجارة الثّانية:

. أنا أصدّقك، يا ولدي. ولكن، هل يصدّقك الآخرون... الشّرطة، رجال الدّرك والنّيابة... دع هذا الكلام جانبا، ولنفكّر في ما يمكن أن نقوله للجماعة فيما بعد...

وما كاد يتمّ كلامه حتّى دوّت في المكان صفّارات إنذار، وعلا أزيز محرّكات آتية من رأس الشّارع، وامتلأ بهو المستشفى الخارجيّ بتلك السّيّارات الزّرقاء الطّويلة... نبحت الكلاب، فمزّق نباحها سكون الصّبح الجاثم في الأركان والزّوايا، وانطلقت حشود الجنود تحاصر المكان على امتداد السّور الخارجيّ، وتوزّع لفيف البصّاصين في الباحة يتقدّمهم ضابط شابّ ما يزال في مقتبل العمر... أخذت بمنظر تلك البزز الزّرقاء الدّاكنة، وقعقعة تلك الأسلحة الأتوماتيكيّة، فازددت التصاقا بهيكل عمّ «إبراهيم»، ولكن لم يمهلني صوت ذلك الضّابط الشّابّ وهو يقول بثقة وصلف زائدين:

. من الّذي اتّصل بالمركز منذ قليل؟

انسحبت من مكاني وراء عمّ «إبراهيم» وتقدّمت ببطء وأنا أتضاءل كأنّني إسفنجة انحسر عنها ماء البحر، وقلت بلسان ملجلج:

. أنا، يا سيّدي.

فعلت شفتيه ابتسامة فاترة، وقال بنبرة تكتنفها سخرية

لا تكاد تبين:

.ومن أنت؟

.أنا عبد المنعم حقّي، يا سيّدي.

.وماذا تعمل هنا على وجه التّحديد؟

فقلت:

.أنا الممرّض المناوب بالمستشفى، يا سيّدي.

رمقني بنظرة فاحصة ثاقبة من رأسي حتّى أخمص قدميّ، كأنّه يقدّر مدى براءتي من التّهمة الّتي لم يتمّ إلقاؤها بعد، وقال بنفس نبراته الأولى المتسلّطة المتعالية:

.هل لك أن تدلّنا إلى مكان الجريمة؟

قدته إلى المشرحة... عفوا، دللته إلى طريق المشرحة، وأنا أمشي وراءه من باب التزلّف والاحترام اللّذين يفرضهما علوّ المرتبة... وما إن اجتزنا الباب، حتّى اقتحم المكان عدّة أشخاص غارقين في البياض، قام اثنان منهما بإحاطة السّرير الّذي كانت ترتاح فوقه اليدان والرّجلان بشريط أحمر من النّيلون، في حين شرع آخر في أخذ البصمات... نادى الضّابط شخصا رابعا كان يقف على مبعدة، أدركت من خلال ملامحه وهيئته أنّه الطّبيب الشّرعيّ، وقال له:

. هذه جريمة غريبة على ما يبدو... فأرجو أن يقودنا التّحليل إلى نتائج عمليّة نطمئنّ إليها.

فقال الطّبيب إذ ذاك:

. أرجو ذلك... وإلى أن نتوصّل إلى إعداد تقرير المعمل الجنائيّ، سآخذ هاتين اليدين والرّجلين، وسنقوم بالخطوات

الأولى الواجب اتّخاذها.

وانصرف...

التفت إليّ الضّابط، وشملني بنظرة سريعة عجلى، وسألني:

.متى حدث اختفاء الجثّة؟

قلت، وأنا أسترجع في ذاكرتي تفاصيل الحادث:

.حوالي السّاعة الثّانية تقريبا.

.أريد السّاعة على وجه الدّقّة.

فقلت مأخوذا بسلطة صوته الّتي لا تقاوم:

.أتذكّر أنّ السّاعة كانت الثّانية إلاّ ربعا.

.ولماذا لم تتّصل إلاّ في السّاعة الثّالثة؟

فأجابه عمّ «إبراهيم» بالنّيابة عنّي:

.لقد كان في حالة سيّئة جدّا، يا سيّدي. وقد اضطررت إلى حمله إلى غرفته حيث أخلد إلى قسط من الرّاحة.

رازه الضّابط بنظرة متشكّكة قاسية، كما كان فعل معي من قبل، ثمّ التفت إليّ سائلا:

.ومن يكون هذا الرّجل؟

فقلت:

.إنّه عمّ إبراهيم الحارس اللّيليّ.

قال:

.سنكتفي بهذا القدر اليوم، وسنرسل في طلبكما لاستكمال بقيّة التّحقيق.

((٢٠))

حرصت أن أكون الأوّل من بين زملائي الصّحفيّين الّذي يقابل ضابط المباحث، إذ لم يسمح لنا في اليوم الأوّل بأيّ تصريح من أيّ نوع، ومنعنا من التّصوير؛ وقد صدر قرار رسميّ بإيقاف كلّ جريدة تتجرّأ على نشر أيّ تعليق عن الخبر... وهكذا، قمت مبكرا في الصّباح، واتّجهت نحو المركز حتّى من قبل أن أتناول إفطاري... كانت سيّارتي معطّبة، فاستقلّيت سيّارة تاكسي، حيث اتّخذت مكاني في أحد المقاعد الخلفيّة، وأنا أخطّ على بعض الأوراق الأسئلة الّتي سأطرحها على الضّابط فيما بعد... هناك الكثير من الأشياء المحيّرة الّتي لم أستطع أن أستوعبها إلى حدّ الآن، فعلى امتداد مسيرتي الصحفيّة الّتي أفتخر بطولها، والتّجارب الّتي حصّلتها خلالها، لم أصادف حدثا بمثل هذا الإلغاز والغموض، كما أنّ الملابسات المحيطة بأطوار هذا الحادث هي نفسها من الغرابة بحيث تصعب تجلية خفاياها... بذلت جهدا خرافيّا كي أصل إلى نتائج معقولة انطلاقا من مجموع الاحتمالات المتوافرة لديّ، مستعينا بخبرتي كصحفيّ محنّك، وعدت إلى الأرشيف الهائل الّذي كنت أحتفظ به في بيتي، من أعداد صحف يرجع

تاريخ أقدمها إلى خمسة وعشرين عاما، وانهمكت في تقليبها طيلة أسبوعين متتالين، حرمت خلالهما لذّة الرّاحة والنّوم، ولكنّي لم أعثر على شيء مشابه أو تفاصيل يمكن أن تساعد على الفهم والتّفسير... هذا الحادث طفرة: إنّه متفرّد في غموضه، محيّر في إلغازه!!

لم أجد تعليلا مناسبا لاختفاء الجثّة، وبقاء اليدين والرّجلين؛ واستغربت عدم وجود دليل ماديّ على وقوع الجريمة، فالممرّض المناوب «عبد المنعم حقّي» يكاد يقسم أنّه لم يسمع أيّ صوت داخل المستشفى، كما أنّه يؤكّد أنّ جميع النّوافذ. وهي المكان الوحيد الّذي يحتمل أن يلج خلله المجرم إلى الدّاخل إذا أسقطنا من اعتبارنا الحراسة المشدّدة والأساليب الأمنيّة المتطوّرة. كانت سليمة، لا أثر فيها لخدوش أو كسور؛ واستبدّت بي فكرة مشاكسة. رغم أنّها تأتي في المرتبة الثّانية من حيث الأهميّة .، وكان استبدادها يتسلّط عليّ باستمرار رغم محاولاتي العديدة في التّخلّص منها... من يكون المجرم؟ وهل هو مجرم أم مجرمون؟ وما غايته من فعلته...؟ وقد ذهب بي التّفكير بعيدا إلى الحدّ الّذي لم أستبعد فيه أن يكون الأمر مؤامرة محكمة الخيوط من عصابة تستهدف المتاجرة بالأعضاء الآدميّة... هذه تجارة مربحة؛ وكلّ شيء يظلّ محتملا حتّى يقع إثباته عن طريق البراهين أو تفنيده بالحجج الدّامغة!!

كانت الأصوات المتناوحة بداخلي، والوساوس الّتي انتابتني، على وشك الانفجار، عندما استفقت مضطربا على

صوت السّائق وهو يدعوني إلى النّزول... نقدّته الأجرة بعد أن شكرته، وتمنّيت له نهارا طيّبا. ثمّ عبرت الشّارع إلى الرّصيف الآخر، حيث يشمخ مبنى المركز في عنجهيّة وكبرياء... فضاء فسيح جدّا يكتنفه سور مربّع الأضلاع، متكوّن من أعمدة متناهية الطّول، مستدقّة، مدبّبة الأطراف كأنّها المتاريس أو الخوازيق، ذات لون أسود تمازجه حمرة كامدة؛ وفي أحد أطرافه، من جهة اليمين، انتصب بناء خشبيّ أقرب ما يكون شبها بالكشك، تزيّنه خطوط طويلة بيضاء وحمراء، ولا باب له، سوى فتحة تنتهي بشكل نصف دائريّ، بالكاد تسمح بدخول شخص متوسّط القامة، وبجانبه دركيّ بكامل بزّته العسكريّة، ونظرته القاسية المحايدة، وهو يتأبّط رشّاشه القصير... حيّيته بإيماءة من رأسي، واتّخذت سبيلي على امتداد الطّريق الممهّدة المسفلتة إلى بوّابة الدّخول... بادرتني فوضى الأصوات، وحمّى الأوامر المنبعثة من كلّ المكاتب المبعثرة هنا وهناك، ولا تفصل بينها أيّة حواجز أو حدود... كما خليّة النّحل، لا مجال للهدوء البتّة... أشخاص بالزّيّ المدنيّ منكبّون على تقاريرهم، وآلاتهم الكاتبة، وآخرون بالزّيّ العسكريّ يذرعون المكان جيئة وذهابا... والنّظرات واحدة تقريبا، جامدة رهيبة رغم الإعياء الّذي لا يمكن أن تخطئه العين المدقّقة... يتبادلون بعض الكلمات من حين لآخر... كلمات قصيرة مشوّشة، تتخلّلها بعض الضّحكات المسكينة... المكان غاية في الرّحابة والاتّساع، مستطيل الشّكل، لا أثر فيه لصنعة أو مسحة من جمال، تفضي ممرّاته إلى حجرات

صغيرة ذوات نوافذ كبيرة عاكسة للرّؤية، وتتكدّس في جنباته عشرات الصّناديق والأدراج وحاملات الأوراق... وفي طرف قصيّ من المتاهة الفسيحة، رأيت بابا مقفلا، نصفه الأسفل خشبيّ، قد طلي بلون رماديّ يميل إلى البياض، ونصفه العلويّ من البلّور، عليه صفيحة معدنيّة سوداء اللّون، قد خطّ عليها بلون أصفر مموّه بالذّهب «الضّابط العقيد غريب أبو اللّيل»...

خطوت خطوات ثابتة نحو المكتب، ولمّا أصبحت على مقربة منه، وهممت بطرق الباب، سمعت صوتا خشنا ورائي يقول بحياد:

. ماذا تريد؟

قلت وأنا أحاول أن أبتسم:

. أريد مقابلة سيادة العقيد.

قال بنفس خشونته السّابقة:

. انتظر قليلا.

وغاب داخل المكتب، ثمّ عاد يقول لي بعد لحظات:

. تفضّل ادخل. إنّه في انتظارك.

دخلت... على مهل، في حذر الصّحفيّ الّذي أصبح مصاحبي في حلّي وترحالي؛ وقد تعمّدت أن ألقي نظرة سريعة على المكان قبل أن أولي كلّ اهتمامي إلى الضّابط مقابلي... كانت غرفة المكتب على قدر كبير من الأناقة رغم بساطتها، وهي لا تعكس بأيّ حال الضّجيج وحميّا الجلبة السّائدين في الخارج، فكأنّما لها حصانة من عزلتها الهادئة؛ تشعر حين تدخلها

كأنّك انتقلت من صالة الرّقص في علبة ليليّة إلى قاعة القمار الصّغيرة وسط الدّهليز قبل بداية اللّعب... جوّها رائق لطيف، تسوده سكينة امتزجت برطوبة النّسمات المنبعثة من جهاز التّكييف... حسنة التّنجيد في غير تكلّف، وبها مكتب صغير عليه آلة كاتبة وركنت إلى جانبه حاملة أوراق ودرج فاخر مغلق، وعلى مبعدة منه مكتب الضّابط الكبير، ذو التّخاريم البديعة، والتّهاويل الرّائعة... كان الضّابط وراءه، يتفحّصني بنظراته الذئبيّة... شابّ ما يزال في مقتبل العمر، عجبت كيف تيسّر لمثله أن يتبوّأ رتبة عقيد وهو ما يزال في بداية الخدمة. قلت لنفسي دون أن يبدو عليّ أيّ أثر للدّهشة قد يتسبّب في انكشاف أمري: «لا بدّ أنّه مدعوم؛ وإلاّ كيف يتسنّى له أن يصير عقيدا في حين أنّ غيره قد يفني عمره في المباحث، وقصارى ما يطمح إليه رتبة نقيب، أو مقدّم في أحسن الأحوال!!»... طفوليّ الملامح، ذو شارب قصير، ويدين ناعمتين، ونظرة... كيف أقول؟ نظرة علويّة غامضة، رغم الصّرامة والقسوة اللّتين تكتنفانها... بدا لي غريبا... غريبا جدّا، ولا أدري لماذا كان ذلك الإحساس يلحّ عليّ طوال الوقت الّذي مكثته معه.

أشار إلى كرسيّ قبالة المكتب فجلست في صمت، وأنا أتمتم:

.شكرا

دقّ جرسا بجانبه، فدخل المكتب دركيّ ألقى التّحيّة في انضباط وأدب جمّ. قال لي الضّابط:

.ماذا تريد أن تشرب؟ قهوة أم شاي؟
قلت مبتسما، ولم تغب عنّي مجاملته طوال الوقت:
.لا أريد أن أثقل عليك، يا سيّدي.
فقال وهو يحاول أن يبدو لطيفا لأوّل مرّة منذ تعرّفت إليه:
.ليس في ذلك ما يدعو إلى التّحرّج؛ ثمّ لا تنس أنّك ضيفي.
قلت:
.قهوة.

فأومأ إلى الدركيّ الّذي خرج وما لبث أن عاد وهو يحمل طبقا عليه فنجانا قهوة، وضعه فوق المكتب ثمّ انصرف وأغلق الباب وراءه... مدّ لي الضّابط علبة سجائر مستوردة، فأخذت سيجارة أشعلتها، وتناول بدوره سيجارة أشعلتها له وأنا أقول ممهّدا للموضوع الّذي جئت من أجله:

. كان الله في عونكم، يا سيّدي. فلا بدّ أنّكم تلاقون عنتا كبيرا وسط هذا الخضمّ من المشاغل والصّعوبات.

طافت بشفتيه ابتسامة شاردة، ولم يغب عنّي أن أرى ذلك المزيج من الغرور والاعتداد بالنّفس مرتسما في عينيه... بدا وكأنّه ينتظر هذه المجاملة من جانبي، إذ كان كلّ شيء يحيط به، وكلّ المظاهر البادية عليه، تشير إلى إحساسه المفرط بأهميّته وخطورة مركزه.

قال وهو ينفث الدّخان من سيجارته ويستدير بكرسيّه الدّوّار ذات اليمين وذات الشّمال:

. إنّه واجبنا أن نتحرّى مواطن الدّاء... فإذا نجحنا في تأدية مهمّتنا على أكمل وجه، فلا محلّ للتّعب بعد... شعارنا:

الوطن أوّلا، والوطن ثانيا، والوطن إلى النّهاية... كان لا بدّ لنا من غاية، والوطن هو هذه الغاية الّتي نسير على هدي منها.

قابلته دون أن أنظر في وجهه... هذه الإكليشيهات أعرفها جيّدا؛ وهو يردّدها كأنّه يستعيد درسا حفظه عن ظهر قلب، ولكنّي لم أعلّق على كلامه بكلمة، واكتفيت بالقول مؤمّنا على حديثه في قليل من الحماسة وكثير من الإشفاق:

. أجل، صدقت يا سيّدي. فالوطن يجب أن يكون هدف الجميع... كلّ من موقعه... رجال المباحث، المحامون، القضاة، ورجال الصّحافة، وغيرهم، فلا سلطة فوق سلطته، ولا إرادة تعلو على إرادته.

ثمّ مستطردا بعد برهة:

. لا حياة لنا من دون وطن نستظلّ بظلّه...

ثمّ مغيّرا مجرى الحديث للولوج إلى صميم الموضوع:

. ولكن، كما تلاحظون يا سيّدي، فهناك من يضمر سوءا للوطن على ما أعتقد.

توقّف عن الاستدارة بكرسيّه، ورمى بعقب سيجارته في المنفضة، ثمّ رفع رأسه فلاحظت اعتكارا خفيفا قد انعقد ما بين حاجبيه، وسأل في اقتضاب:

. ماذا تقصد؟

قلت وأنا أضحك بمودّة، لأمتصّ ذلك الاعتكار الطّارئ على سحنته:

. الجريمة الأخيرة... إنّها حقّا غريبة!!

قال بصوت أراده أن يكون ثابتا صلبا:

. صحيح، الجريمة غريبة نوعا ما؛ لكن سنظفر بالفاعل عاجلا أو آجلا.

سألت بمداورة ومكر، لا يحسنهما إلاّ صحفيّ محنّك مثلي:

.هل أنت متأكّد، يا سيّدي، أنّ الفاعل شخص واحد؟...

فقاطعني بقسوة:

. لا داعي لوضع افتراضات من هذا النّوع... سواء أكان الفاعل شخصا أم أشخاصا أم عصابة، سنظفر به حتما، ولا يذهبنّ بك الظّنّ بعيدا، فنحن قادرون على كلّ شيء... بأساليبنا الخاصّة طبعا!

وضحك ضحكة ماكرة، قصيرة، ثمّ عاد يستدير بكرسيّه الدّوّار مرّة أخرى. وفي تلك الأثناء، عاد الدركيّ من جديد وهو يقول:

.وصل الطّبيب الشّرعيّ، يا سيّدي.

وما أتمّ كلامه حتّى نهضت مستعدّا للخروج؛ غير أنّ الضّابط أوقفني بإشارة خفيفة من يده، وهو يقول متصنّعا الابتسام:

. قد سنحت الفرصة لتعرف طرفا من خفايا هذه الجريمة... تفضّل اجلس، أرجوك.

ثمّ التفت إلى الدركيّ الواقف قرب الباب قائلا في حزم:

.أدخله في الحال.

دخل شيخ وقور، غارق في البياض، قدّرت أنّه قد يكون تجاوز عقده الخامس منذ سنوات، هادئ النّظرات، ذو صلعة حمراء تتوسّط رأسه الصّغيرة المستديرة، له شارب قصير

ضارب إلى حمرة، وعيناه الصّغيرتان الضّيقتان تعكسان ذكاء عجيبا... أشار إليه الضّابط، فجلس على الكرسيّ مقابلي، وهو يقول في لطف زائد:

ـ أشكرك كثيرا، يا سيّدي الضّابط.

فاغتنم هذا الأخير الفرصة ليعرّفنا ببعضنا... أشار إليّ قائلا:

ـ الأستاذ محي الدّين فهمي، صحفيّ بجريد «كلّ النّاس».

ثمّ أشار بعد ذلك إلى الطّبيب مخاطبا إيّاي:

ـ الدّكتور سيّد عبد العاطي...

وهو يبتسم:

ـ دكتور طبعا.

واتّجه بكلّيته إلى الطّبيب؛ وبعد أن رماه بتلك النّظرة الذّئبيّة الفاحصة الّتي يرمي بها كلّ من يتطلّع إليهم، سأله بمودّة:

ـ ما الجديد لديك، يا دكتور؟

تردّد الطّبيب قليلا، وهو يرنو إليّ مضطربا من حين لآخر، كأنّه يخشى التّحدّث في حضوري، وقد لاحظ الضّابط ذلك، فقال مشجّعا:

ـ لا عليك، يا دكتور، تحدّث ولا تراع.

تنحنح الطّبيب ليجلو صوته، وليتخلّص دفعة واحدة من تردّده، ثمّ استرسل قائلا:

ـ إنّه عجب أعجب من العجب، يا سيّدي الضّابط... ما وقع يجلّ حقيقة عن الفهم والتّفسير... شيء غريب، بلا أوّل

مشابه، ولا آخر يمتّ بشبه. بكلّ بساطة: ما حدث يعدّ طفرة نوعيّة!!

انتفض الضّابط في كرسيّه كطير جريح، أو كمن لدغته عقرب، ومال بجذعه على المكتب حتّى اعتمد بكوعيه على حافّته، ورفع رأسه فرأيت مكان تلك النّظرة الجريئة الثّابتة نظرة أخرى مضطربة متوجّسة، وسمعته يسأل الطّبيب معولا:

.ماذا تعني، يا دكتور؟... إنّي أراك تلقي ألغازا.

فالتفت الطّبيب، وهو يحاول الابتسام، حتّى يهدّئ من روعه، ثمّ قال:

. إنّي أعني ما أقوله تماما، يا سيّدي... فبعد أن أخذت اليدين والرّجلين إلى المخبر تبيّن لي أنّ تلك الأعضاء لا تحمل أيّ أثر للعنف أو الاعتداء، بل على العكس، لقد اكتشفت أنّها ما تزال تنبض بالحياة... الشّرايين سليمة، لا وجود لنزيف، والدّم يجري بانتظام ودون عوائق...

لم يتمالك الضّابط أن قاطعه صائحا:

.هذا مستحيل... هذا شيء لا يصدّق!!

فردّ عليه الطّبيب بكلّ برود:

. شيء لا يصدّق حقّا؛ ولكن للأسف، هذه هي الحقيقة كاملة، دون زيادة أو نقصان.

ثمّ قام من مكانه، وحيّانا بابتسامة وادعة وانصرف.

شعرت أنّ من واجبي أن أتدخّل في تلك اللّحظة بالذّات لأطيّب خاطر سيادة العقيد، فهو وإن كان ضابطا كبيرا

يتصرّف في رقعة هي أكبر بكثير من كلّ حيّنا مجتمعا وثلاثة أحياء مثله، يظلّ شابّا يفتقر إلى الخبرة والتّجربة اللّتين لا تكتسبان إلاّ بتعاقب الأيّام وكرور السّنين... تحرّكت في مكاني عامدا لأجلب انتباهه، ولأخرجه من حالة الذّهول الّتي ألمّت به فجأة؛ وقد نجحت محاولتي نجاحا كبيرا، إذ انتبه إليّ وعلى شفتيه طيف ابتسامة ذاوية. قلت مطمئنا:

. لا عليك، يا سيّدي، فكلّ مشكلة . مهما بلغت تعقيداتها . لها الحلول النّاجعة الكفيلة بإزالتها.

وأضفت بعد قليل:

. وإنّي لواثق أنّكم قادرون على حلّ لغز هذه الجريمة... قليل من الصّبر فقط، والاستمرار والمثابرة... وأنتم تعلمون، يا سيّدي، أنّ المجرم مهما بلغ من الفطنة والذّكاء حتما سيخلّف وراءه شيئا يدلّ عليه؛ قد يكون هذا الشّيء تافها، لا قيمة له، ولكنّه كفيل بإنارة السّبيل.

قال، وقد زالت من نظرات عينيه آخر آثار ذلك الصّلف والعنجهيّة المتعالية:

. إنّي لأعجب حقيقة من أمرك، يا سيّد محي. فأنت أوّل صحفيّ أراه يقف إلى صفّنا دون تحفّظ، ولا يرمي إلى التّشهير بعجزنا، على الأقلّ في الوقت الرّاهن.

فقلت متشّجعا بكلامه، وأنا أختلس النّظر إلى وجهه الّذي بدأ يعاود سحنته التّألق والهدوء:

. لا غرابة في ذلك، يا سيّدي، إذا أخذنا في الاعتبار مصلحة البلد... البعض من زملائي . للأسف . يرون في الصّحافة منفذا

للتّنفيس عن غضبهم وأحقادهم، فيلجأون إلى الانتقاد والتّشهير... أنا، يا سيّدي، تهمّني الحقيقة وحدها، ولا يهمّ من يكون الطّرف المساهم في تجلية هذه الحقيقة... إنّ النّقطة الأساسيّة الّتي لم يتوصّل إليها أكثرنا بعد أنّنا لسنا أعداء في حلبة صراع يستهدف فيها أحدنا تصفية الآخر، بل الأحرى بنا أن نكون أطرافا متعاونة في سبيل هدف واحد... وهو الحقيقة.

رفعت رأسي، ونظرت إليه. كان يبدو عليه الرّضى والاستحسان. قلت أسأله:

. أليس هناك شهود في هذه القضيّة؟

. كثيرون باعتبار عبد المنعم حقّي الممرّض المناوب بالمستشفى المركزيّ.

فقلت، ولم أستطع أن أتمالك نفسي فأخفي استغرابي:

. عجبا، لقد كنت أظنّ أنّ عبد المنعم حقّي هو الشّاهد الوحيد في هذه القضيّة.

قال الضّابط:

. جاء بعده كثيرون إلى المركز، وكلّ واحد منهم يزعم أنّه رأى الجاني!!

. وكيف ذلك؟ إنّ هذا الأمر محيّر حقّا!

فقال الضّابط بهدوء تامّ استغربته منه:

. لقد سألناهم جميعا، فأكّدوا بما لا يقبل مجالا للشّكّ أنّه فيما بين السّاعة الواحدة والسّاعة الثّانية صباحا قد شاهدوا شخصا غريبا يمرّ سريعا أمام المستشفى المركزيّ.

قلت أسأله:

.وهل كان وحده؟

قال:

.أجل. هم أكّدوا ذلك.

قلت أسأله من جديد:

.وهل كان دليل الجريمة معه... أقصد الجثّة المختفية؟!!

قال:

.العجيب أنّهم يجزمون أنّهم لم يروا معه شيئا.

.فكيف عرفوا أنّه الفاعل إذن؟

قال:

.غرابة هيئته... مروره أمام المستشفى في ذلك الوقت من الصّباح... عجلته...

قاطعته سائلا:

.وهل وصفوه لكم، يا سيّدي؟

قال:

.طبعا، وقد كان وصفهم متطابقا، حتّى أنّنا قمنا برسم صورة تقريبيّة له، وزّعناها على جميع المراكز في البلاد، ولكن...

فسألته متلهّفا:

.ولكن ماذا؟

قال بحسرة يمازجها أسى ظاهر:

.ولكن، للأسف، لم نعثرله على شبيه بين ملايينا العشرة... وهكذا، كما ترون، ظلّت هذه الجريمة لغزا حقيقيّا!!

وما إن أنهى كلامه حتّى بدأ ينقر بأصابعه نقرات خفيفة على حافّة المكتب، وقد همّ أكثر من مرّة بالقيام، ففهمت بحدسي أنّه يريد أن ينهي الزّيارة، ولكنّه لسبب ما لا أعرفه رفض أن يصرّح بذلك علنا. ربّما منعه خجله المفاجئ أن يقول لي ذلك صراحة... قمت، فجاراني وقام بدوره وهو ينظر إليّ نظرة ودودا، أين منها تلك النّظرة الأخرى العدائيّة الّتي كان هاجمني بها حال دخولي غرفة مكتبه... صافحته، وأنا ألهج بالثّناء عليه للسّماح لي بهذه اللّحظات من وقته الثّمين، وقد أحسست بأساريره تنفرج شيئا فشيئا رغم ذلك الهمّ المباغت الّذي كان يرتسم في نظرات عينيه القويّتين.

لم أكن على عجلة من أمري في ذلك الصّباح... ولم يكن من عادتي الجلوس في المقاهي، فقلت لنفسي بإغراء وتشهّ لما لا أقوم بجولة في شوارع المدينة الكبيرة، أتنسّم أخبار النّاس، وأمارس هوايتي المفضلّة في التّطلّع إلى الوجوه وقراءة الأفكار الثّاوية وراء ملامحها وقسماتها.

وأنا طالب في الثّانويّة (في السّنة النّهائيّة تحديدا)، كان مدرّس اللّغة الإنجليزيّة يحدّثنا كثيرا عن الشّعر والشّعراء الإنجليز. الأحياء منهم والأموات على حدّ سواء ،. وكان يحلو له أن يورد لنا طرائف متفرّقة، ونوادر مختلفة، كان يحتفظ بها في دفتر صغير قلّما كان يفارقه... قال لنا مرّة إنّ أحد الشّعراء. وقد نسيت الآن اسمه. كان لا تروق له الكتابة، ولا يداهمه شيطان الشّعر، إلاّ حينما يخرج إلى الشّارع ويتطلّع إلى الوجوه، والملامح الآدميّة النّابضة بالحياة... لعلّني أنا

أيضا قد أصابتني عدوى ذلك الشّاعر، فغدوت أستلهم ممّا يطالعني في شوارع مدينتي الكبيرة مادّة المواضيع لمقالاتي.

كنت بصدد مغادرة الميدان الكبير وسط المدينة، والاتّجاه يسارا نحو بعض الأزقّة المفضية إلى نهاية طوار كنت أعرف في ناصيته مكتبة عتيقة تبيع كتبا قديمة، كنت كثيرا ما ألمّ بها، سيّما وأنّني تربطني بصاحبها علاقات حميمة، حينما طرق مسامعي صوت صبيّ يبيع بعض جرائد اليوم، ورغم أنّه كان بإمكاني الحصول على أيّة جريدة أشاء. ومجّانا. إلاّ أنّه هجس بداخلي هاجس غريب يدفعني إلى اقتناء واحدة، فناديت الصّبيّ الّذي سلّمني جريدة وأخذ المال الّذي بذلته له بسخاء، وهو يدعو لي.

فوجئت، واعترتني رعدة قويّة، وأنا أقرأ العنوان الكبير المكتوب باللّون الأحمر، والمثبت برأس الصّفحة الأولى: «فاجعة أليمة... اختفاء الضّابط العقيد غريب أبو اللّيل في ظروف غامضة!!»... لم أتمالك نفسي... كدت أصرخ من الدّهشة. قلت في حالة فزع مدمّرة:

. هذا غير معقول. أيعقل أن يختفي الرّجل فجأة، وقد كنت منذ قليل أحدّثه ويحدّثني؟... فمتى اختفى؟ ومن المتسبّب في اختفائه؟

ثمّ مضيفا، وقد رجعت بي الذّاكرة إلى اللّحظات الأولى من مقابلتي إيّاه:

. إذن، هذا ما يفسّر تلك النّظرة العلويّة الغامضة الّتي طالعتني أوّل ما رأيته!!

«٣٠»

جريدة «أضواء الفجر»
من مراسلنا الدّائم بـ«سوهو». لندن. المملكة المتّحدة.
بتاريخ ٢٩. ١٠. ١٩٧٥

ما الّذي يحدث في المدينة... مدينتنا الجميلة الهادئة الوادعة؟ بل ما الّذي يحدث في البلد كلّه؟ هذا الصّخب العارم، وهذه الضّوضاء الّتي تنبعث مدوّية مولولة كأصوات النّدب، وأخيرا هذا الإعوال الممضّ الّذي يندّ عن الأفواه المتعبة، عاكسا مسحة حزن عميقة ترتسم على سحنات داكنة شديدة السّمرة قد لوّحتها شمس الصّيف الحارقة؛ وهذه الأصوات... هذه الأصوات بالذّات، هل يمكن لأحد أن يخطئ حدّة جرسها، ونبرة الاتّهام الخبيئة بين طيّاتها وهي تصيح في كلّ مكان، في كلّ ميدان، في كلّ زقاق، في كلّ ناصية، وفي كلّ طوار: «أين الشّرطة؟... أين ضبّاط المباحث؟... أين رجال الدّرك؟... إلينا! إلينا! لقد أوشك تيّار الأحداث أن يجرفنا معه!» وتضجّ المقاهي، وتلقي بمن فيها إلى الشّوارع، طوابير لا يحصى عددها، زرافات ووحدانا، تضيق بهم الأمكنة، وتلفظهم الحارات العتيقة والأحياء إلى اللاّمكان،

في محاولة للنّسيان، ربّما؛ أو بالأحرى في محاولة لتفادي الأخطر، بالذّوبان في مرامي الحشد الّذي لا ينتهي، بالانتصار على الخوف وسط الإحساس الطّافح بالانتماء إلى هؤلاء الأشخاص... كلّ هؤلاء الأفراد... وكلّ هذه الأرض، هذه الأمّ الرّؤوم الّتي لا همّ لها إلاّ احتواء أبنائها.

ما الّذي يحدث في المدينة... مدينتنا هذه الرّائعة دائما رغم كلّ جرائم العالم، ورغم تحالف الأقداروسوء الطّالع ضدّنا؟ بل ما الّذي يحدث في البلد كلّه؟ وهل يعقل أن تمتدّ الأيادي المرتعشة القذرة إلى زينة ضبّاطنا الشّبّان بعد أن طحنت بأظافرها الطّويلة الحادّة قوما من أهلنا، وذوي قرابة يمتّون إلينا، هم مثال يحتذى في الوداعة والطّيبة، وحسن السّلوك، لم يعرف عنهم. قبل أن يتوفّاهم الله إلى جواره. أيّ تسيّب أو تقصير، ولم يقترفوا أيّ زلل أوخطأ؟ ونصحوفجأة، ذات صباح يوم من الأيّام، فيقال لنا بكلّ بساطة: «لقد اختفت جثامينهم في ظروف غامضة!» أيّة ظروف غامضة هذه؟! وذنب من كلّ هذا؟! ومن يتحمّل التّبعة في النّهاية؟! على من نلقي هذا العبء أو الحمل الثّقيل؟! قد تضجّ تلك الأصوات الغاضبة في لجاجة، وتشير الأصابع المضطربة إلى رجال مباحثنا... قد تتّهم بالخطأ وعن غيرعمد. نتيجة الحنق المفاجئ، وبدافع من حسن النّيّة. ضبّاطنا الأخيار الّذين نذروا أنفسهم للواجب والوطن... وقد... وقد... ولكن، يجب أن لا يحجب الغضب الحانق أعيننا عن حقيقة ثابتة، وهي أنّ رجال مباحثنا قد قاموا بواجبهم وزيادة. فهذا سيادة الضّابط العقيد «غريب

أبو اللّيل» قد ذهب ضحيّة لتفانيه في أداء الواجب، وإتمام المهمّة؛ وهؤلاء ثلاثة من معاونيه أيضا قد اختفوا، ولم يستدلّ عليهم بأثر!! فهل نلقي، بعد ذلك، بالتّبعة على شرطنا ورجال دركنا؟! أعتقد أنّ الإجابة الّتي يمليها علينا إحساسنا العميق بالمسؤوليّة يجب أن تكون. وبصدق: كلاّ، وألف كلاّ.

هنا أيضا، وفي لندن بالذّات، على بعد أميال بالغة الشّسوع من مدينتنا الفاتنة دوما، سمعنا بالخبر، ولم نصدّقه في البداية ظنّا منّا أنّها هجمة شرسة من هجمات الدّعاية المغرضة، تستهدف تشويه سمعتنا في جزائر ما وراء البحر وبلدانه؛ فهذه جرائد الفضائح اليوميّة «التّابلويد». تكتب، وبسخرية وعنف، عن الحدث الأليم موردة كلّ التّفاصيل، وهذه الأحزاب فجأة (المحافظون والعمّال وغيرهم) تتوقّف عن صراعها الأبديّ الّذي امتدّ على ما يقرب من نصف قرن بأكمله، وتنبذ مشادّاتها وملاسناتها البذيئة وتنابزها المشين، لتكتب صحفها اليوميّة والأسبوعيّة، وملاحقها الّتي لا تكفّ عن الصّدور أبدا، وطيلة ثلاثة أشهر بأكملها، عن حدث الاختفاء... اختفاء الجثث، وهي تنتظر قدوم الطّبيب الشرعيّ لتشريحها!! وأقرأ العناوين الكبيرة، وأقلّب الصّفحات بيدين مرتعشتين، فتطالعني المقالات الطّويلة المدبّجة بغير قليل من الصّبر وكثير من الحقد والحنق؛ وتعتري مفاصلي قشعريرة أشبه بقشعريرة الموت... «أيّة مهزلة تقع في الجوار، على الضّفّة الجنوبيّة من المتوسّط...!!»، «يرفعون شعارات التّنمية والوفاق والدّيمقراطيّة، ويعجزون في النّهاية عن

القبض على حفنة من المجرمين!!»، «هذا الحادث يؤكّد، وبما لا يقبل مجالا للشكّ، أنّ بلدان «العالم النّامي» ما تزال غارقة في سبات القرون، ويلزمها . في أحسن الأحوال . أربعة أو خمسة قرون للّحاق بركب الحضارة الغربيّة...!!»؛ كنت في كلّ مرّة أقرأ فيها هذه المقالات، ينتابني جنون خرافيّ، فأهبّ قائما وأطوي الجريدة وألقي بها جانبا، كيفما اتّفق؛ وقد يحدث أن أمزّقها إلى نتف من الأوراق الصّغيرة ثمّ أرمي بها أرضا وأنا أدوسها لاعنا بعربيّة قحّة . (حتّى لا يفهمني من يكون بجواري من رهط الإنجليز ولفيفهم) . الغرب الأوربيّ، والتّفوّق الأمريكيّ، ومهزلة القدر الّذي لم يكتف بإخلال ميزان القوى، بل جرّدنا حتّى من مجرّد الانتماء إلى المجتمع الإنسانيّ!!

مرّة، كنت جالسا في مقهى، بجانبي فتى إنجليزيّ وفتاة من جزر الهند الغربيّة يتناجيان، وقد كنت أدخّن وأقرأ جريدة، كعادتي في كلّ يوم بعد وقوع تلك الأحداث المريعة في مدينتنا؛ وفجأة تلبّستني روح شرّيرة، بعد أن انتهيت من قراءة مقال من تلك المقالات المغرضة، فأرغيت وأزبدت، ورحت ألعن بنفس عربيّتي القحّة الّتي هاجرت بها معي إلى جزر الشّمال دون أن أهمل استعمالها في الأوقات العصيبة الحرجة...أخذ الفتى من أثر الدّهشة، والفتاة أيضا، فراح ينظر إليّ نظرة متبلّدة دون أن يقول شيئا، وقد كان على وشك أن يلثم شفتي فتاته اللّعساوين. وقال يسألني على وجل، بعد قليل، دون أن تغيب عنّي نظرة التّبرّم في عينيه:

. مالك، أيّها السّيّد؟ ما الّذي اعتراك؟

فأجبته كاذبا، وعلى شفتيّ أطياف ابتسامة مرّة ساخرة:

. لاشي البتّة. لقد هزّني الطّرب لانتصار «مانشستر يونايتد»، فلم أتمالك نفسي، وصرخت صائحا، كما ترى.

ولكن، يبدو لي أنّه لم يقتنع تماما بما قلته، فسألني متخابثا:

. إنّه لأمر غريب أن تحبّ فريقا إنجليزيّا، وتعبّر عن حبّك له بلسان غريب!!

فقلت بدوري إمعانا في السّخرية جرّاء القهر والغضب:

. هذا لسان عربيّ، يا صديقي.

فقال دهشا:

. وهل أنت عربيّ؟

فأجبته، وقد بدأ يعاودني بعض من هدوئي:

. أجل... نحن . العرب . إذا أحببنا شيئا امتدحناه بلغتنا إمعانا في الحبّ والصّدق...

ولكنّه . الوغد . لم يمهلني فقال يسألني من جديد بنفس نبرته المتخابثة:

. وكيف تشتم أحدا إذا أردت شتمه؟

ومال على صاحبته يلثم شفتيها المكتنزتين؛ فقلت قبل أن يغيبا وراء حدود اللّذّة والألم:

. بكلّ بساطة، أشتمه بلسانه، يا صديقي.

ولكنّه كان قد غاب فعلا مع صاحبته، فلم يلق لما قلته بالا.

هل بقي أحد في لندن لم يتحدّث عمّا وقع في مدينتنا الجميلة الهادئة الوادعة؟ وهل توقّفت الجرائد فيها يوما

عن السّخرية منّا والتّهكّم علينا؟ وهل ظلّت بعقلي بقيّة باقية تحتمل كلّ هذه الفوضى العارمة، وتظلّ بمنأى عن الانفجار الكبير؟ قطعا، لا. بلى، إنّي أقول هذا، وأنا في حالة نفسيّة سيّئة جدّا، أعاني من انقباض مزمن، وتتداول عليّ حالات اكتئاب، وتتجاذبني مشاعر متباينة، أودّ معها لو تواتيني قوّة عفريت القنّينة وجبروته فأفتّت خارطة القارّة الأوربيّة بين يديّ، وأرمي بنفاياتها إلى بطون الحيتان في قاع البحر...إنّي لأتساءل بكلّ غلّ، مقهورا، مغلوبا على أمري: «هل لدعاة الحرّية والمساواة هؤلاء من الجرأة والتّجرّد ما يجعلهم يشنّون نفس دعاياتهم المغرضة على مقاطعة أو مدينة أوربيّة فيما لو حدث بها ما حدث بمدينتنا الفاتنة دوما رغم جرائم العالم وتحالف القدر ضدّنا؟» ستقولون . سادتي . إنّ أمرا كهذا غير وارد، فأقول حينئذ إنّه يكفي مدينتنا فخرا .على صغر حجمها وضيق رقعتها .أنّها استقطبت اهتمام مئات الملايين من البشر، حتّى وإن كان مدار الاهتمام مأساويّا إلى أبعد حدود المأساة!! مئات الجرائد الأجنبيّة تطالعني كلّ يوم، بعناوينها ومقالاتها، مكتوبة بجميع لغات العالم وألسنته من فرنسيّة وإنجليزيّة وإسبانيّة وإيطاليّة، وحتّى صينيّة، وكلّها تحمل نفس البصمة السّاخرة والأسلوب الاتّهاميّ في دعابة وتفكّه، إلى حدّ أنّي بدأت أضجر، وأحسّ بصغار وذلّة ينهشاني من الدّاخل لعجزي عن القيام بأيّ شيء من شأنه أن يخفّف من حدّة هذه الحملة الشّرسة... هل تصدّقون أنّي بدأت أتحدّث بصوت مرتفع مع نفسي في الشّوارع والمقاهي؟ هل تصدّقون أنّي غدوت نزقا

مشاكسا؟ وهل تصدّقون أنّني بدأت أتجهّم وأعبس في وجوه أصدقائي من الإنجليز، لا لشيء إلاّ لأنّهم من طينة أولئك الّذين يتحدّثون عن المساواة والعدالة، وهم منهما براء؟ بعض أصدقائي من الجالية العربيّة في لندن لاحظوا اكتئابي وتغيّر حالي، فسألوني في إشفاق عمّا بي، ولمّا أطلعتهم على جليّة الأمر، أبدوا تعاطفا وتفهّما زائدين، ووعدوا بالمساعدة! بلى، سادتي، وعدني أصدقائي بالمساعدة، وقد كان الموقف فعلا يحتاج إلى مساعدة... ومساعدة كبيرة حقّا!!

في الحادي عشر من تشرين الثّاني، كنّا مائتين وخمسين عربيّا نحمل اللاّفتات، ونجوب شوارع لندن من أقصاها إلى أقصاها ونحن نردّد بصوت وحد: «أوقفوا هذه المهزلة... أوقفوا هذا الصّخب العنصريّ!!» وقد انضمّ إلينا في مسيرتنا هذه إنجليز، وأناس كثيرون من مختلف الأجناس، فيهم يهود ممّن نجوا من معتقلات «أدولف هتلر» في الحرب العالميّة الثّانية.

لم يطل بنا الأمر حتّى انتشر خبر ما قمنا به في كامل أرجاء المملكة المتّحدة، وإرلندة الجنوبيّة، ولاكته الأفواه ذات الشّفاه المرتخية حتّى غدا أشبه بتلك الكرة الّتي ما يزال أطفالنا في مدينتنا الفاتنة دوما يصنعونها من المزق الخلقة ليلعبوا بها في أماسي الشّتاء القصيرة، و قد تمزّقت وألقت ما بأحشائها وزاد وزنها جرّاء القاذورات والأوحال... وتناقلته الدّوائر المختصّة في شؤون الشّرق الأوسط بوزارة الخارجيّة، وكواليس الحكومة والمعارضة، والسّكارى في الحانات والعلب

اللّيليّة في ساعات متأخّرة من اللّيل، والأوساط البوهيميّة، ومنتديات اللّوطيّين والسّحاقيّات، والمومسات المحترفات فوق صدور رجال أقوياء، يفيضون رجولة وفحولة، لم يبق عضو في أجسادهم إلاّ وسموه بآثار الوشم... وتندّر به غرسونات المطاعم، والمغنّون في أكبر مسارح لندن وقاعاتها، ووزراء سابقون في الحكومة، وقناصل وساسة عملوا لسنين طويلة في سفارات ببلدان المتوسّط الجنوبيّ. وقد بات حتميّا أن أتحمّل أنا ورفقائي الجريرة، ويلقى على أعناقنا عبء التّبعة؛ وكانت تملأ أسماعنا حيثما حللنا عبارات الاستنكار والاستهجان، حتّى إنّ البعض قد لجأ إلى التّضمين والاستعارة والكناية وإيراد الأمثال... «الجزاء من جنس العمل»، «إنّ الطّيور على أشكالها تقع»... وغير ذلك ممّا لا أقوى على ذكره أو حصره.

وصلني بعد ثلاثة أيّام من الحادث استدعاء بمقابلة ضابط كبير في «سكوتلنديارد»، وقد فكّرت للحظة في عدم الحضور، واتّصلت هاتفيّا بسفارتنا في لندن، وما كاد الموظّف الّذي ردّ عليّ يسمع صوتي، ويتعرّف إلى اسمي، حتّى قال لي في انزعاج ظاهر:

. إنّ سعادة السّفير في مهمّة عمل إلى فرنسا...

فقاطعته، وأنا أتحامل على نفسي كي أبدو أكثر هدوءا:

. ومتى يعود سعادته؟

فأجابني، وقد استحال انزعاجه إلى سخرية مبطنة:

. إنّ سعادته لن يعود قبل شهر من الآن.

قلت:

.ولكنّ الأمر عاجل وخطير.

فقال بحدّة:

. إنّ السّفارة غير مسؤولة عن ألعابك الصّبيانيّة، يا سيّدي.

وأقفل الخطّ!!

أسقط في يدي لضياع آخر أمل في النّجاة، ولكنّي رغم ذلك، وخلافا لكلّ توقّعاتي المنذرة جميعها بالهزيمة والانهيار السّريع، فقد تمكّنت، وبأعجوبة نادرة، من التّماسك، بعد استحضار صورة والدتي وأنا أودّع جثمانها الطّاهر بدمعتين كبيرتين على شفا قبرها، والتّذلّل باسم الحضرة الشّريفة العليّة، والتوسّل بجميع أسماء من أعرفهم من الأولياء ومن لا أعرفهم، والتّسليم الّذي لا بدّ منه، في الملمّات، لمن رفع السّماوات العلى فوق الأرض، ولم يكن له من معين في ذلك من صاحبة أوولد... ربّما يكون الخوف الشّعور الوحيد الّذي أحسست به خلال اللّحظات الّتي أعقبت المكالمة الهاتفيّة مع موظّف السّفارة؛ ولكن تلاشى الخوف فيما بعد، وحلّت محلّه مشاعر وأحاسيس متباينة، هي من الكثرة والغموض بحيث أقضّت مضجعي وحرمتني النّوم على امتداد أربعة أيّام بأكملها قبل أن أقابل في النّهاية ذلك الضّابط الكبير في مكتبه المتصدّر لأكبر وأقدم وأشهر مقرّ جريمة... عفوا، أيّها السّادة، لقد أردت أن أقول أكبر وأقدم وأشهر مقرّ شرطة في تاريخ الإنسانيّة الحديث والمعاصر؛ فمن ذا الّذي لا يعرف

مثلا «شارلوك هولمز» الّذي كان يكفيه أن يدخّن غليونه حتّى يتمكّن من العثور على إبرة قميئة الحجم في كومة كبيرة من القشّ؟! ومن ذا الّذي يجهل أولئك الأشخاص ذوي الشّوارب الطّويلة المعقوفة كأعراف الدّيكة، الّذين يغضّون الطّرف، محبّة وأخوّة، عن تفجير كومندوس الجيش الجمهوريّ الإرلنديّ لأحياء لندن وضواحيها، باسم التّسامح المسيحيّ الّذي تعهّدوه في قلوبهم المرهفة طيلة ما يقرب من ستّين عاما، ويلاحقون مواطنا عربيّا، لا لشيء إلاّ لأنّه أراد أن يدافع عن وطنه من خلال مدينته الهادئة الجميلة الوادعة دائما رغم جرائم العالم كلّه وتحالف القدر وسوء الطّالع ضدّها؟! أنا لست نادما عمّا وقع، وإذا كنت خائفا فلأنّي أظلّ غير قادر على محاربة الفطرة البشريّة... هل عرفت الخوف من قبل؟ وإذا عرفته، هل أكون جرّبته بهذا العمق الّذي أقاسيه الآن؟ أكون كاذبا لو قلت نعم! فما ينتابني الآن، وأحسّه بثقل الدّنيا كلّها، وأنا مضطرّ لمقاساته بلا إرادة أو خيار، لا قبل له ولا بعد، بلا حجم بيّن أو شكل واضح، يعوزه الوزن ويفتقر إلى التّمظهر، ولكنّه بغيض... بغيض جدّا، ومؤلم إلى حدّ الإحساس بالقرف والغثيان!! أنا لست نادما عمّا وقع، وإذا كنت خائفا فلأنّي . بكلّ بساطة . غير قادر على محاربة الفطرة البشريّة المجبولة على الخوف.

في البيت، كما في مقرّ العمل، أو في المقهى، أو الشّارع، أو حيثما كنت، أحسّ بالأعين تلتهمني، وكأنّها تروم افتراسي بتلك النّظرات الحمراء الغاضبة الّتي ينبعث منها مثل الشّواظ.

وتبصق الشّفاه ما بالقلوب من حقد وغلّ دفينين، فأسمع بأذنيّ اللّتين درّبتهما منذ مدّة على الصّمم تلك الكلمات الكبيرة النّابية بلغتهم، ولا أجرؤ حتّى على الرّدّ عليهم بعربيّتي القحّة... كنت أربأ بها أن تنزل إلى درك الشّتم الوضيع، فأورّطها مرّة، وأتخلّى بذلك عن مبادئي إلى الأبد... حتّى في أقصى حالاتي ألما وحزنا لم يغب عنّي أنّ عربيّتي القحّة خير لها أن تمتدح من أن تدنّس بشوائب الذمّ والهجاء... لا بدّ أن يظلّ المبدأ فوق كلّ شيء... ولكنّي في المقابل، كنت أتوجّس من الرّدّ عليهم بلغتهم، وكنت أخشى على نفسي منهم إلى حدّ أنّي أصبحت أتحسّب من تحريك شفتيّ لئلاّ يسدّدوا قبضاتهم الأوربيّة الموغلة في أتون التّاريخ ضدّي، وأنا أعزل، قد تركت سيفي ورمحي ودرقتي ونشّابي، وكلّ عدّة حربي في مكان ما من خيمتي في صحراء النّفوذ... كنت أتصوّر أنّ أيّ كلمة سأقولها، مهما كانت بريئة، وأيّ إيماءة، أو أيّ بسملة أو حمدلة، لا بدّ أنّهم سيسيئون فهمها، وسيؤوّلونها على خلاف ما تحمله من معان، وسيقاضونني غاليا جرّاءها. فهل أمامي غير نشدان السّلامة والاستسلام؟

صرت لا أخرج من بيتي إلاّ لماما، وقد كانت المدّة متباعدة بين كلّ زيارة وأخرى أقوم بها إلى المدينة. ثمّ انعدمت الزّيارات تماما، وفقدت كلّ اتّصال لي بالعالم الخارجيّ، بمقرّ عملي الّذي فصلت منه ببرقيّة عاجلة بالبريد السّريع، بزملائي الإنجليز والعرب على حدّ سواء؛ وقد قاطعوني جميعهم، ولم يفكّر أحد منهم في زيارتي، ولو مرّة واحدة، خلال إقامتي

الجبريّة الطّويلة. وقد كنت، على كلّ حال، ألتمس لهم جميع الأعذار المقنعة وغير المقنعة، الممكنة والمستحيلة، إذ كان من غير المعقول أن يجازفوا بالمجيء أمام تلك التّحصينات المتينة، والرّقابة الأسطوريّة المضروبة بعنف حول البيت، وعلى امتداد ثلاثة مربّعات سكنيّة بأكملها... لقد صحوت ذات يوم، فوجدت مكان الأعمدة الحديديّة المحيطة بالسّور أسلاكا شائكة، زرقاء باهتة، مدبّبة النّهايات، حادّة، حزيزة، ولم يسلم منها سوى الباب الّذي انتزعت ضلفته القديمة، واستبدلت بأخرى سوداء اللّون، متينة الصّنعة، سميكة، تكفي مجرّد رؤيتها لبثّ الرّعب في نفس أكبر اللّصوص احترافا في كامل أمريكا الجديدة وكندا، وأروبّا الشّماليّة وتركيّة وآسيا الوسطى. ورغم ذلك، فقد تطلّب منّي الموقف الجديد وقتا إضافيّا، لا أدري كم مدّته، كي أعيه تمام الوعي، وقبل أن ينبت في أعماقي ذلك الخوف الرّهيب الّذي سيصاحبني حتّى بعد أن تنتهي كلّ هذه القضيّة الطّارئة على أهون سبيل. (ولذلك قصّة أخرى أنا ذاكرها لكم بعد قليل!)... قلت إنّه خلال ذلك الوقت الإضافيّ الّذي تطلّبه الموقف لإدراكه، استجمعت أشلاء شجاعتي الباقية، وتقدّمت بخطى ثقيلة حتّى بلغت أطراف السّور، فنظرت خلل فرجاته الصّغيرة إلى الشّارع الممتدّ أمامي في حزن، وقد كسته أكوام الثّلج، وبلّلته قطرات الرّذاذ الّتي كانت تنزل، في ذلك الصّباح، منعشة حيّية. فلم أتمالك أن انصعقت، وندّت عن شفتيّ آهة ألم كدت ألفظ معها صرخة مكتومة، لولا أن شددت على فمي بقبضة يدي كي

أختنقها خشية أن يكون هناك من يتجسّس عليّ في الجوار... يا إلهي، ما كلّ هذا الحشد من الجنود؟ وهذه السّيّارات؟ ما كلّ هذه الكلاب الرّهيبة المريعة؟ وما كلّ هذا السّلاح؟ وما هذه الدّبّابة الوحيدة القائمة في نهاية الرّكن الأيسر من السّور؟ حقيقة، لم أستطع أن أستوعب كلّ ما يجري أمام عينيّ؛ واعتقدت للوهلة الأولى أنّها إحدى محاولات الجيش الجمهوريّ الإرلنديّ، إلاّ أنّني عدت لأستطرد، بيني وبين نفسي، واستنادا إلى أحداث وتجارب سابقة، أنّه لم تحدث صدامات مباشرة بين البوليس والجيش، وإنّما هي محاولة جريئة من أفراد الكومندوس الشّجعان يسقطون على إثرها عمارة أو يضرمون النّار في أحد المطاعم، ثمّ يأتي رجال المطافئ ليطفئوا النّيران، وأعضاء جمعيّة حقوق الإنسان العالميّة ليذرفوا بعض الدّموع السّخينة على ضياع حقوق الإنسان في عالم بلا إنسانيّة، ثمّ يأتي أخيرا أولئك الأشخاص ذوي الشّوارب الّتي صارت قصيرة تماشيا مع أحدث تقليعات الموضة ليعزفوا نشيد الإمبراطوريّة المنهارة، وليغضّوا الطّرف عمّا حدث بكلّ محبّة وأخوّة... فمن المجرم إذن؟ وما جريمته؟ وهل يعني وجود هذه التّرسانة الجبّارة المنتصبة أمام بيتي أنّي أنا المقصود بالذّات؟ ولكن، ماذا فعلت؟... ماذا فعلت سوى أنّي رفعت صوتي، بنفس المحبّة والأخوّة اللّتين يبدونهما في ظروف مناقضة، لأقول: «أوقفوا هذه المهزلة... أوقفوا هذا الصّخب العنصريّ!»... كانت فيالق الجنود تمتدّ على جانبي الشّارع الطّويل المسفلت، تفصل بين كلّ جنديّ وآخر

مسافة معلومة قدّرت أنّها لا تتجاوز التّسعين مترا، وقد تبلغ المائة متر، في أقصى تقدير؛ وقد عجبت آنذاك غاية العجب للهيئة المنفّرة لتلك الحشود العسكريّة الّتي كانت تحاصر البيت، وتحاصرني داخله... الخوذات الإسطوانيّة السّوداء، تتوسّطها النّجمة المذهبّة، الأقنعة المضادّة للغازات، الدّرق المعدنيّة، الحلل المهيبة بكامل زينتها، الأحذية الضّخمة الّتي تحدث قعقعة عاتية كلّما داست بثقلها على الأرض الشّتويّة النّائمة المستكنّة، وتلك العصيّ القصيرة المرنة، الّتي ما تكاد تنهال على الجسد حتّى تحدث فيه قشعريرة أشبه بلسعة الكهرباء.

ورغم ذلك كلّه، لم أحفل كثيرا بما رأيت، ودأبت على الخروج كعادتي متناسيا خوفي الّذي بدأ يمتزج برغبة لا تقاوم في التّقيّؤ؛ ورغم أنّني كنت حريصا أن لا ألتفت، وألقي ببصري إلى يمين أو شمال، فقد كنت أحسّ إحساسا باطنيّا أنّ عيون أولئك الجنود المطلّة من وراء أقنعتها العتيدة كانت تلتهمني التهاما، في نفس الوقت الّذي كنت أسمع فيه متوجّسا هرير تلك الكلاب الشّرسة... ولم يخطر ببالي أبدا أنّ نفس تلك الكلاب غدت مدرّبة تماما على الهجوم كلّما طالعتها في الشّارع صاعدا أو نازلا، ولم يكن يمنعها من الانقضاض عليّ سوى تأجيل القرار بالهجوم إلى أجل غير مسمّى... وذات يوم، وبينما كنت راجعا إلى البيت حوالي السّاعة الرّابعة بعد الظّهر، لم أنتبه إلاّ على أصوات جلبة، تخيّلت أنّها آتية من كلّ الجهات الأربع، وما إن رفعت رأسي لأتبيّن هذا الخطب

الدّاهم حتّى كانت الكلاب، كلّ الكلاب، على مرمى حجر منّي، تحيط بي إحاطة لا فكاك من النّفوذ منها... كان أوّل شيء خطر ببالي، حينئذ، قبل الصّراخ، وآهة الألم، وقبل الدّهشة والإحساس السّادر بالهلاك ودنوّ الأجل، طيف مدينتي! بلى، طيف مدينتي، تلك البعيدة، بشوارعها، وأزقّتها، ونواصيها، وحواريها، ومقاهيها، وميادينها، وأرباضها، ثمّ كان الشّعور الّذي تملّكني، بعد ذلك، وبعنف، لا سبيل إلى مقاومته، أنّه إذا نهشت لحمي هذه الكلاب الأجنبيّة المهجّنة، واستحلت إلى مزق وأشلاء، أكون قد قضيت غريبا... وحيدا... مستوحشا.

تهالكت بإعياء، على الأرض، بعد أن فقدت كلّ سيطرة على مشاعري، وخانتني ساقاي اللّتان أحسست كأنّ صلبا محمّى بدأ يسري بدل الدّم فيهما، وأغمضت عينيّ دون إرادة منّي، وارتسمت على شفتيّ . خطأ . آثار ابتسامة مسكينة، جامدة، فيها من الدّهشة والتّبلّد أضعاف ما فيها من الألم والفزع... انكمشت في مكاني كقوقعة، يداي متصالبتان ومشدودتان إلى صدري، ورجلاي متداخلتان مطويّتان، وقد لامستا رأسي الّذي اندسّ بينهما وبين يديّ عفوا؛ وعبرت في ذهني أثناء لحظات قصيرة جدّا، خلتها كلمع برق خلّب، صورتي في هذا المكان بالّذات والكلاب قائمة فوقي، قد انهالت عليّ بأنيابها الحادّة، وأشداقها القويّة، نهشا وقضما وتمزيقا، من الرّأس إلى أخمص القدمين، مرورا بالرّقبة والكتفين، والصّدر والبطن، وقد اندلقت منها الأحشاء خضراء بلون الطّحالب البحريّة في قاع المحيط الإطلنطيّ؛ وقد كان استحضار هذه

الصّورة مرّتين في غضون لحظتين متقاربتين كافيا أن يجعلني أزداد انكماشا. لا كقوقعة على رمال الشّاطئ هذه المرّة. ولكن كقنفد مستوحش شعر باقتراب الأفعى السّامّة المرقّطة منه، واستعدادها للانقضاض عليه... كنت أحسّ أنّي أريد أن أفعل كلّ شيء... أيّ شيء، ولو كان ذلك الاندفاع بمحض إرادتي إلى حتفي ما دام الموت قدرا محتوما لا محيد عنه. بأن أرمي بنفسي بين تلك الكلاب الّتي لا بدّ أنّهم قاموا بتجويعها أيّاما استعدادا لهذه الحفلة المرتقبة... كنت أحسّ أنّي أريد أن أفعل أيّ شيء؛ ولكن. للأسف. لم أكن في الحقيقة قادرا على فعل أيّ شيء؛ والشّيء الوحيد الّذي وجدتني أفكّر فيه، وأنفّذه فورا دون وجل أو تقزّز، أن ألفيتني أتذكّر. ولا أدري لماذا. عالم «أوزوريس» الخالد تحت الأرض، وسرّ الأرواح داخل حدود البرزخ، وسانت «أوغسطين»، و «توماس أكيناس»، ورحلة «المتنبّي» إلى مصر، وموت «بشّار»، وخمريّات «أبي نواس»، و «جميل بثينة»، والمعلّقات السّبع، وقصيدة «محمود درويش»... قرأتها... عفوا، استحضرتها كاملة عن ظهر قلب، ودون أن يطرف لي جفن رغم إحساسي الباطنيّ المتفاقم بنهايتي المنتظرة بمخالب الكلاب.

«يجيئون
أبوابنا البحر، فاجأنا مطر. لا إله سوى الله، فاجأنا
مطر ورصاص. هنا الأرض سجّادة، والحقائب غربه!
يجيئون،
فلتترجّل كواكب تأتي بلا موعد. والظّهور الّتي

استندت للخناجر مضطرّة للسّقوط.
وماذا حدث؟
أنت لا تعرف اليوم. لا لون. لا صوت. لا طعم.
لا شكل.. يولد سرحان، يكبر سرحان،
يشرب خمرا ويسكر. يرسم قاتله، ويمزّق
صورته. ثمّ يقتله حين يأخذ شكلا أخيرا.
ويرتاح سرحان.
سرحان هل أنت قاتل؟
ويكتب سرحان شيئا على كمّ معطفه، ثمّ تهرب
ذاكرة من ملفّ الجريمة.. تهرب.. تأخذ
منقار طائر.
وتأكل حبّة قمح بمرج بن عامر.
وسرحان متّهم بالسّكوت، وسرحان قاتل.

• • •

وما كان حبّا
يدان تقولان شيئا، وتنطفئان.
قبور تلد
سجون تلد
مناف تلد
ونلتفّ باسمك،
ما كان حبّا
يدان تقولان شيئا.. وتنطفئان..

ونعرف، كنّا شعوبا، وصرنا حجاره
ونعرف، كنت بلادا وصرت دخان
ونعرف أشياء أكثر
نعرف، لكنّ كلّ القيود القديمه
تصير أساور ورد
تصير بكاره
في المنافي الجديده.
ونلتفّ باسمك
ما كان حبّا
يدان تقولان شيئا وتنطفئان.
وسرحان يكذب حين يقول رضعت حليبك، سرحان
من نسل تذكرة، وتربّى بمطبخ باخرة لم تلامس
مياهك. ما اسمك؟
.نسيت.
وما اسم أبيك؟
.نسيت.
وأمّك؟
.نسيت.
وهل نمت أمس؟
.لقد نمت دهرا.
حلمت؟
.كثيرا.
بماذا؟

.بأشياء لم أرها في حياتي
وصاح بهم فجأة:
.لماذا أكلتم خضارا مهرّبة من حقول أريحا؟
.لماذا شربتم زيوتا مهرّبة من جراح المسيح؟
وسرحان متّهم بالشّذوذ عن القاعده.

• • •

رأينا أصابعه تستغيث. وكان يقيس السّماء بأغلاله.
زرقة البحر يزجرها الشّرطيّ، يعاونه خادم آسيويّ.
بلاد تغيّر سكّانها، والنّجوم حصى.
وكان يغنّي: مضى جيلنا وانقضى.
مضى جيلنا وانقضى.
وتناسل فيها الغزاة تكاثر فيها الطّغاة. دم كالمياه،
وليس تجفّفه غير سورة عمّ وقبّعة الشّرطيّ
وخادمه الآسيويّ. وكان يقيس الزّمان بأغلاله.
سألناه: سرحان عمّ تساءلت؟
قالوا: اذهبوا. فذهبنا
إلى الأمّهات اللّواتي تزوّجنا أعداءنا.
وكنّ ينادين شيئا شبيها بأسمائنا.
فيأتي الصّدى حرسا.
ينادين قمحا.
فيأتي الصّدى حرسا.
ينادين عدلا.

فيأتي الصّدى حرسا.
ينادين يافا
فيأتي الصّدى حرسا.
ومن يومها، كفّت الأمّهات عن الصّلوات، وصرنا
نقيس السّماء بأغلالنا
وسرحان يضحك في مطبخ الباخره.
يعانق سائحة، والطّريق بعيد عن القدس والنّاصره.
وسرحان متّهم بالضّياع وبالعدميّه.

• • •

وكلّ البلاد بعيده..
شوارع أخرى اختفت من مدينته (أخبرته الأغاني
وعزلته ليلة العيد أنّ له غرفة في مكان).
ورائحة البنّ جغرافيا.
وما شرّدوك.. وما قتلوك.
أبوك احتمى بالنّصوص، وجاء اللّصوص.
ولست شريدا.. ولست شهيدا.. وأمّك باعت
ضفائرها للسّنابل والأمنيات: (وفوق سواعدنا
فارس لا يسلّم (وشم عميق). وفوق أصابعنا
كرمة لا تهاجر (وشم عميق).
خطى الشّهداء تبيد الغزاة
(نشيد قديم)
ونافذتان على البحريا وطني تحذفان المنافي.. وأرجع

(حلم قديم. جديد)
شوارع أخرى اختفت من مدينته (أخبرته الأغاني
وعزلته ليلة العيد أنّ له غرفة في مكان).
ورائحة البنّ جغرافيا.
ورائحة البنّ يد
ورائحة البنّ صوت ينادي.. ويأخذ..
رائحة البنّ صوت ومئذنة (ذات يوم تعود).
ورائحة البنّ ناي تزغرد فيه مياه المزاريب. ينكمش
الماء يوما ويبقى الصّدى.
وسرحان يحمل أرصفة ونوادي ومكتب حجز التّذاكر.
سرحان يعرف أكثر من لغة وفتاة. ويحمل تأشيرة
لدخول المحيط وتأشيرة للخروج. ولكنّ سرحان
قطرة دم تفتّش عن جبهة نزفها.. وسرحان
قطرة دم تفتّش عن جبهة نسيتها.. وأين؟
ولست شريدا.. ولست شهيدا.
ورائحة البنّ جغرافيا.
وسرحان يشرب قهوته..
ويضيع.

• • •

هنا القدس.
يا امرأة من حليب البلابل، كيف أعانق ظلّي..
وأبقى؟

خلقت هنا. وتنام هناك.
مدينته لا تنام. وأسماؤها لا تدوم. بيوت تغيّر
سكّانها. والنّجوم حصى.
وخمس نوافذ أخرى، عشر نوافذ أخرى تغادر
حائط
وتسكن ذاكرة.. والسّفينة تمضي.
وسرحان يرسم شكلا ويحذفه: طائرات وربّ قديم
ونابالم يحرق وجها ونافذة.. ويؤلّف دوله.
هنا القدس.
يا امرأة من حليب البلابل، كيف أعانق ظلّي..
وأبقى؟
ولا ظلّ للغرباء
مساء يرافقهم، والمساء بعيد عن الأمّهات قريب من
الذّكريات. وسرحان لا يقرأ الصّحف العربيّة..
لا يعرف المهرجانات والتّوصيات. فكيف إذن
جاءه الحزن.. كيف تقيّأ؟
وما القدس والمدن الضّائعه
سوى ناقة تمتطيها البداوة
إلى السّلطة الجائعه.
وما القدس والمدن الضّائعه
سوى منبر للخطابه.
ومستودع للكآبه.
وما القدس إلاّ زجاجة خمر وصندوق تبغ..

.. ولكنّها وطني.
من الصّعب أن تعزلوا
عصير الفواكه عن كريّات دمي..
ولكنّها وطني.
من الصّعب أن تجدوا فارقا واحدا
بين حقل الذّره
وبين تجاعيد كفّي
ولكنّها وطني..
لا فوارق بين المساء الّذي يسكن الذّاكره
وبين المساء الّذي يسكن الكرملا
ولكنّها وطني.
في الحقيقة والدّم متّسع للجميع.
وخطّ الطّباشير لا يكسر المطر المقبلا
هنا القدس..
كيف تعانق حرّيتي . في الأغاني . عبوديّتي؟
وسرحان يرسم صدرا ويسكنه
وسرحان يبكي بلا ثمن ووسام
ويشرب قهوته.. ويضيع.

• • •

يمزّق غيما، ويرسله في اتّجاه الرّياح. وماذا؟ هنالك
غيم شديد الخصوبة. لا بدّ من تربة صالحه.
أتذهب صيحاتنا عبثا؟

أكلت.. شربت.. ونمت. حلمت كثيرا. أفقت
تعلّمت تصريف فعل جديد. هل الفعل معنى بآنية
الصّوت.. أم حركه؟
وتكتب ض . ظ . ق . ص . ع . وتهرب منها، لأنّ
هدير المحيطات فيها ولا شيء فيها. ضجيج الفراغ
حروف تميّزنا عن سوانا . طلعنا عليهم طلوع
المنون . فكانوا هباء وكانوا سدى. سدى نحن.
هم يحرثون طفولتنا ويصكّون أسلحة من أساطير
أعلامهم لا تغنّي. وأعلامنا تجهض الرّعد. نقصفهم بالحروف
السّمينة: ض . ظ . ص . ق . ع . ثمّ نقول انتصرنا. وما
الأرض؟ ما قيمة الأرض؟ أتربة ووحول. نقاتل أو لا نقاتل؟
ليس مهمّا سؤالك ما دامت الثّورة العربيّة محفوظة في الأناشيد
والعيد والبنك والبرلمان.
وتعرف أنّ الغزاة عصيّ بأيدي المماليك. تكتب
ض . ظ . ق . ص . ع .
تمزّق غيما وترسله في اتّجاه الرّياح. وماذا؟ هنالك
غيم شديد الخصوبة. لا بدّ من تربة صالحه.
وتمضي السّفينة. تبقى غريبا. جراحك مطبعة للبلاغات
والتّوصيات. وباسمك تنتصر الأبجديّة. باسمك
يجلس عيسى إلى مكتب ويوقّع صفقة خمر وأقمشة

ويحيّ العساكر باسمك. باسمك تحفظ في خيمة
وتعلّب في خيمة. لا هويّة إلاّ الخيام. إذا
احترقت.. ضاع منك الوطن.
وباسمك تأتي وتذهب. باسمك حطّين تصبح مزرعة
للحشيش، وثوّارك السّابقون سعاة بريد. وباسمك
لا شيء. يأتي القضاة، يقولون للطّين كن جبلا
شامخا فيكون. يقولون للتّرعة انتفخي أنهرا فتكون
وتكتب ض . ظ . ص . ع . ق
تمزّق غيما وترسله في اتّجاه الرّياح. وماذا؟
هنالك غيم شديد الخصوبة. لا بدّ من تربة صالحه
أتذهب صيحاتنا عبثا؟
وليست خيامك ورد الرّماح. وليست مظلاّت شاطئ.
تدجّج بأعمدة الخيمة. احترقي يا هويّتنا . صاح لاجئ.
وسرحان يشرب قهوته. للجليل مزايا كثيره.
ويحلم، يحلم، يحلم.. آه . الجليل!

• • •

ومن كفّ يوما عن الاحتراق
أعار أصابعه للضّماد
وصرّح للصحفيّ وللعدسات:
جريح أنا يا رفاق
ونال وساما.. وعاد.
وسرحان،

ما قال جرحي قنديل زيت وما قال..
صدري شبّاك بيت وما قال..
جلدي سجّادة للوطن.
وما قال شيئا.
أتذهب صيحاتنا عبثا؟
كلّ يوم نموت، وتحترق الخطوات وتولد عنقاء
ناقصة، ثمّ نحيا لنقتل ثانية.
يا بلادي، نجيئك أسرى وقتلى.
وسرحان كان أسير الحروب، وكان أسير السّلام.
على حائط السّبي يقرأ أنباء ثورته خلف ساق مغنيّة
والحياة طبيعيّة، والخضار مهربّة من جباه العبيد
إلى الخطباء. وما الفرق بين الحجارة والشّهداء؟
وسرحان كان طعام الحروب، وكان طعام السّلام.
على حائط السّبي تعرض جثّته للمزاد. وفي المهجر
العربيّ يقولون: ما الفرق بين الغزاة وبين الطّغاة؟
وسرحان كان قتيل الحروب، وكان قتيل السّلام.
على حائط السّبي يصطدم العلم الوطنيّ بأحذية الحرس
الملكيّ. وحربك حربان. حربك حربان.
سرحان! لا شيء يبقى، ولا شيء يمضي. اغتربت..
لجأت.. عرفت. ولست شريدا ولست شهيدا
خيامك طارت شراره.
وفي الرّيح متّسع
هل قتلت؟

ويسكت سرحان. يشرب قهوته ويضيع. ويرسم
خارطة لا حدود لها. ويقيس الحقول بأغلاله
.هل قتلت؟
وسرحان لا يتكلّم. يرسم صورة قاتله من جديد
يمزّقها، ثمّ يقتلها حين تأخذ شكلا أخيرا..
.قتلت؟
ويكتب سرحان شيئا على كمّ معطفه، ثمّ تهرب
ذاكرة من ملفّ الجريمة.. تهرب.. تأخذ منقار
طائر
وتزرع قطرة دمّ بمرج بن عامر. [٣]

كنت أقدّر، وبحدس أبعد ما يكون عن المنطق والعقل، أنّ المسافة المتبقيّة بيني وبين أن أسلم الرّوح بالكاد تكفي لاستحضار كلّ القصيدة... وحتّى اليوم، وبعد أن مرّ على تلك الأحداث المريرة نيّف وثلاثون شهرا، مازلت لا أفهم تحديدا سرّ انشدادي إلى تلك القصيدة بالذّات، ولماذا خطرت ببالي مملكة العروض والإيقاع والصّورة، وعالم الشّعر السّحريّ، في تلك اللّحظات العسيرة، في حين أنّ المشهد كان موغلا في نثريّته، لا يتطلّب منّي سوى تلك النّظرة المليئة بالرّعب، وتجمّد الشّفتين على آهة الألم، والإحساس الكلّيّ بالانتفاء والعدميّة. كانت المسافة، في نظري، قصيرة... قصيرة جدّا، ومشحونة

٣ محمود درويش. المجلّد الأوّل (الأعمال الشّعريّة الكاملة): «سرحان يشرب القهوة في الكافيتيريا».

بالانفعالات والاحتمالات، لذلك ما إن أتيت على آخر كلمات القصيدة، وأوصدت باب القلب ونوافذه الاثنتين والعشرين الّتي تفتح مباشرة على كلّ الأصوات واللّهجات الآتية من وراء الصّحراء، حتّى اندفعت في هجوم يائس مسعور، رافعا يدي اليمنى، متّخذا اليسرى كغطاء لوجهي اتّقاء لتمزيق ناب أو نهشة مخلب... في هذه اللّحظة بالذّات، ليس قبلها ولا بعدها، إنّما سمعت تلك الجملة الآمرة، الّتي لم تصدّقها أذناي للوهلة الأولى، في غمرة الاضطراب واليأس:

.توقّفي، أيّتها الكلاب!

عندما فتحت عينيّ وأنا جاث على ركبتيّ كصنم مهمل في معبد بلا مذبح، رأيت الكلاب تنسحب في سرعة مذهلة، وقد وقر في عقلي الباطن أنّ تكشيراتها المميتة قد تحوّلت إلى ضحكات قويّة مجلجلة ساخرة، أطبقت الآفاق، وسدّت ما بين السّماء والأرض.

تناهى إليّ صوت محايد ذو رنين يقول:

.هذا تحذير فقط، والقادم أخطر!

ولكنّي تفاديت الأخطر بلزوم بيتي، والاستسلام للعزلة... أغلقت باب السّور بالمفتاح الّذي أدرته ثلاث مرّات في الأكرة، وأغلقت جميع النّوافذ في البيت، وأتيت بكلّ السّتائر الّتي كانت من قبل ملقاة بإهمال هنا وهناك، فشددتها بإحكام في أماكنها الملائمة، ثمّ أغلقت الباب الّذي دعّمته بعشر دعامات!!... وأطفأت الأنوار، حتّى غدا المكان معتما، يضوع

برائحة الظّلمة والسّواد.

انحشرت داخل البيت كحشرة، دون أن أكون على وعي تامّ بما يمكن أن أفعله في متاهتي الجديدة فيما سيأتي من أيّام، (ولا بدّ أنّها ستكون أيّام حزن وشدّة عصيبين)؛ غير أنّ هذا لا يعني أنّي طرحت جانبا جميع الاحتمالات، ولم أفكّر، على الأقلّ في لحظات البلاء والأرق، في طريقة إن لم تكن ناجعة للخلاص، فلا أقلّ من أن تبثّ في نفسي ولو قليلا من الهدوء وراحة البال... ولقد صمّمت أن أواظب على مراسلة الجريدة، هنا في لندن، رغم الحصار المفروض، ثمّ ما لبثت أن اكتشفت استحالة هذا الأمر، حيث نسيت للحظة أنّي فصلت من عملي، وقد أبلغت القرار بالبريد السّريع؛ ثمّ لنفرض مثلا أنّي مازلت مزاولا، فكيف سيتسنّى لي إرسال مقالاتي إلى الجريدة، وقد ضربت حول بيتي ترسانة عسكريّة، تكفي لنسف ثلاث دول في إفريقيا الوسطى، وفي ظرف لا يتعدّى أربعا وعشرين ساعة على أقصى تقدير... ثمّ اهتديت، في خضمّ السّكون السّاجي وفيض الإلهام الّذي كان يلمّ بي من حين لآخر، إلى القراءة ومطالعة عشرات الكتب الّتي كنت أحتفظ بها في كلّ ركن من أركان البيت، وفي أكثر الأماكن بعدا عن التّوقّعات، حيث كنت ألقي ببعضها في «التّواليت»، وببعضها الآخر في سلّة المهملات، والمخزن تحت أرضيّة غرفة المطبخ. ولعلّ المشكلة، في بداية الأمر، أنّي لم أكن أستطيع إضاءة النّور لطرد حشود الظّلام الّتي كانت ترين على المكان؛ وقد أشفيت خلال لحظات على حافّة اليأس، غير أنّ ذلك لم يكن يمنعني

من القيام بمحاولة (ولو كانت محاولة أخيرة يائسة)... وما كان أشدّ دهشتي وانصعاقي حين تهالكت على أريكة في غرفة الاستقبال، وتناولت كتابا من أحد رفوف المكتبة ورائي... أذكر الآن أنّه كان كتاب «الكوميديا الإلهيّة» لـ «دانتي»، وما إن فتحت صفحاته الأولى حتّى راحت كلماته الّتي كنت أراها، وبوضوح شديد رغم حلكة الظّلمة وكثافة السّواد، تنطبع في ذاكرتي، وبسرعة وجلاء عجيبين... فركت عينيّ، وعدت أفركهما من جديد، غير مصدّق لما يحدث، إلاّ أنّني في كلّ مرّة، كنت أفاجأ بنفاذ بصيرتي إلى خبايا الكتابة وأسرارها... لقد غدت القراءة عزائي الوحيد، لم أدّخر جهدا في استغلالها، حيث كنت آتي في اليوم الواحد على عشرات الكتب، حتّى بدأت أفقد . شيئا فشيئا . إحساسي الواقعيّ بالزّمن، وكان ممّا سارع بفقدانه وتلاشيه هذه الظّلمة المطبقة الّتي كنت أحسّ بها في كلّ مكان من حولي، حتّى إنّني صرت أشعر بها أشدّ كثافة في أعماقي... ورغم عدم احتفالي بعامل الزّمن، فقد كان يتسلّل . في غفلة منّي . ويفعل فعله في هيئتي ومظهري، فقد طال شعري، ونبت على عارضيّ، وكادت لحيتي تبلغ سرّتي، ونمت أظافري... إنّي لا أذكر كم استمرّ كلّ ذلك، ولا أدري كيف استطعت الصّمود خلال تلك المدّة دون أن تطرأ عليّ آثار الشّيخوخة المفضية إلى الموت... لم أكن أطعم، ولا أشرب، ومع ذلك لم أمت من الجوع أو العطش... لقد كنت أستشعر الجوع، فتملأ خياشيمي رائحة الطّعام، وتغمر فمي روائح شتّى، وأجد أسناني تطحن كلّ ما أعرفه وما لا أعرفه

من صنوف الأطعمة، وما أكاد أنقطع عن التّفكير في مشكلة الجوع حتّى أحسّ بمعدتي قد أتخمت وامتلأت... ويعتريني الظّمأ، وأغمض عينيّ لاهثا من الألم، فلا ألبث أن أصحو على رائحة العسل في فمي، وتظلّ تلك الرّائحة حتّى تهفو نفسي إلى شيء آخر سرعان ما أجد ريحه في حلقي... لقد كنت أستمرئ في عزلتي كلّ شيء، وأشرب ما يروقني، حتّى إنّني صحوت ذات يوم فوجدت رائحة الخمر في فمي!!

وكان ذلك اليوم الّذي لن أنساه ما حييت، وكانت المفاجأة الّتي حلّت عقدة لساني، وجعلتني أنطق بعد أن فقدت ملكة الكلام... لست أعرف الآن أيّ يوم بالتّحديد، ولكنّي سأظلّ أذكره بظهور تلك المرأة، وأيّ امرأة هي! شابّة مليحة، لم أرقبلها ولا بعدها مثلها، غربيّة القسمات، شرقيّة الشّذى، انجلت الظّلمة بغتة لظهورها، وانسحب السّواد كاسف البال... وقد ازدحمت بداخلي أسئلة كثيرة: من أين جاءت، وما هناك مكان في هذه المتاهة الجديدة إلاّ وأحكمت إغلاقه؟ ومن ألقى بها في دائرة رؤيتي؟ وكيف؟ وهل أنا في يقظة أم منام؟... ورغم كلّ تلك الحيرة، واللّهفة إلى المعرفة، فإنّ عزلتي الاضطراريّة لم تضع على لساني سوى هذا السّؤال المسكين الخجول الّذي كان أقرب إلى ربط علاقة منه إلى استفسار:

.هل أنت إنسيّة أم جنيّة؟

فقالت، وقد انطلق صوتها عذبا سلسبيلا، مشوبا بضحكة رنّانة:

.بل إنسيّة.

ولم تزد... وراحت تعيد البيت إلى هيئته الأولى الّتي كان عليها منذ زمن لم أعد أذكره، فأضاءت الأنوار من جديد، ونظّفت الأثاث بمنفضة من ريش النّعام، وفتحت الباب بعد أن أزاحت الدّعامات، وأماطت السّتائر، وفتحت النّوافذ... انبهرت عيناي لمنظر الضّوء، فغطّيتهما براحتي، وطفقت أفتحهما ببطء، حتّى تمكّنت من الاستئناس بالأنوار الّتي كانت تمتزج في عذوبة مع ضوء النّهار.

قالت لي تلك المرأة الّتي لم تذكر لي اسمها، وقد لاحظت عدم رغبتها في ذكره، فلم أسألها عنه، ولم ألحّ عليها في ذلك:

.أنا السّيّدة الخادمة.

وعرّجت على المطبخ، وقامت بتجهيز مأدبة لم تر عيناي مثلها، رغم أنّي تذكّرت أنّ المطبخ لم يكن يحوي شيئا من لوازم الطّعام وعدّته. وقد أوشكت أن أسألها من أين جاءت بكلّ ذلك، إلاّ أنّني تراجعت، حيث كانت تلقمني الطّعام بيديها العاجيّتين دون أن تدع لي فرصة للكلام.

وانقطعت أخيرا تلك الرّوائح الشّذّية الطّيّبة الّتي كنت أجد ريحها في فمي!

وبعد المأدبة، وفي ساعة بين الظّهروالعصر، أخذت بيدي، وأرادت أن تقودني إلى الحمّام. قالت:

.أحلق شعرك وذقنك وأقلّم أظافرك.

فقلت ببساطة أقرب إلى البلاهة:

.دعيني كما أنا، فلديّ إحساس بأنّي صرت واحدا من أهل الكهف.

فقالت في دهشة بدت في امتداد عينيها الزّرقاوين:

.ومن أهل الكهف؟

قلت، وأنا أنظر إليها ولا أراها:

.أنا وهذه الكتب الّتي أمامك!!

بعد أيّام من مجيئها، ومغمورا بالأريحيّة والنّشاط اللّذين أسبغهما عليّ وجودها بجانبي، بدأت أفكّر جادّا في إعادة صلتي بزملائي الّذين تعرّفت إليهم داخل المملكة وخارجها... كنت أجلس السّاعات الطّوال إلى النّضد الصّغيرذي القاعدة الزّجاجيّة في غرفة المعيشة، وأنا أكتب رسائل كنت أضعها في ظروف خاصّة بعد أن أكتب على ظهرها عناوين من أعرفهم من أصدقائي وأصحابي. وتطوّعت هي... بلى، هي نفس تلك المرأة الشّابّة الّتي اقتحمت عليّ عزلتي في ساعة حسن طالع: تطّوعت بنقلها إلى مركز البريد. وقد استغربت آنذاك بل اعتبرت اقتحام ذلك الحصار المضروب حول بيتي ضربا من العبث، وصارحتها بذلك جادّا، ولكنّها كانت تكتفي بابتسامة غامضة ترسمها على شفتيها الرّقيقتين كلّما ذكّرتها باستحالة مسعاها، وتأخذ الرّسائل، وتختفي فجأة، ولا تعود إلاّ وقد أنجزت مهمّتها على أحسن وجه. وأسألها:

.كيف تمكّنت من مغالطة أولئك الجنود وكلابهم؟

فترسم نفس تلك الابتسامة الغامضة على شفتيها، ولا تقول شيئا!!

لا أنكر أنّني كنت . في البداية . أشكّ فيها، وقد كنت أطالعها دائما بنظرة مشاكسة فيها ريبة وعدم تصديق، غير أنّ وصول

الرّسالة الأولى في غضون أسابيع جعلني أتراجع قليلا، وأطمئنّ إليها بعض الاطمئنان... أقول بعض الاطمئنان لأنّ الرّسالة كانت رسالتي، وعليها ختم البريد، وملاحظة بالإنجليزيّة تقول: الرّجاء التّأكّد من صحّة العنوان قبل إرسال الخطاب... وجاءت الرّسائل، بعد ذلك، تترى، وما منها رسالة إلاّ وهي أغرب من سابقتها... بعض الرّسائل كانت خلوا من العنوان، وعند فتحها لا أجد بها سوى وريقات بيضاء، لا أثر فيها لكتابة، أو ما يشبه الكتابة... وبعض الرّسائل الأخرى كانت تصلني من أشخاص لم أسمع بأسمائهم قطّ... وبعض الرّسائل كنت أفتحها فأجدها مصدّرة بعبارات مثل: «صاحب السّيادة»... «صاحب الفخامة»... «معالي الوزير المبجّل»... «سيّدي اللّورد أدام اللّه بقاءه»... كلّ ذلك جعلني أزداد شكّا في أمر صاحبتي، حتّى لقد ظننت أنّها موكلة بمراقبتي، وقد تأكّدت ظنوني حين فاجأتني ذات يوم وهي تقول مطأطئة الرّأس:

.سامحني، لقد ابتاعوا ضميري وتمكّنوا من رشوتي.

فسألتها متبالها:

.ماذا تقصدين؟

أجابت وهي ما تزال مطأطئة الرّأس:

.إنّي موكلة بالتّجسّس عليك.

قلت:

.لحساب من؟

قالت:

.أنت تعرف.

قلت:

. فلماذا تعترفين، وقد كان بإمكانك أن تؤدّي مهمّتك بنجاح؟

فقالت، وقد رفعت رأسها هذه المرّة، فبدت الزّرقة أكثر وضوحا في امتداد عينيها:

. أظنّ أنّ شيئا كهذا لا يمكن أن يخفى على صحفيّ مثلك.

قلت:

. أريد أن أعرف منك أنت.

قالت بجرأة وثبات:

. إنّه الحبّ.

وفي اللّيل، بعد أن أطفأت جميع الأنوار داخل البيت، وأويت إلى فراشي، أحسست، وأنا في أواخر خترفة اليقظة وبداية الولوج إلى عالم النّوم، كأنّ المفتاح قد دار في الأكرة، وحفيف خطوات بطيئة متأنيّة ما تفتأ تقترب من السّرير، ثمّ شعرت كأنّ شيئا استقرّ بجانبي، وراح يدنو منّي شيئا فشيئا حتّى التصق بي أخيرا... ارتددت إلى الخلف بحركة لاشعوريّة، وضغطّت على زرّ الأباجورة فوق الكومودينو، والتفتّ إلى الجهة المقابلة، فراعني ما رأيت... كانت هي صاحبتي، في غلالة شفيفة بلون الخمر، بالكاد تستر مفاتنها وتلك النّتوءات المغرية البارزة في جسدها... نكست رأسي... كانت أوّل امرأة أراها شبه عارية في حياتي؛ وقالت هي لتخلّصني من خجلي، ولتحدّ من أثر الصّدمة:

. هذه اللّيلة، أنا لك... وحدك.

ودنت منّي أكثر، فتأخّرت حتّى بلغت حافّة السّرير، وقد غامت عيناي فلم أعد أرى شيئا، وتشرشر صوتها فلم أعد أسمع منه سوى تموّجات كانت تخترق أذنيّ خلوا من كلّ معنى.

سمعتها تسألني:

.ما لك؟

فلم أجب.

وسألتني مرّة أخرى:

.لماذا كلّ هذا الخجل؟

ثمّ:

.هل أنت خائف؟

وفي وقت معيّن، ولج من كثافة الصّمت الّذي ران فجأة على المكان صوت... لم يكن ذاك صوتها، ولكن صوتا آخر يكتنفه هدوء عميق وطمأنينة لا تضارع يقول:

.على بركة اللّه، لقد زوّجناكها.

وكانت ليلة...

وفي الصّباح، كان السّرير كلّه غارقا في الدّماء، وبياض الشّراشف قد استحال إلى حمرة قانية؛ وصاحبتي عارية تماما، قد انغرست في صدرها سكّين عظيمة، وعلى وجهها .رغم جموده . ملامح هادئة طلقة، حتّى إنّه كانت ترفّ على شفتيها ابتسامة رائعة، تكتنفها الشّهوة اللاّمتناهية لأواخر اللّيل، وبدايات الفجر.

لم أدهش كثيرا... فما مرّ بي على امتداد الأيّام الماضية

جعلني أعتاد المفاجآت والألغاز الغريبة غير المحتملة، ولكن ما كان يشغلني فعلا هو كيف سأتخلّص من آثار الجريمة الشّنعاء... لو عثروا عليها . صاحبتي . هنا، لما اتّهموا أحدا غيري... أنا متأكّد أنّ القاتل شخص آخر، غير أنّهم لن يصدّقوني مهما حاولت، سيّما في ظروف كظروفي الرّاهنة.

عندما دقّت السّاعة الثّانية عشرة، كنت في طريقي إلى غرفة النّوم من جديد بعد أن جلبت فنجانا من القهوة... فتحت الباب ودخلت، ولمّا استقرّت نظراتي المشوّشة على السّرير، كانت الجثّة قد اختفت، والدّماء القانية الحمراء قد غدت بياضا مرّة أخرى.

طالعني صوت... ذلك الصّوت نفسه الّذي كنت سمعته في اللّيلة الماضية وهو يقول:

. لا تقلق.

فلم أقلق...

وجاءت النّساء بعد ذلك تباعا إلى البيت، لا أدري كيف، ولكنّهنّ كنّ يجئن على كلّ حال، بنفس الطّريقة الّتي جاءت بها صاحبتي المختفية من قبل؛ في الظّاهر كسيّدات خادمات، والحقيقة أنّهنّ كنّ يتجسّسن عليّ، لحساب أولئك الّذين يريدون تدمير أعصابي قبل المحاكمة الأخيرة... ورغم نقمتي عليهم، وكرهي لهم، فقد كنت أقدّر فيهم اختيارهم الّذي لا يخيب لهؤلاء النّسوة الفاتنات: الملامح الغربيّة والشّذى الشرقيّ الموغل في طيّات أربعة عشر قرنا... ولم تكن هؤلاء النّسوة أحسن حظّا من صاحبتي الأولى، فقد كان مصيرهنّ

متشابها، في الأغلب الأعمّ، باستثناء بعض التّفاصيل الّتي لا تهمّ كثيرا... عثرت على واحدة، ذات صباح، في غرفة المعيشة، وهي معلّقة في السّقف، قد مال رأسها على صدرها، وتصلّبت يداها ورجلاها... أخرى وجدتها طافية على حوض الاستحمام وهي بكامل ملابسها... وثالثة قد حزّ رأسها بسكّين المطبخ... ورابعة... وخامسة...

كنت أعرف سبب هذه النّهاية. قلت ذات مرّة أحدّث نفسي، وقد صرت لا أعبأ إطلاقا بما يحدث حولي:

.ازدواجيّة التّكوين هذه هي السّبب... قوّة الملامح، وضعف العاطفة، وقد أفرز الصّراع بينهما أزمة عميقة أفضت إلى الموت!!

وكان الصّوت يوافيني على إثر كلّ حالة وفاة، وبعد أن يكون قد خلّصني من آثار الجريمة، وهو يقول هادئا مطمئنّا:

.لا تقلق.

فلم أكن أقلق.

...وفي مساء أحد الأيّام، ولم يكن قد مضى سوى يوم وبعض يوم على اختفاء آخر جثّة من البيت، سمعت لغطا متواصلا داخل السّور، وجلبة عارمة صاخبة كانت تقترب من الباب الخارجيّ؛ وفي لحظة بعينها، وعلى حين فجأة، انطلقت عيارات ناريّة في الهواء، انهالت بعدها كعوب البنادق تحطّم الباب في عنف، ودخل بعض الجنود في كامل هيئتهم العسكريّة، ثمّ سرعان ما انتشروا في أركان غرفة المعيشة... ودخل بعدهم رجل غارق في البياض، لم أتبيّن ملامحه جيّدا، لكن بدا لي .

استنادا إلى حدس غير منطقيّ نابع من شعور عميق بمدى رثاثة مظهري، والإهمال الّذي كنت عليه. أنّه قد يكون حلاّقا. لذا لم أستغرب البتّة حين أمسكني من ذراعي وقادني بهدوء جرّاح أمضى ثلاثين عاما من عمره في تشريح الجثث بكلّ حزم وبرودة أعصاب... طاوعته... لم أبد أيّ مقاومة؛ وكنت بين يديه كحمل وديع مستعدّ للذّبح في كلّ لحظة. قام بحلق شعري، وتهذيب لحيتي، ثمّ قلّم أظافري؛ وقال لي مداعبا بعد أن أنهى عمله:

. إنّك تبدو أجمل من فارس في القرون الوسطى.

وخرج من باب غرفة الحمّام دون أن ينتظر ردّا أو تعليقا... وبعد خروجه بلحظات سمعت همهمة غير واضحة ووقع أقدام أخذت في الابتعاد شيئا فشيئا.

... في صباح اليوم التّالي، زارني جنديّان مسلّحان ورجل كانت تبدو عليه آثار المهابة والجلال، يحمل حقيبة دبلوماسيّة مزخرفة الحوافّ؛ وقد جمع إلى تلك المهابة والجلال أدبا جمّا، حيث قال وهو يبتسم ابتسامة حلوة غير متكلّفة:

. عمت صباحا.

غمغمت بردّ سريع غير واضح... ولكنّه لم يبال بذلك، وعاد يقول بنبرة تنمّ عن أنّه قد اعتبرني صديقا له، منذ اللّحظة الأولى الّتي دخل فيها البيت مع الجنديّين:

. أنا ممثّل الجمعيّة العالميّة لحقوق الإنسان.

انتابني ذهول، وأنا أسمع كلماته الأخيرة، وما لبثت أن سألت نفسي عن السّبب الّذي يدفع رجلا محترما كهذا الرّجل

إلى زيارة مسكين مثلي قد ظلّ مهملا طيلة أسابيع . أو هكذا يخيّل إليّ على الأقلّ . دون أن يتذكّره أحد... وقد قطع عليّ تساؤلي بقوله:

. لقد جئت موفدا إليك لأكتب عن حالتك تقريرا قبل المحاكمة.

كان الفضول هو الدّافع الوحيد الّذي حثّني على سؤاله حين قلت:

.ومن أوفدك؟

قال بكلّ بساطة، ودون أيّ إحساس بالخجل أو شعور بالذّنب:

.الضّابط «ع».

يا لكرمهم! إذن، هذا يفسّر كلّ شيء... هم يريدون أن يظهروا بمظهر المتحضّر... يريدون القول صراحة إنّهم أبرياء من دمي إذا قتلت، والشّاهد الوحيد على الجريمة جاء للحصول على دليل... ولكن ضدّي. يا لسخف القدر!!

قال:

.أراك في حال جيّدة...

أردت أن أجبهه بالحقيقة الفاضحة الّتي لا يعرفها أحد غيري، ولكنّي أحسست بشيء ثقيل يخزني في إليتي محدثا ألما مريعا... رفعت رأسي، واستدرت في مكاني قليلا، فطالعني منظر الجنديّ، وهو يخفي وحشيّته وراء ابتسامة باهتة، أراد أن يخدع بها الرّجل الجالس قبالتي، ولكنّها بدت لي امتدادا أكثر عنفا وموضوعيّة لألم الوخز.

قال:

. لاحظت عند دخولي أنّ باب البيت كان محطّما؛ فمن حطّمه؟

وفتح في الأثناء حقيبته، وأخذ قلما وبعض أوراق نشرها على منضدة أمامه، ونظر إليّ مستعدّا لتسجيل كلّ ما أمليه عليه.

نظرت إلى الجنديّ القائم فوق رأسي، فاستنتجت من خلال ومضة سريعة رفّت على عينيه أنّه على أتمّ استعداد لإعادة مداعبته الأولى بكعب بندقيّته الرّشّاشة.

قلت:

. لقد هبّت البارحة عاصفة هوجاء؛ وأصابت الصّاعقة الباب فحطّمته.

قال:

.هل أكلت خلال الأيّام المنقضية الماضية؟

فقلت بسخرية، وقد شحنت كلّ امتعاضي في تلك الابتسامة الغامضة الّتي اغتصبتها من أعماقي فرسمتها على شفتيّ:

.هنيئا.

قال:

.وهل شربت؟

فقلت:

.مريئا.

وضع قلمه في جيب سترته الدّاخليّ، وأوراقه في الحقيبة

الّتي أحكم إغلاقها بالقفل والأرقام... ومشى فتبعته... عند مدخل الباب، وهو يستعدّ للمغادرة، مدّ لي يده قائلا:

.إلى اللّقاء.

كنت قلقا، مضطربا، مستثارا، في جوفي كلام كثير أريد أن أقوله له، ولكنّي في النّهاية، لم أستطع إلاّ أن أقول لنفسي، تحت تأثير تلك النّظرات المتحفّزة لذينك الجنديّين العملاقين:

.إلى اللّقاء داخل الزّنزانة إن شاء الله.

... وخرج يتبعه الجنديّان!!

جاءوا وحدهم في اليوم التّالي . الجنود وكلابهم . دون ذلك الرّجل صاحب الحقيبة الّذي اعتبرني صديقا له منذ اللّحظة الأولى الّتي اجتاز فيها عتبة البيت... تقدّم منّي كبيرهم (وقد عرفت ذلك من ملامحه القاسية، وليس من عدد النّجوم الذّهبيّة الكثيرة الّتي كانت تزيّن كتفيه، والنّياشين الّتي احتلّت موضع القلب من صدره)؛ لم أبد أيّ مقاومة أو اعتراض، على خلاف ما كنت أتوقّع، ولم يعترني أدنى إحساس بالخوف، إذ كنت لكثرة ما عاشرت المحن وعانيت من ويلاتها وضرامها، صرت لا أبالي بها ولا أخشاها عملا بالمثل الشّائع الّذي يقول: «إنّ الشّيء إذا بلغ الحدّ انقلب إلى الضّدّ.»... أخرج ذلك الكبير عصابة حريريّة سوداء من جيب سترته عصب بها عينيّ بكلّ عناية، ثمّ أخذ يمرّر كفّه أمامهما، ويقول بصوت جامد أصمّ:

.هل ترى شيئا؟

فأجيبه بسخرية أقرب إلى الدّعابة، ودون أن أجعله يشعر بذلك:

.لا شيء على الإطلاق.

وأعاد العمليّة مرّات ومرّات، حتّى اطمأنّ إلى عماي المطلق؛ وقد كان في كلّ مرّة يقول لي:

.هل ترى شيئا.

فأجيبه محاولا أن يكون الرّدّ منطبعا بإحساس جديد مناقضا للّذي سبقه:

.لا شيء على الإطلاق.

في النّهاية، قال وهو يمسك بذراعي:

.فلنذهب الآن.

وذهبنا... لم أشعر بعد ذلك إلاّ وأنا مفتوح العينين، في دهليز طويل شبه معتم، لا أثر فيه لأحد أو صوت... كنت أمام باب خشبيّ بغير طلاء، يبدو من خلال الخدوش الكثيرة المبثوثة في واجهته، والبقع الغائرة القديمة، أنّه باب معمّر، قد عاش لآلاف السّنين... كنت متحيّرا، لا أدري ماذا أفعل، وقد خامرتني رغبة ملحّة أن أجوب الدّهليز على امتداده لأتأكّد إن كانت هناك منافذ في أطرافه تمكّنني من الهروب فيما لو أزمعت ذلك... وبينما أنا أهمّ بالمسير، انفتح الباب فجأة، وسمعت صوتا من الدّاخل يقول:

.تفضّل، ادخل.

تجمّدت في مكاني، وظللت هكذا لبرهة طويلة؛ ثمّ أحسست كأنّ قوّة مدمّرة، ليست من هذا العالم، تغزو جسدي كلّه، وتدفعني دون هوادة داخل الغرفة... كانت الغرفة صغيرة جدّا، لا تتّسع لشيء على الإطلاق، سوى ذلك المكتب الصّغير

القائم في مواجهة الباب... اعتقدت في البداية أنّه لا وجود هنا لأحد، وقد استغربت مصدر ذلك الصّوت الّذي سمعته منذ قليل. وفجأة، لمع مثل البرق من وراء المكتب، وغطّت على الضّوء الباهت الخافت داخل الغرفة شعلتان برّاقتان لم أكن أتصوّر في يوم من الأيّام أنّ عينين. مهما بلغت قوّتهما. قادرتان أن تصدرا مثلهما، وبنفس تلك الرّوعة والسّحر اللاّمتناهيين... كان ذلك الضّابط الكبير من «سكوتلنديارد».

قال:

.اجلس.

جلست.

قال، وقد دفع نحوي بعلبة سجائر فاخرة:

.دخّن أوّلا؛ ثمّ كن على استعداد لتقول كلّ شيء.

تردّدت... قلت:

.ليس لديّ ما أقوله.

قال، وقد كان طوال الوقت محافظا على هدوئه، مسيطرا على أعصابه:

.لا حيلة لك... ستدخّن وستقول كلّ شيء.

دخّنت.

قال:

.ماذا جئت تفعل في بلدنا؟

قلت:

.أنا مراسل لجريدة في بلدي.

قال مستفزّا:

.قل إنّك جئت للتّآمر.

لم أقل شيئا.

قال:

.قل الحقيقة.

لم أقل شيئا.

قال:

.لن ينفعك السّكوت... الاعتراف من شأنه أن يخفّف عنك العقوبة.

قلت بهدوء:

.أنا لم آت للتّآمر.

قال:

.وما فعلته أنت وأولئك القادمون من كهف ما قبل التّاريخ، ماذا تسمّيه؟

قلت:

.احتجاج.

قال:

.ليست الكلمة في محلّها. إنّ ما قمتم به، يا سيّدي، يعتبر تآمرا ضدّ أمن الدّولة والبلاد.

وضغط على زرّ أباجورة صغيرة بجانبه، وأخذ قلما خطّ به على ورقة أمامه ما يلي:

«حكمنا . نحن الضّابط الكبير المسؤول المخوّل بالنّظر في قضيّة «عرب غايت» . حضوريّا، بالسّجن لمدّة عشرين عاما بالشّغل والنّفاد على «عصبة ما قبل التّاريخ» الآتية من ضفّة

المتوسّط الجنوبيّ.»

قال، بعد ذلك:

.رفعت الجلسة.

وضغط زرّا آخر بجانبه فجاء جنديّان مسلّحان قال لهما آمرا:

.خذوه إلى زنزانة الموت.

عصبت عيناي من جديد، ولم أكن أعرف . تحت وطأة الذّهول والدّهشة . من عصبهما على وجه الدّقّة. وقد اقتادني ذانك الجنديّان، وأنا أتعثّر في مشيتي، عبر ممرّات ضيّقة، ودهاليز كثيرة، ونزلا بي أدراجا عدّة، كنت أهتدي إليها بتوجيهات قصيرة يوجّهانها إليّ بين الفينة والأخرى... وأخيرا، تناهت إلى مسامعي ضجّة مدوّية، أعقبها صوت مفتاح ثقيل يدار في أكرة باب، وصرير، ثمّ ارتطام ضلفة كبيرة على حائط أشدّ كبرا وضخامة... دفعني أحد الجنديّين إلى مكان ما، ولم يكن قد أزاح العصابة عن عينيّ، وهو يقذف ورائي بنبرة قاسية مشرشرة، تخلّلتها ضحكة فظيعة:

.ادخل إلى جنّة النّعيم المقيم!

سقطّت على الأرض من أثر الدّفعة، ولديّ إحساس ما انفكّ يتعاظم بداخلي بأنّي أهوي من قمّة جبل إلى سفحه، ولم يكن ذلك مبالغة كلّه، فما إن تأخّرت إلى الوراء قليلا، وأنا أحاول أن أحافظ على توازني، حتّى اصطدمت رجلي اليسرى ببداية شيء لم أتبيّنه للوهلة الأولى... ولحسن الحظّ، كانت يداي محرّرتين، ففكت العصابة عن عينيّ،

ولكن لم أتمكّن من رؤية أيّ شيء، فقد كان المكان... كلّ المكان غارقا في الظّلمة والرّطوبة... والصّمت أيضا. انحنيت قليلا، حتّى كادت ركبتاي تلامسان الأرض، ولمست بيد وجلة بداية ذلك الشّيء... تحسّسته جيّدا... كان درجا حجريّا قد تآكلت جوانبه... صعدت فوقه... واليت الصّعود وأنا أحاذر أن أهوي... كان عدد الدّرجات الجمليّ خمس عشر درجة؛ وقد تعجّبت آنذاك من بقائي حيّا، على قيد الحياة، في حين كانت تسع درجات فقط كافية لدقّ عنقي... كان لديّ شكّ في البداية أن يكون المكان زنزانة .كما أكّد ذلك الضّابط الكبير الّذي تولّى محاكمتي .، وقد تحقّق عندي الآن أنّه قبو تحت الأرض، غارق في عتمة أبديّة، بلا منافذ للتّهوئة، ولا أثر فيه لحياة... دققت الباب بعنف عندما بلغت الدّرجة الأخيرة... دققته مرّة ثانية... ودققته مرّات عديدة، حتّى دميت يداي، فقد كان الباب عبارة عن بضعة أضلاف خشبيّة، تعامدت فوقها عوارض حديديّة، نتأت من بين فجواتها رؤوس مسامير حادّة... سمعت صوتا يقول:

.من؟

كان الصّوت غائبا، يأتي من داخل القبو، لا من خارجه، وقد كان يضوع برائحة القبر والنّسيان. قلت دون أن أبدي إحساسا محدّدا:

.أنا.

ونزلت الدّرجات الخمس عشرة... وحينئذ فقط، أدركت أنّ أرضيّة القبو تغرق في مستنقع من مياه آسنة عطنة الرّائحة.

وقد تزامن هذا الإدراك مع قشعريرة برد أحسستها تسري في قدميّ، ثمّ تبلغ في صعودها أقصى نقطة في دماغي، فيهتزّ لها جسدي كلّه.

جاءني الصّوت، فاخترق أذنيّ: كان نفس الصّوت الأوّل:

.ومن أنا؟

وصوت ثان:

.من؟

وثالث:

.من؟

ورابع:

.من؟

قلت في نفسي، وقد بدأت أستأنس بهذه الأصوات من حولي:

.يبدو أنّي لست الوحيد ها هنا.

ثمّ للأصوات:

.أنا أحد المورّطين في قضيّة «عرب غايت».

فندّت عن تلك الأصوات صرخة واحدة، وقالت كلّها في نفس الوقت كأنّها تردّد نشيدا كوراليّا:

.نحن أيضا مورّطون... مرحى... مرحى صديقنا.

تعرّفت في تلك الأصوات أصوات أصدقائي القدامى... تذكّرت أحداثا ماضية، واستقرّت بمخيّلتي أصداء ذلك الاحتجاج المهيب الّذي اهتزّت له شوارع لندن من أقصاها إلى أقصاها... وتراءت أمام عينيّ تلك اليافطات، كما لو أنّي

أتطلّع إليها الآن حقيقة، حاملة لأجرأ الكلمات الّتي لم يجربها لسان عربيّ قحّ منذ ثورات الخوراج، ورسائل إخوان الصّفا، وتمرّد بشّار، واحتجاج أبي العلاء المعرّي... وطرقت أذنيّ الصّيحات والهتافات، فانفتحت على شرّاعة القلب اثنتان وعشرون نافذة، وطفحت مياه الخليج حتّى غطّت على مياه المتوسّط لتعانق في حمّى فرحتها أمواه المحيط كلّها... غامت عيناي بغشاوة من الدّموع، دون إرادة منّي، وبكيت... اندفعت بكلّ قوّتي، ورغم الظّلمة المطبقة، نحو تلك الأصوات... نحو أصحابي... عانقتهم... عانقوني... تعانقنا، ونحن نردّد بصوت واحد قصيدة «درويش»:

وضعوا على فمه السّلاسل
ربطوا يديه بصخرة الموتى،
وقالوا: أنت قاتل!

• • •

أخذوا طعامه، والملابس، والبيارق
ورموه في زنزانة الموت،
وقالوا: أنت سارق!
طردوه من كلّ المرافئ
أخذوا حبيبته الصّغيرة،
ثمّ قالوا: أنت لاجئ!

يا دامي العينين والكفّين!

إنّ اللّيل زائل
لا غرفة التّوقيف باقية
ولا زرد السّلاسل!
نيرون مات، ولم تمت روما...
بعينيها تقاتل!
وحبوب سنبلة تموت
ستملأ الوادي سنابل...!

... بعد انقضاء عام وخمسة أشهروستّة أيّام وساعتين من السّجن والاعتقال، وفي ليلة السّابع والعشرين من رمضان، كنت أغطّ في سبات عميق، مغمورا بمياه القبو العفنة، أتقلّب جرّاء موجات الحمّى المتعاقبة، الّتي سرت في جسدي منذ يوم الاعتقال الأوّل، وظلّت ملازمتي إلى الآن... أحسست كأنّ يدا حانية تمرّر كفّها على جبيني، وقد ضاعت برائحة هي إلى المسك أقرب منها إلى الطّيب. كانت الرّائحة قويّة نفّاذة، شعرت بها تنفذ مباشرة إلى تلافيف دماغي قبل أن أستمرئ أرجها في أنفي... استفقت مأخوذا بصوت مهيب يناديني ثلاثا:
.قم... قم... قم.

فتحت عينيّ على نور باهر يملأ القبو: ورأيت في جانب الزّاوية الأقصى، بين الأرضيّة والسّقف، رجلا أربعينيّا أو خمسينيّا، مهيب الطّلعة، يغرق في بياض بهيّ من رأسه حتّى أخمص قدميه: عمامته، عباءته، جواربه، وصرمايته الحلبيّة، كلّها بيضاء؛ وكذلك وجهه الّذي أشرب بياضه بحمرة، وزادته تلك اللّحية الطّويلة الّتي تكاد تبلغ صدره قداسة وجلالا...

مددت يدي إلى حيث اعتقدت أنّ أحد أصحابي يرقد بجانبي، ولكنّه أوقفني بإشارة من يده، وهو يقول:

.لا داعي لهذا، فلن يرى النّور غيرك.

قلت متلجلجا:

.سيّدي، من أنت؟

قال، وقد علت شفتيه ابتسامة لم أر أعذب منها:

.عجبا، ألم تعرفني؟ كيف نسيتني؟

قلت معتذرا:

.عفوك، يا مولاي.

قال:

.لا عليك، يا ولدي. أنا شيخك.

قلت، ولم أتخلّص بعد من آثار الدّهشة والخشية:

.ولماذا لم تأت من قبل لإنقاذي، يا مولاي؟

قال:

.انتظرت هذه اللّيلة المباركة...

وصمت قليلا، ثمّ أضاف:

. غدا يدعوك كبير من الكبراء، لا تراجعه فيما يقول، ولا تدهش، ولا تبد عجبا، إذا سألك شيئا، فابذل الوعود، ولا تعترض...

وصمت ثانية، ثمّ عاد ليقول:

.على قدر النّشوة يكون الخلاص، يا ولدي.

وسألته:

.ماذا تقصد، يا مولاي؟

ولكنّه ما عتم أن اختفى، وعادت الظّلمة لتطبق على المكان المنسيّ من جديد.

... في الصّباح، جاء الجنود، وأخذوني إلى مكتب فخم دون أن يغمضوا عينيّ. وقد أظهروا لي من الحفاوة وحسن المعاملة ما جعلني أستغرب، ويتملّكني الارتباك والحيرة... كان وراء المكتب رجل يجلس على كرسيّ دوّار، كانت مجرّد النّظرة الأولى الّتي ألقيتها عليه كافية حتّى تجلّي لي أسرار الجملة الأخيرة الّتي نطق بها مولاي الشّيخ... ملامح فاتنة إلى أبعد الحدود، بها مسحة فيّاضة من أنوثة، لو تسربلت في ملابس نسائيّة، لما شكّ أحد، للحظة، أنّ القائم في صدر المكان، لا بدّ أن يكون أجمل امرأة في الكون على الإطلاق... الشّعر الأشقر المرسل، الجبهة البديعة والأهداب الرّقيقة النّاعمة، العينان الكبيرتان المستديرتان، والنّظرات النّاعسة المريضة، الأنف القيصريّ، الشّفاه الممتلئة الشّهيّة، والقدّ الأهيف... كان كلّ ذلك جليّا، لا يمكن أن تخطئه العين، لذلك استعددت وهيّأت نفسي لمحادثة رجل مخنّث، ما فيه عضو من الأعضاء إلاّ ويكاد ينطق بغلمة ما لها حدود.

قال:

. أخيرا.

قلت:

. تحت أمرك.

قال:

. على قدر النّشوة يكون الخلاص.

قلت:

.أنت تأمروأنا ألبّي.

قال:

.غلام كنت أراه برفقتك دائما.

قلت:

.هولك.

قال:

.فأنت الآن حرّ.

قلت:

.والآخرون.

قال:

.والآخرون أيضا.

قال لي الضّابط الكبير، حين قادوني إلى مكتبه، بعد أن أفرجوا عنّي:

.نحن حقّا آسفون... إنّ قضيّة «عرب غايت» هي قضيّة شائكة حقّا، وقد كان من شأنها أن تثير البلبلة والفزع، وقد حاكمناك أنت وأصدقاءك مراعاة للرّأي العامّ الّذي كان يطالب بمحاكمة عادلة، ونطلق سراحك الآن لأنّ سيّدي اللّورد .أدام الله بقاءه .قد رأى بعين حكمته وشمول رحمته أن تكون الأخوّة فوق العدل.

• • •

قال لي مولاي الشّيخ، حين زارني في المرّة الثّانية:

. لا يذهبنّ بك الظّنّ بعيدا، ولا تتوجّس، وليكن ضميرك مطمئنّا، وبالك هادئا، واصطبر واحتسب أمرك عند الله، ولا تسمينّ الأشياء إلاّ بمسمّياتها، واحذر أن يتقوّض أمرك، ويذهب سدى، وخر قبل الإقدام، وكن في البلايا صبورا، وحين حلول النّعم شكورا، وقل ربّ لا اعتراض لحكمك، ولا صدود عن أمرك، بيدك الملك وأنت على كلّ شيء قدير، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

أمّا بعد...

فما الغلام إلاّ دمية بنابض، تعتلي جناب اللّورد فينتشي ولا يعارض، ويشتهي... يشتهي . من قلبه . لو امرأة يكون، حبّها لا يضارع، تقبّل العينين، تقبّل اليدين، وتوغل في الحنين، تذوب في رحاب القلب حتّى كأنّما هي قارض... شعره مستعار، يشدّ صدره المشدّ، ويلبس الغلالة الحمراء، يودّ لو يموت، في صرخة للحبّ... وينتشي... يشتهي دون أن يعارض.

قال مولاي الشّيخ:

.على قدر النّشوة يكون الخلاص.

((٤٠))

كانت ابتسامته فاترة، لا لون لها، ويبدو أنّه قد اقتلعها اقتلاعا في غير حماس ظاهر... وهي لا تنمّ عن فكرة محدّدة أو إحساس معيّن، فقد كان توقّف عن التّفكير نهائيّا منذ ثلاثة أيّام، أو على وجه الدّقّة، منذ يومين ونصف يوم، سيّما حين يكون منفردا منطويا على نفسه في مكتبه الحزين. السّؤال الوحيد الّذي كان يطرحه على نفسه دائما، ودون أن يملّ من طرحه في مناسبة أو غير مناسبة؛ وهو لم يكن سؤالا بقدر ما كان نبوءة:

. إلى أين تمضي بنا هذه القافلة؟

لو سمعه أحدهم، في غمرة الأحداث المتواترة ينطق هذه الكلمات القليلة لظنّه أيّ شيء سوى أن يكون ضابط مباحث... الجنزال «فاروق الجبيلي»... الرّابع في رأس قائمة اختفى منها إلى حدّ الآن ثلاثة ضبّاط أكفاء كان أولّهم العقيد «غريب أبو اللّيل»... وقد كان تعيينه . هو بالذّات . حدثا في ذاته؛ ورغم أنّه لا يخلو من وجاهة، إلاّ أنّه لم يكن متوقّعا: فالبلد يزخر بضبّاط آخرين، ربّما أكبر سنّا وأرفع درجة أيضا، والجنزال «فاروق الجبيلي» ما هو إلاّ واحد من عشرات

النّازحين الّذين جاءوا من لبنان ليستقرّوا، وبصورة دائمة، في البلد... غير أنّ ما جعل تعيينه يكون حدثا فريدا، وتكتب عنه كلّ الصّحف، بما فيها صحف المعارضة، بكلّ فخر واعتزاز، أنّ السّيّد معالي الوزير هو من أعلن عنه، في لقاء رسميّ بثّته جميع قنوات التّلفزيون، بعد النّدوة الصّحفيّة الّتي اقترحتها نقابة الصّحافة، وتقبّلها سيادته بكلّ أريحيّة يقينا منه أنّ هذه الوسيلة الوحيدة لجعل الرّأي العامّ يطّلع على ملابسات الجرائم المتحصّلة، ويكون على بيّنة من الجهود الجبّارة الّتي تبذلها الحكومة والأطراف المعنيّة من شرطة وبوليس للظّفر بالجاني، ومعاقبته بما هو أهل له...

حضر النّدوة الصّحفيّة، بالإضافة إلى معالي الوزير وسكرتير الوزارة، ممثّلون عن كلّ الصّحف اليوميّة والأسبوعيّة ونصف الشّهريّة والشّهريّة، ومندوبون سامون، وبعض الموظّفين المتنفّذين، ورجال أعمال، ورؤساء بعض الغرف الاقتصاديّة، وسفراء بعض البلدان الأجنبيّة الصّديقة، وبعض السّفراء الّذين لا همّ لهم إلاّ رعاية مصالح بلدانهم في بلدنا...

وصل كلّ هؤلاء . مع فريق تلفزيّ متكامل لتغطية النّدوة بكلّ مراحلها وأطوارها . إلى قاعة المؤتمرات الكبرى في ميدان فسيح وسط الحاضرة، غير بعيد عن المستشفى المركزيّ... وقد افتتح معالي الوزير النّدوة بكلمة شكر فيها جهود كلّ من ساهم . ويساهم . في تقصّي حقيقة الأحداث من رجال سياسة، وعسكريّين، وصحفيّين؛ ولم يفته أن ينوّه بجهود

الضّبّاط المختفين، واغتنم الفرصة ليعزّي أهلهم وذويهم؛ ووقف الجميع . بعد ذلك . دقيقة صمت ترحّما على أرواح المفقودين...

سأل أحد الصّحفيّين معالي الوزير السّؤال الّذي سيصبح فيما بعد السّؤال الوحيد الّذي لن يكون الجنرال «فاروق الجبيلي» قادرا على طرح سواه حتّى عشيّة اليوم الّذي اختفى فيه:

. إلى أين تمضي بنا هذه القافلة، يا معالي الوزير؟

ولعلّ الّذين سمعوا هذا السّؤال يطرح في قاعة المؤتمرات، وبكلّ برودة الدّم الّتي شحنها الصّحفيّ في نبرته، استغربوه، وذهب بعضهم إلى حدّ إبداء استنكاره لتلك اللّهجة الّتي اعتبروها مميّزة لـ «سوقيّة الصّحافة الجديدة»، وقد أوشك أحدهم أن يتصدّى للصّحفيّ لولا أنّ معالي الوزير أشار إليه بالجلوس، محاولا في نفس الوقت مداراة استيائه، وقد قال آنذاك:

. ستكون الحريّة المطلقة الشّعار الّذي نرفعه عاليا في هذه النّدوة.

ولم يشر معاليه . من قريب أو بعيد . إلى ما يقصده من وراء «الحريّة المطلقة»، غير أنّه انفرجت أساريره، وارتسمت على شفتيه ابتسامة عذبة فيها قدر غير قليل من المكر والحنكة السّياسيّة، لم يخطئ أحد تأويل معناها داخل القاعة، إذ كانت تشير إلى أنّ «الحريّة المطلقة» المقصود بها الحريّة الّتي لا يجب إطلاقها إلى الحدّ الّذي تجرف فيه «سوقيّة الصّحافة

الجديدة» كلّ شيء!!

لم تكن المائدة مستديرة، بل مستطيلة يتصدّرها معالي الوزير؛ وفي أقصى الوسط منها، من جهة اليسار كان هناك مصوّر يسلّط عدسة كاميراه على الصّفّ الأماميّ الّذي كان يضمّ، إضافة إلى معاليه، سكرتير الوزارة، وثلاثة مندوبين سامين، وسفيرين، ورئيس الغرفة الاقتصاديّة الوطنيّة... وكان الجنرال «فاروق الجبيلي» يجلس في أقصى الجهة اليمنى من النّاحية الأخرى للمائدة، يلي أحد السّفيرين، حين سمع ذلك الصّحفيّ يطرح ذلك السّؤال، ولا يدري لماذا شدّ انتباهه بكلّ تلك القوّة الّتي لم يملك أمام سلطتها إلاّ الرّضوخ والاستسلام. كان السّؤال عاديّا، بسيطا في غاية البساطة، ولم يكن يحمل في طيّاته أيّ حروف أو كلمات مميّزة؛ وعلى عكس الآخرين، لم يكن يرى فيه أيّ بادرة للتّحدّي، أو أيّ صدى لما كان رائجا في تلك الأيّام من «سوقيّة الصّحافة الجديدة»... التّفسير الوحيد الّذي ظفر به كتبرير لتلك القوّة الّتي تملّكته على إثر إلقاء السّؤال، وعجزه عن إيجاد تفسيرات أخرى أكثر منطقيّة، هو سلطة الإيحاء ووميض الإلهام... راح يردّد السّؤال في سرّه مرّات ومرّات، حتّى تأكّد أنّه لا يمكن أن ينساه، في ما سيقضي من أيّام، وإلى أن يحين ذلك اليوم الّذي سيختفي فيه، دون أن تكون له أدنى فكرة عن ملابسات ذلك الاختفاء... كان ذاهلا عمّا حوله، ينظر بعينيه ولا يرى ما يدور حوله، ويستمع إلى الحوار اللاّنهائيّ داخل القاعة ولا يعي منه شيئا؛ حتّى إنّه لم يلحظ عيني معالي الوزير وهما تروزانه

بتدقيق وإمعان كبيرين.

قال معاليه، يردّ على ذلك الصّحفيّ الّذي طرح عليه السّؤال الأوّل:

. إنّ هذه القافلة تسير نحو نهايتها المظفّرة.

وأطلق ضحكة قصيرة ليس لها رنين.

قال صحفيّ آخر:

. يبدو، سيّدي الوزير، أنّنا نسير في اتّجاه متاهة الجنرال... عفوا، إنّي أقصد أنّنا سائرون في طريق اللاّعودة.

كان معاليه ما تزال أساريره منفرجة، وتلك الابتسامة العذبة الماكرة السّياسيّة مرتسمة على شفتيه، وقد غدا معناها مغايرا تماما لمعناها منذ قليل. قال مداعبا، مخاطبا الصّحفيّ، وهو يريد أن يؤجّل الرّدّ عليه إلى حين:

. هل قرأت رواية غابرييل ماركيز الأخيرة «الجنرال في متاهته»؟

قام الصّحفيّ من مكانه، واتّجه بكليّته إلى الصّفّ الأماميّ حيث يجلس معاليه، وقال بكلّ أريحيّة، وهو يحاول أن يكون لطيفا وديعا:

. كان سيحصل لي الشّرف، سيّدي الوزير؛ ولكن . للأسف لم أقرأها.

سأله معاليه بصوت خفيض، وكأنّه يخاطب نفسه، ضاغطا على نهايات الكلمات:

. كنت أعتقد أنّك قرأتها؛ وإلاّ فمن أين لك العبارة الأخيرة: «متاهة الجنرال»؟

قال الصّحفيّ، وهو يبتسم:

. العفو، سيّدي الوزير، إنّ ذلك أسلوب في الحديث... طريقة في الكلام.

وأضاف بعد برهة صمت، وقد بدا من خلال نبرته أنّه يريد أن يبعث جوّا من الانتعاش والانطلاق داخل القاعة:

. ثمّ إنّي، سيّدي الوزير، قد قرأت كلّ روايات غابرييل ماركيز، بما في ذلك مجموعاته القصصيّة، إلاّ «الجنرال في متاهته»، وأعدك أنّي إذا ظفرت بها، فلن أفوّت فرصة اقتنائها وقراءتها.

سادت للحظة موجة من الضّحك، وعلت التّعليقات هنا وهناك، وقد بلغت الحماسة ببعضهم حدّ الوقوف والتّصفيق. وقد قال معالي الوزير حين استعاد المكان صمته وهدوءه:

. إنّ الدّخول إلى المتاهة في هذا الوقت بالذّات غير وارد...

وابتسم ابتسامة ذات معنى، وهو يرمق الجنرال «فاروق الجبيلي» بنظرة فاحصة، دون أن يلاحظه هذا الأخير. قال مواصلا بعد ذلك:

. وحتّى إذا بلغ بنا اليأس حدّا لا متقدّم بعده، فحتّى في هذه الحالة سوف لن نكون مضطرّين إلى دخول المتاهة... هناك دائما وسيلة ما لتفادي الأخطر...

قاطعه صحفيّ آخر، وهو يقول:

. عفوا، سيّدي الوزير: ولكن هل نأمل الخلاص من هذه الورطة بعد اختفاء أربعين جثّة من المستشفى المركزيّ، وثلاثة

ضبّاط، وأربعة كلاب شرسة مدرّبة على حراسة السّفارات الأجنبيّة، وحارس الغرفة الاقتصاديّة؟

فردّ عليه معاليه:

. ما دام هناك عزم وإرادة فهناك أمل... ثمّ لا تنس أنّ الحاجة أمّ الاختراع... وسنبدع نحن أساليبنا الفذّة ونبتكر وسائلنا النّاجعة ما بقي المجرمون على دأبهم في تهديد أمننا.

قال صحفيّ رابع ما يزال تحت التّمرين:

. سيّدي الوزير، إنّ اختفاء ضابط مباحث بقدرة العقيد «غريب أبو اللّيل» وحجمه ليس بالأمر الهيّن.

كانت ابتسامة معاليه قد تغيّر معناها للمرّة الثّالثة في تلك النّدوة، حين قال، وبإصرار:

.يجب أن نرفع إلى جانب «الحريّة المطلقة» في التّعبير شعار «لا لليأس... لا للهزيمة»... ثمّ، لا تنسوا، أيّها السّادة، أنّ كلّ واحد فينا معرّض لنفس المصير الّذي تعرّض له العقيد أبو اللّيل وزميلاه؛ فلا أحد معصوم ولا أحد ممنوع من يد القدر... وإذا ما كنّا نحن نبالغ كثيرا في الدّور المنوط بعهدة رجال المباحث والبوليس ورجال الدّرك، فعلينا أن نرتدّ إلى الواقع سريعا لندرك أنّ هؤلاء جميعا لهم شرف التّضحية، وهذه التّضحية نفسها هي دائما ما يجعلهم في خطوط النّار الأماميّة، مهدّدين في أيّ لحظة بالقتل أو الموت أو الاختفاء...

ثمّ مضيفا:

.أيّها السّادة، كلّنا يجب أن يشعر بأنّه «غريب أبو اللّيل» حتّى ننتصر على الخوف داخلنا، ونقهر ضعفنا، فنواجه حقيقة

أنّه يجب علينا أن نصمد مهما كلّفنا ذلك من تضحيات.

اهتزّت أركان القاعة وارتجّت بحمّى التّصفيق الّتي دوّت فجأة؛ وانبعثت في الجنبات القصيّة أصوات الاستحسان وهتافات التّأييد. وقال أحد السّفيرين الحاضرين، مدفوعا بتلك الحماسة المباغتة والحميميّة المتزايدة داخل القاعة:

. سيّدي الوزير، لا يسعني إلاّ أن أنوّه بروحكم النّضاليّة إذا ما عدت إلى بلدي... غدا أقدّم أوراق إنهاء اعتمادي، وحين أعود سأقول إنّكم أهل للثّقة.

وقال السّفير الآخر:

. سيّدي الوزير، أمّا أنا فباق، ولا يسعني هذه المرّة إلاّ أن أهتف معكم بنفس الشّعار الّذي رفعتموه . معاليكم: «لا لليأس... لا للهزيمة.»

فقال معالي الوزير، حينئذ،وقد وقف من مكانه مستعدّا للمغادرة، ومعلنا ضمنا نهاية النّدوة:

. أيّها السّادة، انتظروا المفاجأة في الأيّام القليلة القادمة!!

وجاءت المفاجأة بأسرع ممّا كان يتوقّع الجميع... كان ذلك مساء الأربعاء، السّابع والعشرين من شهر حزيران، على السّاعة العاشرة والنّصف، عندما بثّت القنوات الثّلاث، بما فيها القناة الخّاصّة، الموجّهة أساسا للإعلانات، مقابلة معاليه في لقاء رسميّ للجنرال «فاروق الجبيلي» سلّمه على إثرها الصّنف الأوّل من وسام الاستحقاق الجمهوريّ؛ ورغم أنّ وسائل الإعلام لم تتوصّل . بطرقها المتعدّدة . إلى الظّفر بأيّ تصريح يمكنها من الاطّلاع على فحوى المقابلة، إلاّ أنه

لم يبق أحد إلاّ وأدرك أنّ لتلك المقابلة علاقة بالّذي يحدث في البلد... على امتداد ثلاثة أيّام كاملة. لم يكن للنّاس من حديث سوى تلك المقابلة؛ ولم يكن هدفهم من وراء تلك الجلبة الّتي أحدثوها، فجأة، ودون سابق إنذار، إماطة اللّثام عن حقيقة الوقائع الجارية بقدر ما كان الدّافع رغبة ملحّة في الحديث... الحديث ولا شيء غير الحديث... في البيوت المشرعة نوافذها على جميع الشّوارع الرّئيسيّة والفرعيّة، المؤدّية وغير المؤدّية، في الميادين الفسيحة المكشوفة على حدائق ذهب ألق أزهارها ورونقها، في الدّكاكين على النّواصي، في المقاهي القديمة المعمّرة، وحتّى في دور الحبّ والزّوايا المعتمة لعشّاق محرومين شبقين... فما الّذي سيحدث بعد؟... كان السّؤال المتداول على كلّ لسان من قبل آنيّا، يفرضه الحدث، وفيه من الخوف والتّوجّس بقدر ما فيه من المباغتة: ماذا يحدث؟ وكيف حدث؟... والآن، وبعد الأحداث الجسام، وموجة الإحباط واللاّجدوى، صار السّؤال استشرافيّا، لا غاية من ورائه سوى الحديث لغاية الحديث... الحديث نقيض الصّمت الّذي كلّما غاص في أتونه الإنسان أحسّ بمزيد من الإحباط واللاّجدوى... كان الكلام محاولة للخلاص... إنّه وسيلة للهروب، وتفادي الفكرة الملحّة الوحيدة الّتي لا يطرح الصّمت غيرها أثناء لحظات التّفكير والتّأمّل: اليوم اختفى فلان، وربّما يكون المختفي غدا هو أنا، ولا أحد غيري!!... في أوقات سابقة، أوقات بعيدة مجهولة، موغلة في العتمة والقدم، كانت النّوافذ قلّما تفتح، فإذا ما فتحت فلفترة

قصيرة جدّا خلال الصّباح، بما يسمح بدخول بعض أشعّة الشّمس، وبما يكفي لطرد رائحة النّوم الثّقيلة من المنازل؛ وكانت الأبواب كذلك، موصدة طوال النّهار، لا تفتح إلاّ لحاجة ملحّة أو ضرورة طارئة؛ حينئذ، كانت تدلف منها، أو تنزلق من خلالها إلى الخارج، أطياف أشباح غامضة، متّشحة بصمتها، مواربة في ذهولها الأبديّ، لا تعرف هدفها بعد، ولا تدري إلى أين وجهتها... في تلك الأيّام، كان كلّ واحد يمثّل عالما قائما بذاته، في اكتفائه بأفكاره وتصوّراته وهواجسه وأحاسيسه، فإذا ما التأم في خضمّ الطّابور حسبته صار متماهيا، واحدا قد ذاب في كلّ، له بداية ونهاية، له جذور تشدّه إلى التّاريخ، وآمال عظام تشرف به على حدود المستقبل؛ غير أنّه في الحقيقة لم يعد أن يكون غريبا قد هاجر بغربته إلى غرباء آخرين أشدّ منه غربة... اليوم، تبدّل كلّ شيء: فذي النّوافذ تفتح مصاريعها على وجوه نساء حزينات، ولكنّهنّ جميلات، يتبادلن الحديث، وهنّ يضحكن أحيانا، ويبدين استياءهنّ أو خشيتهنّ أحيانا أخرى؛ وذي الأبواب، على اختلاف أنماطها وأنواعها، بحديثها الموغل في حداثته وقديمها الضّارب في قدمه، تفتح أضلافها، لا على أطياف أشباح، تدلف في عتمة غموضها، ولكن على مجموعات من البشر، قد تكثر أو تقلّ، يتكلّمون بصوت عال، ولا يتوقّفون عن الكلام أبدا... إنّها . سادتي . المحنة الّتي تعيد النّاس إلى إنسانيّتهم والفرد إلى كلّيته!!

في المقاهي، كما في كلّ مكان آخر، كان الخوف قد تضخّم إلى حدّ أنّه صار مستساغا، لا يثير ضجّة أو قلقا، ولكن ظلاّ

ضبابيّا من لامبالاة مشبعة باستهزاء تغلّفه ضحكة أو نكتة ساخرة؛ ولا يعدم أن تسمع أحدهم يقول والضّحكة تملأ شدقيه:

. إن شاء اللّه، سيتمّكنون من القبض على المجرم حين تقفر المدينة، ولا يعود بها أحد على الإطلاق.

فلا يملك رفيقه الّذي يكون حينئذ يلاعبه الورق على نفس الطّاولة إلاّ أن يقاطعه قائلا:

.وحتّى في هذه الحالة، سوف لن يتمكّنوا من القبض عليه، لأنّه سيكون في نفس اللّحظة يتربّص بمن سيقبض عليه، فيورده موارد الهلاك أو يرسله إلى جزائر واق الواق...

ساعتئذ، يضجّ المكان بعربدة الضّحك، وتعلو القهقهات، وتكثر التّعليقات، رغم علم الجميع بوجود جواسيس وبصّاصين بينهم، يتربّصون بهم الدّوائر، ويحصون عليهم أنفاسهم وكلماتهم؛ ولكنّهم يتكلّمون مع ذلك، ويقولون ما يحلو لهم، بل كانوا يبالغون كثيرا إلى أن انتهى الأمر بأولئك الجواسيس والبصّاصين أن يكتفوا بالصّمت والاستماع إلى الأحاديث الدّائرة حولهم، حتّى أنّهم كانوا يضحكون في بعض الأحيان... ربّما كانوا هم أيضا يحسّون بوطأة المحنة، ويخامرهم شعور غامض في أعماقهم بأنّهم قد يكونون في عداد المفقودين في اليوم التّالي!! كانوا معروفين لدى الجميع بزيّهم وملامحهم وأسمائهم أيضا، ولم تعد حيلهم في التّنكّر والتّمويه تنطلي على أحد، حتّى أنّهم قد توقّفوا نهائيّا عن بذل ذلك المجهود الّذي لا جدوى منه، والّذي يستغرقونه

في إعداد ملابسهم وزينتهم، وصاروا يندسّون بين النّاس دونما حذر أو شعور بالرّهبة فيما لو انكشف أمرهم... كان بعضهم يلتفت إلى أحدهم، وقد يكون بجانبه أو في مكان ما من المقهى، فيبتدره مبتسما بعد أن يكون قد أبدى احتجاجا أو أورد نكتة مكشوفة:

.وما رأيك أنت، يا صاحبي؟

فيجيبه الآخر بهزّة من رأسه، دون أن يفوه بكلمة، أو يقول لامباليا، بادي الضّجر والنّزق:

.اهتمّ بشؤونك، ودع غيرك وشأنهم.

كانت أقصى عقوبة ستصيب أحدهم، في تلك الأيّام، أن يودع السّجن؛ وكان السّجن مكانا غير مأمون؛ ولم يكن بمقدور أحد أن يتحمّل مسؤوليّة اختفاء سجين أو فقدانه!!

... كان «فاروق الجبيليّ» في قصره بالضّاحية الجنوبيّة حينما دقّت السّاعة الجداريّة في الصّالة تمام العاشرة ليلا. وقد أزمع منذ انتهاء النّدوة الصّحفيّة العودة إلى المركز، إلاّ أنّه حين انطلقت به السّيّارة عبر الأزقّة الضّيّقة المعتمة وسط المدينة، وجد نفسه يفكّر في الجثث الأربعين المختفية، وزملائه الضّبّاط المفقودين، والسّؤال الّذي طرحه ذلك الصحفيّ الجريء: «إلى أين تمضي بنا هذه القافلة؟» فأمر السّائق بالاتّجاه صوب القصر... لم تكن لديه رغبة في النّوم، وعندما جاء الخادم يسأله فيما إذا كان يرغب في تناول عشائه، لم يبد أيّ حماس، وصرفه آمرا إيّاه بإحضار فنجان من القهوة فحسب... تذكّر، وهو يلقي بثقله المتعب المنهوك على إحدى

الأرائك الوثيرة في غرفة المعيشة، ويغمض عينيه السّنجابيّتين متأمّلا، وقد شبك أصابع يديه وراء رأسه، أنّ لديه تقريبا كلّ التّسجيلات عن الأحداث الأخيرة الماضية كلّها...أحسّ حينذاك بحماسه يتجدّد مرّة أخرى... كانت تلك التّسجيلات تخصّه هو بالذّات، وهي نادرة جدّا، على ما يبدو، فقد كان الفريق الّذي قام بإنجازها، والمتكوّن من أحد عشر مصوّرا محترفا، فريقا متكاملا يعمل تحت إمرته، ولا يدع شاردة أو واردة إلاّ قام بتصويرها، على أمل العثور على دليل... أيّ دليل مهما كان تافها، من شأنه أن يقود إلى بداية الطّريق الّتي ما تزال مجاهلها وعرة متشعّبة... نهض من مكانه بتؤدة متناهية، وانطلق نحو دولاب صغير في نهاية الرّكن الأيسر من الصّالة... أخرج حامل المفاتيح من جيبه، وانحنى بقامته الفارعة المديدة يفتحه... أخرج شريطين انتقاهما بعناية كبيرة، وأعاد غلق الدّولاب من جديد، ثمّ عاد إلى مكانه، فارتمى على الأريكة، بعد أن شغّل جهاز التّسجيل...

جاء الخادم يحمل صينيّة صغيرة عليها فنجان من القهوة وكوب ماء كبير، وضعها أمام سيّده فوق منضدة مستطيلة ذات قاعدة زجاجيّة، ثمّ انصرف مخلّفا وراءه ظلاّ قاتما من الصّمت ما عتم أن شمل المكان كلّه، ولفّ الجنرال في هالة من مشاكسته الملغزة... مدّ يده إلى جيبه، فأخرج علبة سجائره؛ وبأصابعه الطّويلة المدرّبة سحب سيجارة أشعلها على عجل، وشفط منها نفسا عميقا، وهو مغمض العينين، يستمرئ طعم الدّخان الّذي حرمه في ذلك اليوم بسبب

النّدوة الصّحفيّة وصرامة مراسيمها. حسا من الفنجان حسوات متتابعات حتّى من قبل أن يتخلّص من بقايا دخان السّيجارة الّذي اختزنه في صدره... كان يقوم بكلّ شيء بصورة ميكانيكيّة تقريبا، شارد اللّبّ، مشتّت الأفكار: عيناه فقط على شاشة التّلفزيون تحاولان أن تلتهما الصّور بنهم لجوج، في محاولة للظّفر بأيّ شيء... المستشفى أمامه، بشسوعه وامتداده، بغرفه وأروقته، نوافذه وأبوابه، كلّه يغرق في صمت اللّحظات الأولى من اختفاء الجثّة، والمشرحة ساكنة كأنّما تردّد صلاة حارّة، ليس بها سوى ذلك السّرير المغطّى بشراشف بيضاء نظيفة... وتانك اليدان وتانك الرّجلان: يا إلهي، هل يعقل أن تكون بها بقيّة من حياة، وقد اختفت كلّ الجثّة؟!... هو أيضا يذكر ما قاله الطّبيب الشّرعيّ، واطّلع بنفسه على نتيجة التّشريح، لكنّه ما يزال عاجزا عن تصديق ما يحدث أمام عينيه... الطّبيب قال إنّ الأعضاء المتبقّية لا تحمل أيّ أثر للعنف، وليس بها أيّة رضوض أو كسور، ويجزم أنّ الدّم يجري فيهما دون عوائق أو عراقيل... أيّ مجرم هذا، أو أيّ لصّ، هذا الّذي يتجرّأ على حرمة الموتى وينفذ بجلده دون عقاب؟ وأيّ قدر هذا الّذي قام بحمايته؟ ما يثير دهشته واستغرابه، ويكاد يشفي به على موارد الجنون أنّ الفاعل لم يخلّف وراءه بصمات... حتّى ولا ظلاّ لبصمة... إنّه محتار... الجنرال العظيم، صاحب الخبرة والكفاءة، الّذي خاض سبعا وأربعين حربا مظفّرة، في أماكن متعدّدة من العالم، بدءا من القرن الإفريقيّ ورأس الرّجاء الصّالح، إلى المحيط

الأطلسيّ وجزر الكاريبيّ، يقف الآن مشدوها أمام حقيقة أنّه يواجه الرّجل اللاّمرئيّ وجها لوجه دون أن يتمكّن من رؤيته أو القبض عليه!! لو فقط يراه...! لو فقط يتملّى سحنته، وتنطبع صورته في ذهنه! لربّما غفر له في تلك الحال: لربّما أطلق سراحه، وأبرم معه اتّفاقا على شرط أن لا يعود إلى مثلها... لربّما أصبحا... صد...يقين!!

رنّ جرس الباب فجأة، فعاد دفعة واحدة إلى عالمه الأرضيّ، واستعاد سيطرته على أفكاره ومشاعره بحزم عسكريّ تربّى على صرامته مذ كان ملازما أوّلا في سنّ التّاسعة عشرة. أطفأ جهاز التّلفزيون حين رأى خادمه مقبلا نحوه، ووقف في مواجهته سائلا إيّاه بنبرة متسلّطة لا تخلو من قلق:

. من بالباب؟

فأجابه الخادم بأدب جمّ وتواضع:

. إنّه سائق معالي الوزير في انتظارك، يا سيّدي.

سأله مرّة أخرى، وقد بدا الاضطراب في صوته، رغم أنّه بذل جهدا جبّارا في السّيطرة على هواجسه:

. ماذا يريد في مثل هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل؟

قال الخادم:

. قال، سيّدي، إنّ معالي الوزير يرغب في الاجتماع بكم، وحالاّ.

بدت له الكلمات الأخيرة، ورغم أنّ خادمه هو من تفوّه بها، وبصوته النّحيل الخبيء، وبنبرته البسيطة المستسلمة، الّتي لا تحمل أيّ أثر لقوّة أو عارضة، لا تحتمل التّفكير أو

المراجعة... إنّه أمر؛ وفي هذا الوقت من اللّيل بالذّات، يصبح أمرا ملزما، لا فكاك من مداراته أو التّنصّل منه... لقد اعتاد مثل هذه المواقف من قبل؛ وهو يذكر كيف كان يجتثّ من دفء فراشه في ليالي الشّتاء الطّويلة اللّذيذة ليحقّق في أطوار حادث ما، أو ليعاين موقع جريمة حدثت في الأطراف القصيّة من المدينة النّائية... لقد كانت تمرّ عليه أيّام محنة طويلة، صعبة، موحشة، لا يطعم فيها، ولا يشرب، وتصبح فيها ساعة من النّوم الهنيء، دون منغّصات، أقصى حلم يمكن أن يطمح إليه في سنوات حياته العجاف.

تناول علبة سجائره من على المنضدة، وسار نحو الباب وهو يقول لخادمه دون أن يلتفت إليه:

.أغلق الباب والنّوافذ جيّدا، فلربّما لا أبيت اللّيلة هنا.

... في مكتب معالي الوزير، كان كلّ شيء يجري بصورة طبيعيّة، دون احتراز أو تحفّظات، في غياب وسائل الإعلام المنطوقة والمرئيّة والمسموعة، الّتي سوف لن يسمح لها بالنّقل والتّصوير، إلاّ في نهاية المقابلة عندما سيقوم معاليه بمنح وسام الاستحقاق للجنرال، ويلقي كلمة في هذا الشّأن ينوّه فيها بمزايا الضّابط النّادرة، ويعلن في نهايتها تنصيبه قائدا عامّا لقوّات البرّ والبحر، ومستشارا ساميا لدى هيئات الدّولة العليا، ومسؤولا بالنّيابة على سلاح الطّيران، والمخوّل، دون شروط، في صلاحيّات واسعة في إعلان حالات الطّوارئ والحظر...

كان الاستقبال بسيطا، وعاديّأ أيضا، اقتصر في البداية

على المجاملات وتبادل كلمات الشّكر، وقد كان معاليه يتعمّد الابتسام طوال الوقت، ويضحك موردا بعض النّكات في محاولة منه لرفع الكلفة، وبسط الأمور على أساس من الثّقة والتّفاهم... لم يجلس وراء مكتبه، على الكرسيّ الدّوّار، وإنّما قاد زائره إلى وسط قاعة فسيحة، حيث جلسا متقابلين... كانت أمامهما منضدة دائريّة، عليها صندوق مستطيل، مذهبّ الجوانب، نقشت على قاعدته وأطرافه تهاويل وتخاريم بديعة رائعة... مال معاليه بجذعه، فتناول الصّندوق الّذي فتحه، وبذله للجنرال قائلا في دعابة:

.تفضّل، يا جنرال... هذه السّجائر نادرة لا نظفر بمثلها كلّ يوم.

كان الجنرال ما يزال متحفّظا، لم يستأنس بعد بهذا المزاح الحميم الّذي أراد معاليه أن يبثّ أنفاسه الدّافئة داخل القاعة: فاستوى بجذعه، وعدّل من جلسته العسكريّة على المقعد، وهو يشدّ بزّته بعناية حول هيكله العظيم... لم تكن كلّ تلك الحركات المحتشمة الرّصينة لتغيب عن عيني معاليه الفاحصتين، فدنا منه، وربّت على كتفه بصداقة وحنان، وهو يقول، فخرج صوته، لا كما تساقط الرّذاذ على الأرض المجدبة العطشى، ولكن كانسياب الماء في الجدول الهادئ المستكنّ:

.سيّدي الجنرال، لا أعتقد أنّنا سنتوصّل إلى حلّ نهائيّ ما دمت على هذا القدر الكبير من الصّرامة العسكريّة...

صمت قليلا، وهو يمعن النّظر في وجه جليسه كي يكتشف

أثر كلماته على سحنته الدّاكنة؛ ولمّا لم يجد منه رغبة أو استعدادا لمقاطعته، أو التّعليق على كلامه، قال مواصلا:

.أرجو أن تكون أكثر حرّية في الحديث، يا جنرال.

لم يتمالك الآخر أن قال معقّبا، وقد رفّت على شفتيه ابتسامة ذات معنى:

.يقصد سيّدي الوزير أن ألتزم شعار الحرّية المطلقة الّذي كنتم رفعتموه خلال النّدوة الصّحفيّة اليوم.

ضحك معاليه، فرنّت ضحكته داخل القاعة، وردّدت صداها الزّوايا والأركان؛ واستخفّته هو أريحيّة طارئة، فضحك بدوره مجاراة، وهو يشعر في داخله أنّه قد بدأ يحطّم آخر معاقل الكلفة المرابطة في أعماقه.

قال معالي الوزير، وهو يمدّ إليه الصّندوق ثانية:

.ما أسرع ما استجبت، يا جنرال!

قال الجنرال، وهو يتناول سيجارة:

.سيّدي الوزير، إنّني لا أستطيع إلاّ أن أصدع بالأمر.

فتناول معاليه بدوره سيجارة، سارع الجنرال إلى إشعالها في خفّة القطّ، وأشعل سيجارته هو أيضا، وراحا يدخّنان صامتين، وكلاهما ينظر إلى نقطة غير مرئيّة داخل القاعة.

في لحظة معيّنة، أخرج معاليه من حافظة أوراق بجانبه رزمة أوراق، أفردها أمامه على المنضدة، وهو يتأمّلها؛ وقد رفع رأسه هنيهة، ورمق الجنرال بطرف عينه اليسرى، ثمّ عاد إلى الأوراق يتفحّصها من جديد، وكأنّه يريد أن يشعر الضّابط الكبير أنّ الأمر متعلّق به... تناول ورقة، وراح يقرأ منها بصوت

عال، وبأسلوب فخم ونبرات مهيبة:

ـ... فاروق زيدان الجبيليّ، من مواليد بعلبك، في السّادس عشر من تمّوز العام ١٩٢٠، الأب متوفّى، والأمّ كذلك، أعزب. هاجر من لبنان، وجاب الكثير من بقاع العالم، حاصل على دبلوم أعلى في الهندسة الحربيّة...

ونظر إليه، دون أن يضع الورقة، فشدّته الدّهشة الّتي ارتسمت على وجهه، والحيرة الّتي كانت رابضة في زوايا عينيه الذّاهلتين، وشفتيه الفاغرتين... لا شكّ أنّه قد أخذ... من هذا الّذي يتحرّى عنه؟ ومن يجمع عنه معلومات بهذه الدّقّة؛ وقد كان أولى به هو، وجهاز الاستخبارات الّذي يشرف عليه بنفسه أن يقوم بهذه المهمّة؟... لم يكن يخطر بباله أن يكون هو المستهدف؛ فلا غضاضة من تتبّع الجميع، والتّقصيّ عنهم؛ ولكن أن يكون هو هدفا للبحث والمساءلة، فهذا ما لا يقبله أبدا... هذا محال!!... إنّها إهانة، ويا لها من إهانة!!... ربّما قرأ معاليه كلّ هذه الهواجس في تلك الدّهشة المفاجئة، وحيرة العينين والشّفتين، غير أنّه لم يقلق كثيرا، فقال بهدوئه المعتاد:

ـ هوّن عليك، يا جنرال... إنّ ما نفعله ضروريّ لتفادي الدّخول إلى متاهة الجنرال.

ولم يتمالك من الضّحك، فجاراه الجنرال بضحكة ذابلة لا حياة فيها تشي بأنّه ما يزال تحت تأثير ذلك الشّعور القاتم الّذي اعتراه منذ قليل.

سأله معالي الوزير:

.هل دهشت حقّا؟!
فأجابه بصوت مشروخ:
. أجل، سيّدي الوزير؛ إنّي لم أكن أتصوّر أنّ شيئا كهذا يمكن أن يحدث.
رنت على شفتي معاليه ابتسامة فيها قليل من السّخرية وكثير من الشّفقة؛ والتفت إلى الجنرال يسأله باقتضاب، ودون حماس كأنّه يعرف الإجابة عن السّؤال سلفا:
.لماذا؟
فقال الجنرال، وهو يحاول أن يغطّي على كبريائه الجريحة بصوت واثق ونبرات ثابتة:
. سيّدي الوزير، أنت تعرف السّبب جيّدا... هذه المهمّة موكولة إلينا نحن...
فقاطعه معاليه قائلا:
.تقصد موكولة إليك أنت بالذّات.
فأومأ برأسه موافقا، ثمّ قال:
. وأنت تعلم، سيّدي الوزير، أنّ غايتنا من كلّ ذلك الحفاظ على الهدوء والأمن؛ فإذا كنتم، يا سيّدي الوزير، غير واثقين من كفاءتنا، أو يساوركم الشّكّ في مدى أمانتنا، فأنا مستعدّ، والآن، وفورا، أن أقدّم استقالتي، وأنا راض مطمئنّ إلى مصيري...
فقال معاليه:
.لا عليك، أيّها الجنرال؛ فإنّ لي نظرة لا تخيب في الرّجال... وما قمت به ليس له أيّة صبغة رسميّة، ولكنّها محاولة منّي

لترسيخ هذه النّظرة الّتي كنت أحدّثك عنها...

ثمّ أضاف، وهو يضحك منفرج الأسارير:

.وقد كانت نظرتي في محلّها.

كان الجنرال قد استعاد بعض هدوئه وطمأنينته، وعاودته ثقته بنفسه، إلاّ أنّه أراد أن يتأكّد من هاجس كان، طوال الوقت، ينغّص عليه سكينته، فسأل معاليه:

.هل تسمح لي بسؤال أخير، سيّدي الوزير؟

.أجل، تفضّل.

قال:

.من قام بمهمّة مدّكم بهذه الأوراق؟ هل هو أحد رجالـ...

فقاطعه معاليه قبل إنهاء كلمته الأخيرة، وقال مؤكّدا:

.اطمئنّ، يا جنرال، إنّه ليس أحد رجالك؛ ولكنه صديق من أصدقائي أبدى استعدادا لمساعدتي حين أعلمته باختياري للرّجل الّذي سيخلّصنا من كلّ هذه المتاعب...

وصمت قليلا، ثمّ قال:

.ولا شكّ أنّك عرفت هذا الرّجل الآن!

ابتسم الجنرال ولم يحر جوابا.

حينئذ، قال معاليه:

.إنّ ابتسامتك تدلّ على أنّك عرفت الرّجل، وهذا جيّد.

ثمّ قرّب الورقة من عينيه ثانية، وبدأ يقرأ:

... تعرّض سيادة الجنرال إلى خمس وأربعين محاولة اغتيال نجا من جميعها: وقد أطلق عليه الرّصاص مرّة، فاخترقت الرّصاصة ظهره دون أن يمسّ بأذى، ومرّة طعنه

أحدهم بسكّين وهو نائم، في صدره، وهرب وهو متأكّد أنّه قد أصاب منه مقتلا عندما رأى منظر الدّم الّذي كان صبغ ملابس القتيل والشّراشف بحمرة قانية، ولكن اتّضح فيما بعد أنّه لم يمت، لأنّه لم يكن هو الّذي نام في السّرير... وكانت تنصب له الكمائن في الأدغال والأحراش، فينجو منها بثبات بعد أن يكون قد أباد من نصبوا له تلك الكمائن، وهو لا يملك سوى بندقيّة رشّاشة... وللجنرال قدرة عجيبة على السّباحة، حيث قطع نهر زائير سباحة مرّتين، ونهر النّيل أربع مرّات... الخلاصة أنّ الجنرال ممنوع من عضّة الموت القاتلة بقوّة سحريّة أثيلة، وتمائم ألف عام من التّنجيم والعرافة.

وضع معاليه الورقة فوق المنضدة، وسأله دون أن يبدو عليه أيّ أثر للقلق أو الانزعاج اللّذين قد يثيرهما الاستماع إلى مثل هذه المعلومات الغريبة الملغزة:

. ما رأيك، يا جنرال؟

فردّ الآخر بسؤال جديد، متظاهرا بعد إدارك مقصده:

. رأيي في ماذا، يا سيّدي الوزير؟

فقال معاليه، وهو يصوّب نحوه نظرة ثابتة قويّة:

. أريد رأيك في الخلاصة... ما سرّ نجاتك من تلك المحاولات القاتلة والكمائن المرعبة؟ وهل أنت ممنوع حقّا من الموت؟

فأجابه ببساطة،ودون لفّ أو دوران:

. هكذا قالت لي عرّافة، ذات يوم، في بيت لحم؛ ولكنّي ما تصرّفت يوما، حتّى في أكثر المواقف حرجا، على أساس من هذه النبوءة؛ وسيّان لديّ الآن أن أموت في هذه اللّحظة أو

أعمّر ألف سنة.

فقال معالي الوزير:

.على بركة الله إذن...

... وهكذا، فإنّ سيادته قد دخل إلى مكتب معاليه جنرالا، وخرج منه قائدا عامّا أعلى لقوّات البرّ والبحر، ومستشارا ساميا لدى هيئات الدّولة العليا، ومسؤولا بالنّيابة على سلاح الطّيران، والمخوّل، دون شروط، في صلاحيّات واسعة في إعلان حالات الطّوارئ والحظر... ولكن هل يخفّف هذا الوسام العظيم الّذي ينوء به صدره من حدّة قلقه وتوتّره؟ لا بدّ أن يجيب عن السّؤال! لا يدري لماذا علقت بذهنه بعض الأبيات الّتي يعود صداها إلى زمن الضّجيج والصّخب، فراح يردّدها في تؤدة، في ظلمة معتمة تقوده إلى... المجهول:

«في الرّحيل الكبير أحبّك أكثر، عمّا قليل
تقفلين المدينة. لا قلب في يديك، ولا
درب يحملني، في الرّحيل الكبير أحبّك أكثر
لا حليب لرمّان شرفتنا بعد صدرك. خفّ النّخيل
خفّ وزن التّلال، وخفّت شوارعنا في الأصيل
خفّت الأرض إذا ودّعت أرضها. خفّت الكلمات
والحكايات خفّت على درج اللّيل. لكنّ قلبي ثقيل
فاتركيه هنا حول بيتك يعوي ويبكي الزّمان الجميل،
ليس لي وطن غيره، في الرّحيل أحبّك أكثر
أفرغ الرّوح من آخر الكلمات. أحبّك أكثر
في الرّحيل تقود الفراشات أرواحنا، في الرّحيل

نتذكّر زرّ القميص الّذي ضاع منّا، وننسى تاج أيّامنا، نتذكّر رائحة العرق المشمشيّ، وننسى رقصة الخيل في ليل أعراسنا، في الرّحيل نتساوى مع الطّير، نرحم أيّامنا، نكتفي بالقليل أكتفي منك بالخنجر الّذهبيّ يرقّص قلبي القتيل فاقتليني، على مهل، كي أقول: أحبّك أكثر ممّا قلت قبل الرّحيل الكبير. أحبّك لا شيء يوجعني لا الهواء، ولا الماء... لا حبق في صباحك، لا زنبق في مسائك يوجعني بعد هذا الرّحيل...»[٤]

٤ محمود درويش. «في الرّحيل الكبير أحبّك أكثر...»

((٥٠))

اللّعنة! ماذا يحدث في هذه المدينة الزّئبقيّة؟ هذه المدينة ابنة الإبرة؟ هذه المدينة القلّب؟... يكاد رأسي ينفجر، وتعروني رغبة كافرة في الخروج من جلدي. اللّعنة! في حياتي، لم يساورني مثل هذا الإحساس بالانحدار... هذا الإحساس بالهوان والنّدم؛ وهو اليوم إحساس مدمّر قاتل، لا يقبل أيّ مصالحة أو مهادنة!... أين المهرب، يا إله الفقراء المستضعفين؟ أين المفرّ، ولا بحر يقبلني، ولا أرض تستضيفني؟ لو أكون سمكة فقط! أو طائرا! أو حتّى وحشا بريّا مواربا في أتون دغل لا يبين! إذن، لارتحت، وتركت المدينة. لأهلها. ينعب فيها البوم وتنعق فيها الغربان!... ألا متّسع للنّجاة؟! ألا فرصة للخلاص من هذا الغول اللاّمرئيّ المتربّص في مكان ما... هذا اللّغز الأسود القاتم شديد القتامة؟!!... هل كتب عليّ أن أرتدّ قرونا إلى الوراء لأكون «دون كيشوت» مشوّها يصارع. بجهله. طواحين الهواء. اللّعنة! أبن أيّها الطّيف إن كنت طيفا... أبن أيّها الخارق العملاق إن كنت خارقا عملاقا... أبن إن كنت عفريت القنّينة والتهمني دفعة واحدة، فلن أبالي... خلّصني من هذا الخوف؛ أجل، من هذا الخوف... خلّصني من هذا الموت

البطيء الّذي لا تمرّ لحظة من اللّحظات إلاّ وأحسّه بثقل الدّنيا ووطأة الأبد. اللّعنة! فليذهب المجد. فما أنا بالّذي يطلب مجدا مشوّها معفّرا بالدّماء! وليذهب العالم بأسره إلى الجحيم. ولا غضاضة في أن أذهب معه! فقط. ليتوقّف هذا الطّنين الّذي ما أفتأ أسمعه ينغل في أذني! فقط. ليهدأ القلب في هجوعه الأبديّ... أيّها الطّيف... أيّها العملاق الشّبح... أيّها العفريت. لتأخذ المجد بسنواته؛ ولتأخذ الألقاب والمناصب والمجد والقيادة والسّيادة. فلست أبالي؛ ودعني أنم ساعتين دون هواجس أو كوابيس... ساعتين فقط. فلست أطلب أكثر من ذلك. اللّعنة!

سيّدي الجنرال،

وحدك... وحدك تقف على أرض رخوة، متداعية الأطراف، قد تفتح فاها في أيّ لحظة لتبتلع كلّ شيء: ماضيك الحافل، وحاضرك المضطرب الحزين، ومستقبلك الغائم... وحدك، بين حدود هذه الجدران الصّمّاء، وسط ظلمة شديدة الحلكة فرضتها على نفسك عامدا، بعد أن ضاقت بك الأرض على رحابتها، بإيصادك الأبواب جميعها، وإغلاقك النّوافذ، وإطفائك لجميع مصابيح القصر. وحدك، سيّدي الجنرال، فماذا تراك تؤمّل من كلّ هذا؟ متى تراه يتوقّف الزّمن لتبدأ من النّقطة الصّفر؟ وهل يكون عودا على بدء؟ وهل العود أحمد في مثل حالتك هذه؟ وأنت وحدك، حزين، معزول، ومستوحش، قد أهملت العناية بلحيتك فطالت حتّى غدت مرتعا لكلّ حشرات الكون، ونمت أظافرك. فاستقرّت بها

الأوساخ؛ وشعر رأسك صار مستنقعا أزليّا قد زادته قتامة الغرفة سوادا على سواد. فأين المفرّ؟ وأنت ملاحق في كلّ مكان، محاصر بين الحدود، معتقل في خضمّ الأتون القصيّة، لا تمتلك شيئا سوى شهادة هويّة لم تعد هويّتك، وماض حافل خلّفته وراءك، وتشكّ الآن أنّه ماضيك أنت، الجنرال فاروق زيدان الجبيليّ... وهذا الاسم العظيم الطّنّان ذو الجرس، هل هو حقّا اسمك؟ أم أنّه اسم يمتّ إلى شخص آخر يشبهك، كنت التقيته في مكان ما، على مفترق الطّرق، أو في أحد المضائق السّبعة القابعة وراء حدود الخليج، ثمّ افترقتما، فجأة، دون كلام كثير أو ضجيج؟ تكلّم، سيّدي الجنرال، وقل فيما تفكّر الآن... قل كلّ شيء، ولا تخف، فهذه لحظة الاعتراف والحقيقة!!

اللّعنة! أين علبة السّجائر؟ أين المنضدة، ابنة الإبرة هذه؟ إنّي أكاد أنفجر، وأحسّ رأسي يطنّ كقفير النّحل؟ ألا تبّا لهذا الجوع القاتل... جوع إلى رائحة الدّخان... حتّى في الظّلمة العاثرة كنت أهتدي إلى العلبة، رائحتها النّفّاذة تقودني إليها، نسغ الحياة الكامن فيها. فماذا حدث اليوم؟ اللّعنة! هل انتهيت؟ هل فقدت السّيطرة على حواسّي؟ أم أنّي في بداية الطّريق إلى أقاصي البرزخ العلويّ، بلا روح تطربني لحظة الموت، أو قلب يغريني؟ اللّعنة! أين علبة السّجائر... أين؟ يا إله الفقراء والمستضعفين، قدني .بعنايتك القدسيّة . إليها... يا إله اللّيل والنّهار... يا إله اليقظة والحلم... يا إله الصّمت، ساعدني على الصّمت!!... خطوت مخترقا السّواد

الّذي يلفّني... تحسّست الأشياء الغريبة الباردة بأطراف أناملي... سقطّت مرّات... ونفر الدّم من أنفي شلاّلا من المقت والقرف حين اصطدم وجهي بحافّة المنضدة؛ ولكنّي، مع ذلك، دخّنت... دخّنت بشهيّة كافرة لم أستشعرها فيما مضى من سنوات مجدي الأثيل، وأيّام حياتي العجاف... أنا لست جنرالا! أنا مسكين جائع إلى قليل من الدّخان، تعلكني وحدتي، وأصير عبدا أمام الحضور القاهر لأنياب الخوف الصّفراء؛ فأين أنت؟ اللّعنة! أين أيّها الطّيف إن كنت طيفا... أين أيّها الخارق العملاق إن كنت خارقا عملاقا... أين إن كنت عفريت القنّينة والتهمني دفعة واحدة، فلن أبالي... خلّصني من هذا الخوف... أجل، هذا الخوف! خلّصني من هذا الموت البطيء الّذي لا تمرّ لحظة من اللّحظات إلاّ وأحسّه بثقل الدّنيا ووطأة الأبد. اللّعنة! فليذهب المجد، فما أنا بالّذي يطلب مجدا مشوّها معفّرا بالدّماء! وليذهب العالم بأسره إلى الجحيم!!

سيّدي الجنرال،

كانت هناك بداية... كان الأمل يمتدّ أمامك نشوان طروبا، يفتح جناحيه على اتّساعهما ليحتضنك مهنّئا؛ وأنت القائد... وأنت الزّعيم... وأنت السّيّد، لم تدع حيلة من الحيل إلاّ جرّبتها، ولا وسيلة من الوسائل إلاّ اهتديت إليها بشغف الطّفل المشاكس، وحنكة العسكريّ المجرّب... في كلّ ناصية عين ترى... في كلّ طوار بصّاص يتجسّس ويتسقّط الأخبار... في كلّ مقهى... في كلّ حارة... كنت أكثر حضورا، حتّى وأنت غائب،

قد تظهر في أيّة لحظة... في أيّ مكان قد يشاهدونك... وأنت ممسك بأطراف الخيوط جميعا، تعرف كلّ شيء، وتسمع كلّ همسة مهما بلغت درجة خفوتها، وكلّ كلمة عابرة... وكلّ كلمة خائنة... وكلّ كلمة هاجعة... وكلّ كلمة صامتة، حتّى أنّك كنت تسمع الزّوج يناجي زوجته في حميّا المضاجعة من وراء جدر مسوّرة وأبواب مغلّقة ونوافذ مقفلة... كنت تعرف كلّ شيء، سوى أن تكشف المختطف أو المجرم الّذي كان يخفي الجثث جثّة إثر جثّة... ربّما كان يهزأ من كلّ محاولاتك، سيّدي الجنرال؛ وربّما كان أقرب إليك ممّا تتصوّر! ربّما كان متقمّصا فيك، متجسّدا في أعماقك! ربّما يكون موجودا في المكان الّذي لا يخطر ببالك إطلاقا أن يكون موجودا فيه... وربّما... وربّما... فأين المفرّ؟ وأنت الملاحق في كلّ مكان، محاصر بين الحدود، معتقل في خضمّ الأتون القصيّة، لا تمتلك شيئا سوى شهادة هويّة لم تعد شهادتك، وماض حافل خلّفته وراءك وتشكّ الآن أنّه ماضيك أنت، الجنرال «فاروق زيدان الجبيليّ»... وهذا الاسم العظيم الطّنّان ذو الجرس، هل هو حقّا اسمك؟ أم أنّه اسم يمتّ إلى شخص آخر يشبهك، كنت التقيته في مكان ما، على مفترق الطّرق، أو في أحد المضائق السّبعة القابعة وراء حدود الخليج، ثمّ افترقتما، فجأة، دون كلام كثير أو ضجيج؟ تكلّم، سيّدي الجنرال، وقل فيما تفكّر الآن... قل كلّ شيء، ولا تخف، فهذه لحظة الاعتراف والحقيقة!!

اللّعنة! هذه الأصوات، ألا ما أشأمها وأبغضها إلى نفسي! إنّها موغلة في قرون سحيقة من الحزن السّجين... منذرة في

رتابتها الصّامتة المتفجّرة، تبعث ألما بداخلي، وتشدّني إلى مصير قاتم لا مفرّ منه... اعزفي أيّتها الألحان... دعيني أتألّم كلّما سمعتك... اغزي قصري الصّامت المغلق، فهاتان عيناي أبذلهما . طوعا . لعازفيك، هؤلاء المواربين في مسوح كمسوح الرّهبان، وهذا قلبي أجتثّه من مكمنه لأقدّمه قربانا على أعتاب تلك الجوقة الّتي رثت لعزلتي، فجاءت تسامرني في هذا الهزيع من اللّيل... وهاتان يداي... وهاتان رجلاي... وهذا كلّ ما أملك... من أجل أن أرى الحقيقة وحدي... من أجل أن أطّلع على الكشف من خصاص النّافذة المغلقة!! وأصيح في وجهي خادمي، وأشير إلى حيث أرى كلّ شيء وأسأله:

. انظر، هل ترى شيئا؟

فيقول مشفقا:

. إنّي لا أرى شيئا، يا سيّدي!

أجل، وحدي أرى الجوقة والآلات والعازفين موارين في مسوح الرّهبان؛ والقائد صاحب الكمان، وهو يتقدّم بخطى ثابتة نحو الشّرفة، وكأنّه أحسّ بوجودي من وراء الخصاص... على شفتيه ابتسامة سرمديّة توحي بكلّ شيء، ولا شيء على الإطلاق؛ وأنا الحزن الهلاميّ تشربّته قطرة قطرة، وقطرة إثر قطرة، واليأس لفته مع لفائف الدّخان وابتلعته دفعة واحدة حتّى أحسست به ثقيلا كأبد في أعمق أعماقي... أستمع إلى «معزوفة الخوف» تعزف على شرفي، و «معزوفة الصّمت»، و «معزوفة الحضور»، و «معزوفة الغياب»، و «ومعزوفة الموت»، كلّ ليلة، عندما ينام العالم من حولي، مستسلما

لأحلام عمرها خمسة ملايين سنة؛ والقائد صاحب الكمان/ الشّبح الغائب أو الغائب الشّبح يقدّم رجلا ويؤخّر أخرى، وهو يشرئبّ بعنقه نحوي، رافعا قوسه، وعلى شفتيه الرّقيقتين... شفتيه الضّخمتين... شفتيه الجميلتين القبيحتين نفس تلك الابتسامة السّرمديّة، وطيف غيابي حاضر فيهما. اللّعنة! أين علبة السّجائر؟... أين؟ يا إله الفقراء المستضعفين، قدني . بعنايتك القدسيّة . إليها... يا إله اللّيل والنّهار... يا إله اليقظة والحلم... يا إله الصّمت أغنّي على مزيد من الصّمت!!... أنا لست جنرالا! أنا مسكين جائع إلى قليل من الدّخان، تعلكني وحدتي، وأصير عبدا أمام الحضور القاهر لأنياب الخوف الصّفراء؛ فأين أنت؟ اللّعنة! أبن أيّها الطّيف إن كنت طيفا... أبن، أيّها الخارق العملاق... أبن إن كنت عفريت القنّينة والتهمني دفعة واحدة، فلن أبالي... خلّصني من هذا الخوف... أجل، هذا الخوف... خلّصني من هذا الموت البطيء الّذي لا تمرّ لحظة من اللّحظات، إلاّ وأحسّه بثقل الدّنيا، ووطأة الأبد. اللّعنة! فليذهب المجد، فما أنا بالّذي يطلب مجدا مشوّها معفّرا بالدّماء! وليذهب العالم بأسره إلى الجحيم!!

سيّدي الجنرال،
«أجساد الشبّان هذه
هؤلاء الشّهداء المعلّقين من المشانق .
هذه القلوب الّتي اخترمها الرّصاص الكالح،
والّتي تبدو باردة، جامدة،
إنّها لتحيا في أمكنة أخرى، متدفقّة الحيويّة.

إنّهم يحيون في شبّان آخرين، أيّها الملوك!
إنّهم يحيون في أشقّاء مستعدّين لأن يتحدّوكم ثانية.»[٥]
سيّدي الجنرال،
«هنا، مرّة ثانية،

تولد المدن السّراب، ويهرب ملح البساتين بين السّماء وبيني: أرى من بعيد مزامير داود ترقص في بيدر التّوت، قرطاج تعلو وتعلو، وسيفا يهاجم ناعورة الماء، هذي سفائن عوليس تحجب بهو البلاط... بعيدا على شاطئ الحزن. كم سنة وشّح الحبّ مرجانة البحر، ومن ذا يعلّق متراس بابل خلف المحيط؟ ومن غيرك الآن قد يحتسي خمرة المهرجان، حبيبي؟ ستولد في جبّة الله، من فرح القادمين وهفهفة القلب في خوص النّخل، إلياذة السّفر المتعتّق شوقا وتين. وتولد أسماؤك المترعات بأقباء كلّ القصائد: طوبى لبوّابة الطّور، طوبى لمن دفّأته حروف التّباريح من ألف عام، بلغز المعاني، فلم يكترث للّذين يدسّون أحلامهم رقية بوشيش الشّموع وسرّ الجراب. متى سوف تأتي، ويأتيك من هرب المتعبين سباتي؟ حبيبي، متى سوف تهرب من كلّ حلم، ومن كلّ عمر، ومن كلّ نجد، ومن كلّ فارس...؟ غبار مسافات حبّ بنيناه بالشّمع، سحر نثر الورود بباحات كلّ الغزل. إذا متّ قبلي. وإن متّ بعدك. أمل للضّريح نواقيس بلبيس، واكتب نشيد النّجوم على الشّاهده:
(سوف يحرقنا اللّيل مثل القمر،
سوف يأتي الخريف بأحزان أيلول،

٥ من قصيدة للشّاعر الأمريكي «ولت ويتمان»

يأتي النّدامى، وكأس النّبيذ، وبعض من الذّكريات.)
هنا، مرّة ثانية،

لا تقف في ممرّ الخرائط. لا تحترف لعبة الاختفاء، وهرّب خطاك بصنّارة القلب. ارم من الشّارع المستطيل مذابح نيرون كي يصطلي بضياع المدينة أهل المدينة. هدهد ليالي المريدين، واكتب عن الجوع كي لا تجوع. سيدخل من فوّهة القلب سرب النّوارس، قد يلتقي ساحل التّيه نجما أخيرا وبعض الحروف... بلى، تستحيل القصيدة يختا يجذّف في القلب، يصحب سرّ النّخيل على دفّة الرّوح، بين اغتراب الشّوارع... عوليس! من قرأ البحر واحترف الهرب السّامريّ؟ خوار... خوار. ولا شيء في مدن الملح! طروادة النّار أعطت حصان الجزيرة كلّ المفاتيح وامتدّت الأغنيات على سحنة الآلهه. وحدك، الآن، عوليس: إسفنجة، دارة، وامتداد. تليك الأصائل، يشربك الماء مثل القطا... شاطئ يرتخي. وحدك، الآن، عوليس: شرنقة وهديل يمازجه الامتلاء!!»[٦]

اللّعنة! منذ متى وهذا الصّوت يغزوني؟ منذ متى وهذا الصّوت يقتحمني دون هوادة؟ إنّي لا أكاد أغفو، حتّى ينفجر بداخلي كبركان طال خموده لآلاف السّنين، وراق له أن يعربد فجأة على أطلال جثّتي الميّتة المحترقة...

.تعال معي... تعال معي...
وأصرخ من الهوان والقهر:
.من أنت؟

٦ من قصيدة «وداعا... أيّها الغار المقدّس»

ويعود الصّوت ثانية لامباليا بصراخي... لامباليا بهواني... لامباليا بقهري:

.تعال معي... تعال معي...

هذا الصّوت الآخر... الصّوت الغائب. لا شكّ أنّي سمعته في زمن مضى، في زمن الانفجارات والكوارث، زمن الموت الّذي يولد على أنقاض كائنات أسطوريّة بائدة جاءت من عصور ما قبل الولادة والبعث؛ إنّه صوت حوريّة البحر ذات الفتنة الصّارخة، الآتية من أعماق مياه الأرخبيل، حاملة معها حبلي السّرّيّ لتلفّ به رقبتي من جديد، لأعود، كما كنت بدءا، جنينا يحنّ إلى دفء الرّحم، دون بدايات تلفظني، أو نهايات تشدّني إلى أسرار الحياة والموت.

.تعال معي... تعال معي...

إنّي لأكاد أراها، هذه الظّلمة المنيخة الضّالّة، لا بعين الجنرال المستوحش في غرفته كخلد طالت عليه أيّام القحط والجفاف، ولكن بعين بصيرتي نصف المغمضة... إنّي لأكاد أحسّ جمالها القاتل الجهنّميّ يلفّ سواد المكان، فيحيله إلى زرقة عاتية، قد امتزجت بجميع ألوان الكون، واختزلت في أتونها كلّ أسفار التّوراة، وكتب الإنجيل المقدّسة، وجميع رحلات القدّيسين إلى أرض اللاّعودة... إنّي لأكاد أتشرّب حمرة شعرها الغسقيّ، وألامس مكامن أسرارها العاصفة العابثة...

.تعال معي... تعال معي...

وأسمع صوتها هذه المرّة، يتردّد في كلّ زوايا القصر، ويتجاوب صداه عبر أكثر الأركان انزواء وبعدا؛ فيخيّل إليّ،

حينئذ، وكأنّ المكان قد اهتزّ بما فيه، محدثا جلبة عارمة، وصليلا كصليل السّيوف... فذي النّجفة أسمع احتكاك مصابيحها، والأرائك تعلو فجأة عن الأرض، والأواني أسمع صوت سقوطها على أرض المطبخ... ويتناهى إليّ نباح كلاب، من الأقاصي، وصياح ديكة أخطأت تحديد الوقت، ونهيق حمار ضالّ، وأصوات تلاوة، وحفل قدّاس منبعث من مكان ما، ونحيب ممتزجا بأصوات ندب... هذه، دون شكّ، بقايا الجنازة، وذا النّعش، وهؤلاء المرتّلون والمشيّعون، فمن الميّت المسجّى، الّذي لم يقض بعد؟ يا إله الفقراء المستضعفين...! يا إله الصّمت...!! اللّعنة! هذا أنا!! وما هذا الحبل الّذي أراه يتدلّى من السّقف فيلتف بكلّ ليونة حول عنقي؟ وما هذه الخفّة الّتي اعترت جسدي فجأة؟ وما هذا الغياب الّذي أجد نفسي مواربا بين أتونه، وأنا موغل في أصل حضور لم ينته بعد؟!!

.تعال معي... تعال معي...

.إلى أين؟

.إلى هناك.

.هناك أين؟

.هناك حيث لا تجوع ولا تعرى، ولا تظمأ ولا تضحى!!

.ومن أنت؟

.سمّني الطّيف... سمّني الصّوت الّذي ينبعث من أعماقك إذا شئت.

مرحى! مرحى! أبن أيّها الطّيف... أبن أيّها الخارق العملاق...

أبن أيّها العفريت والتهمني دفعة واحدة، فلن أبالي... خلّصني من هذا الخوف؛ أجل، هذا الخوف... خلّصني من هذا البطيء الّذي لا تكاد تمرّلحظة من اللّحظات إلاّ وأحسّه بثقل الدّنيا ووطأة الأبد... والمجد؟! فليذهب المجد، فما أنا بالّذي يطلب مجدا مشوّها معفّرا بالدّماء! وليذهب العالم بأسره إلى الجحيم!!

وداعا، سيّدي الجنرال.

وداعا، سيّدي الجنرال.

((٦٠.))

كانت التّعليمات الّتي أصدرتها هيئة الأركان العسكريّة العليا، وأقرّتها قوانين حالات الطّوارئ الاستثنائيّة الّتي تمّت المصادقة عليها في زمن بعيد آخر، موغل في القدم والنّسيان، حينما كانت الحمم البركانيّة تقذف بدل النّيران والسّوائل الكبريتيّة هياكل عظميّة متآكلة لحيوانات منقرضة يعود تاريخها إلى عصر الانزلاقات الثّلجيّة والانحرافات الكوكبيّة عن مدارات غير منظورة، وعندما كانت مياه المستنقعات تعبر في مدّها إلى آخر تخوم اليابسة، حيث تلتقي بأكثر الأنهار طولا في العالم، وتصبّ في الأعماق الموحشة لبحيرات بائدة الأسماء، وتلتحم ببحار الأرض جميعها، وتفيض على المحيطات الخمسة لتحدث أعنف فيضان شهده تاريخ الأجيال السّكسونيّة، وسوف لن تشهد مثله الأجيال القادمة المنحدرة من سلالة الشّمبانزي المؤصّلة... هذه التّعليمات كانت صارمة، تضوع الصّرامة من تحت سطورها المكتوبة بأحدث الأجهزة الإلكترونيّة متناهية الدّقّة، وفي سطورها المقروءة بطبقات تختلف نبراتها من خبيئة لا تكاد تبين إلى خشنة مستبدّة في جهوريّتها، لرجال متأنقّين ذوي شوارب رقيقة تحاكي في رقّتها

شوارب فرسان القرون الوسطى، ونساء جميلات يضعن على رؤوسهنّ شعورا مستعارة، بين حمراء وصفراء وخضراء، ويضمّخن شفاههنّ الرّيّانة بأحمر شفاه فاقع اللّون، ويطلين وجناتهنّ ببودرة باهتة، ويطرفن بأعينهنّ الفاتنة كأنّهنّ يغمزن... رجال في ميعة الشّباب ونساء ناضجات فارهات يظهرن بانتظام قيصريّ، من السّاعة الصّفر من صباح كلّ يوم إلى السّاعة الصّفر ليلا، وراء شاشات القنوات الثّلاث، بما فيها القناة الخاصّة بالإعلانات؛ وتعلو أصواتهم عبر أثير موجات الإذاعات العشر المبثوثة برامجها في كامل أنحاء العالم، دون انقطاع... كانوا جميعا كأنّهم في سباق جهنّمي مع الزّمن القابع في قاع بئر ما له قرار على أرض جزيرة منسيّة جرفها الطّوفان، ستّة وثمانين وأربعمائة ميل، خارج حدود العمار المأهول، على امتداد اثني عشر يوما، وخمس عشرة ساعة، وثمان دقائق، وعشرين ثانية، لم تتوقّف أصواتهم المدرّبة بشدّة الانضباط والأناقة على الحفظ والاستعادة والاسترجاع، عن إذاعة الخبر بحذافيره... بكامل تفاصيله... بكلّ دقّة... بكلّ جزئيّاته الضّمنيّة والصّريحة، المسكوت عنها والمجهور بها... ونقلته كلّ صحيفة، بما فيها صحف المعارضة، وأكّدت على نجاعته مستعرضة شريط الجرائم الأخيرة، الّتي كانت السّبب الحاسم في إقرار التّعليمات الصّادرة عن هيئة الأركان العسكريّة العليا، وإضفاء الشّرعيّة عليها...

الأصوات الّتي كانت تتردّد هنا وهناك، في اللّيل والنّهار، كأنّما هي في مضمار السّباقات الطّويلة مع شيء ما، لا اسم

له، أو قوّة خارقة بإمكانها أن تدمّر كلّ شيء، كانت كلّها، ودون استثناء، صدى لصوت واحد متفرّد، ظلّ لأحقاب طويلة يهوّم في مجاهل الأقيانوس، قد منحته عزلته فرصة لتراكم صمته الّذي أصبح يهدّد بالانفجار في كلّ لحظة، غير آبه بالسّكون الكونيّ العجيب، أو رائحة الزّهور اللّيليّة الّتي تنتشر في جوف الظّلمة لتغازل أحلام النّائمين على أسرّتهم في شرفات عالية مشرعة النّوافذ... هذا الصّوت الجبّار ذو الجرس، الّذي يحاكي في انفجاره صوت ارتطام الأمواج العاتية على صخور شاطئ مهجور، وصلصلة السّيوف في معركة محكوم على جنودها سلفا بالخسران المبين، وصوت انشقاق جوف الأرض عن طبقات كلسيّة ذات أحافير رسمت بين ترسّباتها صور حيتان مازالت على قيد الحياة، وتماثيل نصفيّة لقدّيسن لم يسمعوا بالمسيح الدّجّال، وصورة العنقاء كما تخيّلها إنسان الكهوف الأوّل، ومشاهد من حرب طروادة الظّافرة ورحلة عوليس في الجزائر السّبع، والبحار السّبعة، والمحيطات السّبعة... هذا الصّوت الخارق الّذي ظلّت نبراته السّحريّة المجلجلة تتردّد على امتداد أربعين يوما في كلّ مكان ابتداء من صحراء الهلاك في الشّرق، والجبال الشّامخة الحزيزة الّتي لا تدرك قممها، ولا ترى أعاليها إلاّ بمضخّمات عملاقة للصّورة، والسّهول الخضراء المجهولة وراء سدّ يأجوج ومأجوج، حيث ترعى خيول جامحة يركبها رجال ذوو قامات قصيرة، وشعور مجعّدة، ووجوه صفراء... يركبونها دون سرج حيث يعبرون على متونها جميع الكواكب والنّجوم النّاريّة والمنطفئة

والأجرام في المنظومات الشّمسيّة كلّها، والدّروب السّماويّة المعروفة والّتي لم تعرف بعد... هذا الصّوت ذو الجرس الّذي يتردّد في أعماق وديان الضّياع، والدّروب المؤديّة إلى كلّ شارع فرعيّ من شوارع العالم المعمور، والدّروب الّتي لا تؤدّي إلى أيّ مكان، وتقود إلى مسارب ضيّقة في جبال أسطوريّة... هذا الصّوت الّذي نجح في أن يخترق حدود الزّمان والمكان، ويبلغ جميع الآذان، ويسمعه النّائمون في أحلامهم وكوابيسهم، وتتصدّع لنبراته الحيطان، وتضع الحوامل على جرسه مسوخا ذوات رؤوس لها عين واحدة وثلاثة أنوف وفم واحد أشرم، وتسقط جرّاءه أواني الطّبخ في غرف المطبخ، وآلات الغسيل في غرف الحمّام، والمكتبات المترفة وأجهزة التّلفزيون والرّاديو والهاتف، وكلّ الكراسي والكنبات في غرف المعيشة... هذا الصّوت الّذي لا بداية تسبقه ولا نهاية تتلوه...

. إنّي أشتمّ رائحة الجريمة... رائحة الخيانة الّتي عجزت الصّناديق الخشبيّة المقفلة، والعلب القصديريّة الصّدئة، أن تمنع انتشارها في سمائنا الزّرقاء العابقة بشذى الرّياحين، وأريج الورود، ورائحة الأقحوان... إنّي أشتمّها، وأحسّ لها في أنفي رائحة كريهة، أشبه بتلك الرّائحة المتعفّنة الّتي يصدرها رفيف الأسماك الميّتة على امتداد شواطئ المتوسّط. لا، لا مجال للصّمت بعد اليوم... هذا البلد بلدنا، وهذه الأرض أرضنا، وسنضرب على أيدي العابثين بشدّة... المجرمون المأجورون... المرتزقة الهاربون عبر منافذ التّاريخ وكواه... القادمون بهزائمهم من وراء أسوار قرطاج المحترقة...

المتشرّدون ذوو الأسمال الحائلة الّتي وجدت مطمورة في كهوف إنسان ما قبل التّاريخ المظلمة... الخفافيش مصّاصة الدّماء، لا بدّ أن نعثر عليهم!! ستقودنا إليهم كلابنا البوليسيّة المدرّبة بعناية على الشّمّ والمطاردة والاقتناص: سنتعقّبهم بكعوب البنادق طويلة المدى، يحملها جنود شرسون تعوّدوا على العزلة والجوع والظّمأ، قضوا هزيعا من حياتهم في الكهوف والأنفاق، يشربون إذا ظمئوا عصارة النّباتات البريّة، وإذا جاعوا يأكلون الأرانب حيّة، بأمعائها وجلودها ورؤوسها، ويصطادون الخنازير الجامحة بالأنشوطة، ويقتاتون على لحوم الفيلة مقدّدا، ويدأبون على صبر كصبر الإبل... سنمنع عنهم الهواء الّذي يتنفّسونه؛ في كلّ ذرّة منه سندسّ مسدّسا متربّصا، وفي كلّ مكان عسكريّا متخفيّا لا يرى... البحار الغاضبة... الأمواج الهدّارة... الأعاصير... الرّياح الموسميّة الجافّة... فوّهاتها الفاغرة، قوّتها المدمّرة، ستكون طليعتنا في هذه الحرب... بلى، إنّها الحرب... حرب مقدّسة لكشف خيوط الجريمة... لكشف رائحة الخيانة. لذلك، فإنّي أعلن أمامكم ما يلي، فاسمعوا وأطيعوا:

. المادّة الأولى: فرض حظر الجولان، ابتداء من يوم الأربعاء، ٢٠ تشرين الثّاني ١٩٧٦، من السّاعة السّادسة مساء إلى غاية السّاعة السّابعة صباحا، ولا يرفع الحظر إلاّ بتصريح مكتوب ومعلن عنه من لدن هيئة الأركان العسكريّة العليا، ومصادق عليه بالإجماع من مجلس الشّعب الوطنيّ.

. المادّة الثّانية: تجنّد جميع الطّاقات والقوى الحيويّة في

سلاحي الجوّ والبحر. كما تستنفر كلّ قطع جيش البرّ، وتقع الاستعانة. في كلّ الأحوال. بالبوليس والشّرطة ورجال الدّرك من أجل الكشف السّريع عن مصدر الجرائم المشينة الّتي تستهدف أمن البلاد والشّعب.

. المادّة الثّالثة: يعتبر خارجا عن القانون كلّ شخص لا يحترم أوقات الحظر، وكلّ شخص يضطرّ، وتحت أيّ ظرف ولأيّ سبب من الأسباب، إلى خرق قانون الحظر.

.المادّة لرّابعة: كلّ شخص يعثر عليه في الشّارع بعد السّادسة مساء يرمى فورا بالرّصاص، ودون إمهاله للاستظهار ببطاقة هويّته أو التّعريف بنفسه.

... كانت العصافير قد هجرت أعشاشها، متّجهة صوب مناطق أكثر دفئا، حيث الشّمس تتلوّن بألوان الحرباء الاستوائيّة، والرّياح الموسميّة تنقلب إلى نسيمات باردة مشبعة برطوبة البحر؛ وكانت الأشجار، على اختلاف أنواعها وأسمائها . أشجار صغيرة جدّا مستدقّة السّيقان، وأشجار جبليّة ذات أوراق كبيرة ضخمة مبسوطة كراحة اليد، وأشجار معمّرة عملاقة أبادت الزّمن منذ آلاف السّنين ومازالت متربّعة على أنقاضه ... هذه الأشجار جميعها كانت تصدر أصواتا حزينة رتيبة، أشبه بجهامة النّواح في احتفال جنائزيّ لميّت مات مرّتين؛ وكانت أغصانها اللاّمبالية تحفّ حفيفا متواصلا، ثمّ تسقط على الأرض متوانية، مواربة في صفرتها الفاقعة السّاكنة اليائسة! إنّه الخريف أخيرا! وقد رحل من قبله الصّيف مهزوما، يكتنفه شعور بالذّلّة

والانكسار، يعلو وجهه الباهت شحوب ثلاثة أشهر بكاملها، بكلّ أيّامها ولياليها، وقد غطّت على حرارتها الحارقة القاتلة حرارة الأحداث الّتي اختزلت كلّ الفصول الأربعة في فصل واحد فوق الزّمان، خارج الحدود المحدّدة لكائن محكوم عليه بالإعدام بحكم مهزلة الانتماء... إنّه الخريف الكالح الحزين، الّذي يدخل عبر المنافذ والكوى، دون استئذان، ويطبع كلّ الأشياء، داخل المدينة وخارجها، بلونه الرّماديّ الضّارب إلى كثافة لزجة شديدة القتامة... السّماء العظيمة الواسعة الكابية، جزز السّحاب الكثيفة المتراكبة في انتظام مثل فيلق من الجنود قد طوّحت به المسافات والأبعاد داخل صحراء النّسيان، النّباتات المشرئبّة بأعناقها الأزليّة، الأرصفة والشّوارع الإسفلتيّة المضمّخة بقطرات الرّذاذ الأولى، الطّابور اللاّمبالي في رحلته اللاّنهائيّة من قبل أوّل بزوغ للشّمس إلى آخر انطفاء للقرص الكونيّ، محترقا بين أحضان جبال هرمة على التّخوم، تتدافع داخله الحشود، يصدرويورد، ولكنّه لا يتوقّف أبدا عن الحركة، أشبه ما يكون بجسد هلاميّ... إنّه الخريف بروائحه الحييّة النّفّاذة في الأركان القصيّة من مقاه معمّرة على النّواصي، في الألق اللّيليّ، في دور الحبّ الّتي تترك أبوابها مواربة لروّاد منتصف اللّيل، في تيه الرّوح، في تلك الغرفة الصّغيرة، الّتي تشبه دهليزا تحت الأرض، على ذات السّرير المهلهل، الخالي من الملامح والألوان... إنّه الخريف أخيرا!!

لم يكن عليّ أن أراجع اليوم والتّاريخ في التّقويم المثبت على

جدار غرفتي لأدرك أنّ خريف الحزن واليأس قد هلّ بطلعته أخيرا، وإنّما كان يكفي أن أستشعر ذلك الصّداع الغريب في الرّأس، والارتخاء في المفاصل، وفقدان الشّهيّة حتّى أستثبت الحقيقة الّتي طالما حيّرتني وسيلة الكشف عنها، والّتي لا تخضع لأيّ منطق أو نسق عقليّ؛ وقد انتهى بي المطاف، بعد فشل جميع محاولاتي في البحث والتّقصيّ، إلى تقبّل الأمر، كما هو، وبقدر من الطّمأنينة أحسّ كلّما انتابتني أنّي ملك متوّج دون مملكة؛ ذلك هو الإحساس بروعة خريف حزني ويأسي!! ولم يكن الصّداع الطّارئ، الّذي يطيف بي فجأة، وأشعر معه أنّ رأسي قد استحال بركة سائل سريع الاشتعال، قابل للانفجار في أيّة لحظة... لم يكن ذلك الصّداع لينسيني العذاب الّذي عانيته على امتداد ثلاثة أشهر، خلال صيف كان يكفي أن تضع البيضة تحت سماء حرارته المتوهّجة حتّى تنضج، سيّما وأنّي شخص سيّئ الحظّ لدرجة أنّي أفقد الحسّ السّليم في تقدير أكثر الأمور بساطة ووضوحا بمجرّد أن تهلّ جيوش الحرارة الكونيّة على حصون المدينة... كثير من أصدقائي كانوا يلحّون عليّ في الذهاب معهم إلى أماكن أكثر دفئا، حيث الشّاطئ والبحر والامتداد والسّكينة؛ كانوا يقولون وأطياف السّخرية بادية في سحنات وجوههم، ونبرات أصواتهم:

ـ ماذا يمكن أن يفعل أحدنا في هذه المدينة المقطوعة، في أشهر قيظ بهذه القساوة والحدّة؟

ثمّ تصبح نبراتهم أشدّ إغراء، وهم يحاولون إقناعي بجميع الوسائل هذه المرّة:

. هناك الشّاطئ... انظر! هناك الامتداد والبحر... انظر جيّدا! لا شكّ أنّنا سنقضيّ وقتا ممتعا هناك، ملفوفين في صمت الطّبيعة وسكون اللّيل...

ويشيرون إلى نقاط غير مرئيّة حين يتكلّمون، كأنّما يريدون تأكيد كلامهم بجعلي أرى عيانا كلّ ما يتحدّثون عنه، فأنظر إلى حيث يشيرون، وأحاول جاهدا أن أرى ما وراء عتمة تلك النّقاط اللاّمرئيّة، فلا أرى شيئا... وأتشبّث بالصّحراء... أستمسك بها حدّ الموت والهلاك، لأنّي لم أر البحر... أبحث عن الرّاحة في غرفتي الصّغيرة لأنّني لم أعرف الامتداد من قبل... وألوذ بالسّرير المهلهل حائل الألوان والملامح لأنّي لم أقتنع بعد لماذا يكون الشّاطئ خيرا من السّرير!!

ولكن...

هل يدفعني إلى يباسة الرّأس هذه قناعتي بجدوى الصّحراء؟ هل ما يجعلني أحرن أمام إغراء أصدقائي عدم رؤيتي للبحر، وكرهي المقيت لهذا الشّيء الذّي أرفض، دونما سبب، أن أره في حياتي؟ أم... هو الإحساس بعطالة مدمّرة تتملّكني، دون هوادة، وتنغل في كلّ خليّة من خلايا جسدي لتحرمني نعمة التّفكير بهدوء وسلام؟ أم هو فقط سوء حظّ من نوع آخر؟ على كلّ حال، ومهما يكن من أمر، فقد كنت أرفض، وبشدّة الاستسلام إلى إغراء أصدقائي؛ كما أنّ فكرة الخروج إلى أيّ مكان خارج حدود المدينة لم يتبادر إلى ذهني إطلاقا، وحتّى في ذروة إحساسي بالقرف والانتفاء... والحقيقة أنّي لم أكن أعرف سببا واضحا لهذا العزوف؛ ولم أكن أدري لماذا أصرّ

على النّفور من شيء يلتذّ به كلّ النّاس ويستمرئونه...!!

أنا كنت أنتظر الخريف... كنت أقاوم أشهر الصّيف بسالة لأنّي أعي جيّدا أنّه في مفتتح شهر من الأشهر الشّمسيّة سيطرق الخريف. خريف حزني ويأسي. باب غرفتي الصّغيرة، ويدخل ملتفّا بعباءته الرّماديّة ومعطفه الطّويل الكالح، ويجلس حذوي، على حافّة السّرير، ويقول دون مقدّمات:

. ها قد جئت أخيرا.

ليحلّ الصّداع برأسي إذن... ليغز البرد مفاصلي، فلست أبالي... ولأؤجّل الطّعام إلى لحظة الجوع القصوى... تكفي فقط لحظة اللّقاء هذه... لقاء هذا الزّائر الّذي لم يعد غريبا، والّذي أستطيع أن أستثبت ملامحه حتّى من قبل أن أراه ماثلا بحضوره أمامي... يكفي فقط أن أستعذب وحدتي بين زوايا الغرفة الأربع، وأنا أشعر أنّي موارب بين عطفيه، يغنّي لي أغنية سفره الطّويل فيما وراء الأقيانوس، عبر بحار ثلجيّة لا يذوب ثلجها على مدار السّنة، في مناطق نائيّة بعيدة لا تشرق بها الشّمس أبدا، فوق قمم جبال مجلّلة بخضرة أزليّة، مجتازا وديان الهلاك، وسهولا مترامية الأطراف أتت على خضرتها اليانعة الدّيدان، والتهمت نسغها جيوش الجراد الأصفر الغازية.

. مرحبا... ها قد جئت أخيرا.

إنّه الخريف... إنّه الخريف...

في اللّيلة الماضية، شعرت بوعكة خفيفة؛ وقد فكّرت في الذّهاب إلى المقهى لأتناسى الألم وسط أحاديث الأصحاب

والأصدقاء، إلاّ أنّني تذكّرت قانون الحظر الّذي لم تمض على تطبيقه سوى ثلاث ساعات وخمس وأربعين دقيقة، فأويت إلى فراشي مبكرا... في الحوش الكبيركان الجوّ مشحونا بحرارة خفيفة، ومزاج متقلّب تتجاذب أطرافه أياد رقيقة معمّرة، مدرّبة على المناورة وخوض الحرب في أيّة لحظة من احتدام الصّراع... جدّي فوق سريره، متيقّظ دائما، مفتوح العينين والأذنين، لا يدع شاردة ولا واردة إلاّ أحصاها، يناور مع القطط ببعض حصوات في يديه، وكلّ إحساسه ورهافة شعوره يجوسان في اضطراب دائم فضاء غرفة المطبخ حيث جدّتي تنتظر قدوم آخر العائدين من مملكة اللّيل السّاجية... انبعثت من المذياع الصّغير على سرير جدّي أطياف أغنية آتية من الزّمن المنسيّ، وهبّت نسيمات رقاق مشبعة برائحة النّدى المبكر، وومضت نجمة كبيرة ببريق خاطف من بين فرجة سحابة رماديّة مثقلة ببشارة جنين لم يحن أوان قدومه إلى هذه الدّنيا بعد.

كنت أهمّ بالدّخول من باب الرّواق المؤدّي إلى غرفة المعيشة ناحية اليسار عندما تناهى إلى أذنيّ الكليلتين دفق غريب من همهمات خافتة غير مفهومة، تصلني من هناك... حيث يقبع جدّي. في نفس الوقت، سمعت خليطا من الأصوات المشوّشة تنبعث من المطبخ، حيث انضمّت إلى جدّتي . في اللّحظة المناسبة. خالتي الّتي كانت في مكان ما لقضاء بعض الشّؤون... لم أنتظر طويلا لأدرك أنّ شرارة الحرب قد انطلقت، وربّما تحتدم في أيّ وقت من الآن، دون احتمال لهدنة مرتقبة

أو مصالحة... كانت تلك منازعات ضارية لجيل من الأجيال البائدة الّتي طوت خيامها، في زمن الفيضان الأخير، وحملتها على ظهور آخر الإبل الّتي نجت من وباء السّنين الدّابرة، وعبرت بها فيافي الصّحارى القاحلة، في ذروة القيظ والحرارة، تحت سماء نحاسيّة لدنة رصاصيّة، تلوح أمامهم أطياف السّراب، فيرون منعكسا على صفحة مراياها حدائق ذات أزهاروأطيار، ومغاني مبنيّة بطابوق أبيض صقيل وسط غابة من الأشجار النّادرة العملاقة... كانت منازعات ضارية تندلع فجأة، ولأتفه الأسباب، وكلّ وسيط يتدخّل لفضّها، يتحوّل هو نفسه إلى طرف حاسم من أطراف النّزاع؛ وفي هذه الحال، سيكون وضعه محرجا إلى أبعد الحدود، فإذا ما توصّل إلى إرضاء الجدّ والإصغاء إلى شكاته، يكون قد أوغر صدر الجدّة بالحقد ضدّه؛ وإذا ما سعى إلى تهدئة الجدّة، سيكون لزاما عليه أن يستمع إلى حكايتها الصّغيرة الّتي يعود تاريخها إلى ثلاثين عاما من الإهمال والكره وسوء المعاملة؛ وقطعا سيؤوّل الجدّ هذه البادرة البريئة على هواه، وسيعتبر ذلك منه تعاطفا يوجب العداوة الأزليّة والمقاطعة الدّائمة؛ فشعار جدّي الّذي لا يستنكف من رفعه دائما، وفي مناسبة أو غير مناسبة: «إذا لم تكن معي، فأنت ضدّي، ولا وجود لمنطقة حياد.»... لذلك، دأبت على الصّمت... أغضب بداخلي ولا أتدخّل... أنفعل بعنف، وأتجرّع مرارتي وأصمت... أكون بشكل أو بآخر طرفا من الأطراف المتنازعة، لكن في صمت، ودون أن يندّ عنّي ما قد يفضح خيبتي وعدم رضاي... أرثي لوحدة جدّي... يؤلمني

مرضه الّذي جرّه على نفسه منذ قيامه بالعمليّة الأولى، في جنح الظّلام، ودون أن يستشير أيّ فرد من أفراد العائلة... أتمزّق ألف مرّة، وأحسّ بوخز كوخز الإبر ينغل في أعماقي، لأنّي أدرك أنّ كلّ محاولة لإخراج جدّي من عزلته السّبعينيّة ستنقلب إلى مهزلة ساخرة على جثّة جدّتي الشّهيدة... إنّ أيّ حديث، مهما بلغت درجة براءته... وأيّة حكاية، مهما كانت موغلة في قدم الذّاكرة الجماعيّة... وأيّة حادثة تاريخيّة... وأيّ حديث... وأيّة سورة قرآنيّة... وأيّ مثل... وأيّة أحجية؛ لا بدّ أن يجد جدّي الوسيلة. المناسبة وغير المناسبة على حدّ سواء .لاستخلاص عبرته الحكميّة منها، ومفادها أنّ المرأة الّتي تعتبر جدّتي اختزالا لها وتلخيصا لا يمكن، بأيّ حال من الأحوال، أن يركن إليها، وهي عدوّة بإقرار من الله والدّيانات والشّرائع السماويّة وغير السّماويّة والدّساتير والقوانين واللّوائح، و... إلخ... إلخ...

يقول جدّي عندما تهدأ فورة غضبه ويروق مزاجه، ولكن بأسلوبه السّاخر الّذي لا يتخلّى عنه:

.يكفي أنّ حوّاء أخرجت آدم من الجنّة، وهذا يفسّر.في حدّ ذاته. كلّ شيء!!

فكّرت مرارا أن أزجّ بنفسي في سيل حديثه، لأبيّن له بعض خطئه، مستشهدا بكلّ ما يحضرني من أحداث وأقوال وأفعال، وبكلّ ما لا يحضرني من كلام الفلاسفة والفقهاء والمتكلّمين... (جدّي كان يحنّ إلى زمن كانت فيه المعرفة مطويّة في دفّتي كتاب ذي أحرف صغيرة جدّا، وأوراق صفراء!!)...

فكّرت في ذلك، إلاّ أنّني كنت أتراجع في اللّحظات الأخيرة، متحسّبا من المضاعفات السّيئة الّتي قد تنجرّ عن الحديث الّذي قد أخوضه مع جدّي في ساعة سوء طالع.

قلت لجدّي مرّة، ولا أدري لماذا قلت له ذلك:

. إنّ وراء كلّ رجل عظيم امرأة.

فضحك عاليا في عربدة، حتّى بانت نواجذه، ونظر إليّ ساخرا، وهو يقول:

. إنّي أتحدّاك أن تريني امرأة واحدة يمكن أن تكون، لا وراء رجل عظيم، ولكن وراء أسوأ الرّجال خلقا وخلقا، وأكثرهم فجورا ودعارة!!

ولم أقبل التحدّي، بل سكتّ على مضض لعلمي بطباعه...

أرثي لجدّي... وفي المقابل أرثي لعذابات جدّتي... أرثي لسوء حظّها... أرثي لها وقد حملت في بطن واحدة اثني عشر ولدا وبنتا، ولكن لم يكتب لها أن تسعد بأيّ واحد منهم... أرثي لها في حلّها وترحالها... في صبرها على الموت والمرض ومغالبة الزّمن الّذي لا يرحم... موت والدتي ومرض جدّي ومغالبة الزّمن الّذي يرين بكلّ أثقال الدّهر على الحوش الكبير: على الحيطان المخضرمة، والألوان الكامدة، وشجرتي البندق، والطّبقات الكلسيّة المهترئة، والدّكك المخلّعة، والأثاث الّذي ينتمي إلى زمن الثّراء والفرح والزّيجات الموفقّة!!

بالكاد استطعت أن أركّز كلّ انتباهي على حديث جدّي، فقد كان أشبه بفوضى أصوات صاخبة تنبعث من غرفة مغلقة المنافذ والأبواب، سيّما وأنّه أيضا لا يمكن توقّع ما

قد يقوله في لحظة معيّنة ومكان معيّن، إلاّ بعد طول إصغاء ورويّة وجهد، لأنّه قد ينتقل من موضوع إلى موضوع دون تمهيد مسبق، ودون أن يكون بين الموضوعين أيّ رابط أو تسلسل منطقيّ... هكذا جدّي دائما، يحلو له الحديث في كلّ المواضيع دفعة واحدة، خصوصا إذا كان سيمكنّه ذلك في النّهاية من توجيه دفّة الحديث إلى إدانة جدّتي والنّيل منها.

كلّ ما سمعته كان أشبه بخترفة النّائم أو هذيان السّكران؛ ولقد ظننته في البداية يتحدّث إلى القطط الّتي لا بدّ أنّها كانت مختبئة في جحرها الآمن بين حائطنا وحائط حوش عمّي، إلاّ أنّ نبرته الهادئة، الخالية من كلّ أمارات الغضب، والأقرب إلى سخرية مبطنة، جعلت أفكاري تنحو منحى آخر، سرعان ما قادني إلى المغزى من كلّ همهمته الّتي بدت وكأنّها لن تنتهي أبدا. كان يقول، ولست أدري هل كان يخاطب نفسه، أم يتحدّث إلى جدّتي الّتي لا بدّ وأنّه قد رسم صورتها في ناحية ما من مخيّلته الجامحة:

. هذا الوغد... هذا الحصان التّركيّ ليس ابني... وإنّي أشهد الله أنّي بريء منه إلى يوم الدّين... ابني الّذي من صلبي لا يفعل كلّ هذا... ابني لا يتزوّج من ورائي... ابني لا يصاهر امّعة، لا يكاد يخرج من باب خمّارة إلاّ ليلج باب خمّارة أخرى... فاسق... صعلوك، بلا أخلاق ولا دين، قصارى ما يفكّر فيه أن يشرب حتّى الثّمالة، ولا يبالي بعد ذلك احترق الكون أو جرفه الطّوفان... تفو... تفو على هكذا ناس...

ويصمت جدّي قليلا، دونما سبب ظاهر، ويسير بخطى

سبعينيّة متعثّرة إلى ذلك الفضاء بين الحائطين، فيقذف حصاة . لا شكّ أنّها أخطأت هدفها كما كانت كلّ حصواته تخطئ هدفها دائما .. وينتظر ريثما يتناهى إلى مسمعه مواء تلك «القطط اللّعينة»، كما كان يسمّيها، ثمّ يعود إلى سريره حيث يسوّي حشيّته في أناة الشّيخ الحريص، يتمدّد على ظهره مولّيا وجهه المغلق إلى سقف الشّرفة فوقه، ويقول مغيّرا مجرى الحديث:

... العيب على هذه اللّعينة ابنته... لعنها الله حيّة وميّتة... إنّي مازلت لا أصدّق كيف تسلم نفسها إلى رجل دون زواج... ألا قيمة للشرّف عندها؟... ألا تبالي بكرامتها المهدورة تحت أقدام هذا الوغد... هذا الحصان التّركيّ ابني؟... لكن، لا! حتّى ولو تزوّجها، ستظلّ إلى آخر لحظة في حياتها تحسّ بالذّلّة والمهانة... تحسّ أنّها ليست امرأة كباقي النّساء... تحسّ أنّ شيئا ينقصها، وأنّ هذا الشّيء نفسه هو ما سيجعلها تشعر بالعار والصّغار إلى النّهاية...

وينسى جدّي أو يتناسى «اللّعينة ابنة الفاسق اللّعين»، ويعود إلى حديثه الأوّل، وقد نسي شيئا كان قابعا في ظلمة ذاكرته العجوز الّتي لا تدع شاردة إلاّ جمعتها، ولا واردة إلاّ احتفظت بها... هذا الشّيء الّذي نسيه كان من الضّروريّ ذكره لإضفاء مسحة من الجلال والاكتمال على الحكاية اليوميّة الّتي لا تنتهي:

... هذا الوغد... هذا الصّعلوك ليس ابني... لا يكون هذا الوغد إلاّ ابنا شرعيّا للشّيطان... أنا الآن أدرك جيّدا أنّي لم

أنجبه... حياتي كلّها أمضيت زهرتها على مفترق الطّرق... في مداخل المدن ومخارجها... أبيت على الطّوى... أفترش الأرض وألتحف نجوم السّماء... كان البيت مجرّد محطّة عبور، أطيف به كلّ نهاية أسبوع... وحينئذ، أكون غير قادر حتّى على تغيير ملابسي من التّعب والإرهاق... فكيف أكون والد هذا الوغد؟!! هذا الوغد لا يمكن أن يكون إلاّ ابنا شرعيّا للشّيطان...

ولم يكن ليغيب عنّي مغزى هذا التّلميح، ولا قوّة الإيحاء الّتي يتضمّنها... لقد أحسست كأنّ سكاكين حادّة النّصال راحت تنغرز في كلّ شبر من جسدي، ودفعة واحدة، ودون هوادة... أيعقل أن يبلغ الحقد والغيظ بجدّي كلّ هذا المبلغ... أيعقل أن يغضب جدّي إلى الحدّ الّذي ينعت فيه جدّتي .ولو ضمنا . بالعاهرة... أن يصمها بالسّاقطة الزّانية؟!!... فما جدوى معاشرة عمرها ثلاثون سنة إذن؟ وما جدوى أن يكون هناك أبناء وبنات إذا كانت سترمى أمّهم بالزّنا زورا وبهتانا، وينفّذ فيها حدّ الرّجم، لا لشيء إلاّ لأنّ زوجها كان يتمنّى فعلا أن تكون زوجته بائعة هوى، حيث اكتشف طهارة ذيلها طيلة السّنوات الّتي عاشرته فيها كزوجة وأمّ لأولاده.

اجتثّتني نبرات جدّتي القويّة الجهيرة من مثل هذه الهواجس والأفكار، وهي تقول دون أن تحاول إخفاء استيائها من جدّي وتمرّدها عليه:

. الحياة في منزل المجانين هذا لا يطاق... لقد سئمت كلّ شيء... ولولا خوفي من أن يقال: انظروا إليها، لقد تركت

أبناءها وزوجها المريض، لكنت هجحت وتركت الدّار تنعى من بناها...

ما كان يحيّرني حقّا، وخلافا لكلّ ما كنت أتوقّعه وأتصوّره، أنّ جدّي لم يكن ليردّ الفعل في مثل هذه الحالات، وكان يكتفي بالصّمت حتّى تنفّس جدّتي عن غلّها وتقول كلّ ما عندها، ثمّ يعود إلى نفس همهمته الأولى، ومحادثة نفسه، وهجوماته على القطط... لقد سمعت من أطبّاء مختصّين، وأخبرني ثقات أنّ الإنسان، مع تقدّمه في السّنّ، يصبح مهدّدا بالصّمم، وقد ينتهي الأمر ببعضهم إلى فقدان سمعه كاملا، ولا يعود يسمع ممّا يقال حوله شيئا؛ ولقد اطمأننت نسبيّا إلى هذا التّفسير، وسلّمت، في بعض الأحيان، أنّ ما كان يمنع جدّي من الرّدّ على جدّتي هو إصابته بهذا الصّمم النسبيّ، إلاّ أنّني في أحيان أخرى، أقتنع، واستنادا إلى قرائن ماديّة لا يرقى إليها الشكّ، أنّه كان يسمعها جيّدا، ولكنّه يتعمّد عدم الرّدّ عليها... أنا لا أعرف سبب ذلك تحديدا... قد يكون ذلك منه حيلة لتفادي الاشتباك المباشر معها... قد يكون سبب ذلك اقتناعه بعجزه عن مواصلة ممارسة دور السّيّد المطلق داخل البيت... وقد يكون ذلك محاولة أخيرة للخروج من عزلته، ولو عن طريق حيلة ماكرة لتوريط جدّتي في الكلام!!

في زمن آخر، لم أعد أذكره إلاّ كما أذكر صورا باهتة قد مرّ على زمن تصويرها حقب ودهور، كان جدّي يمارس سيادته في البيت على الجميع، لا يخرج أحد إلاّ بإذنه، ولا يفتح الباب إلاّ بإذنه، ولا يغلق إلاّ بإذنه، ولا يحيا أحدنا إلاّ في كنفه، ولا يموت

إلاّ تحت جناحه، متفيّئا لظلّه؛ وكانت جدّتي هي الوحيدة الّتي لا تخاف سطوته، وتجابهه في عناد رغم أنّها تعلم سلفا أنّها لن تنجو من عقابه لتطاولها على سيادته المطلقة؛ وكانت أيّة كلمة تقولها أمامه، أو رأي مخالف تبديه في حضوره، يجعله يفقد أعصابه، ويقيم الدّنيا ولا يقعدها، ولا يهدأ أو تعاوده طمأنينته إلاّ حين يتأكّد أنّه قهر كبرياءها نهائيّا بدفعة قويّة في صدرها، أو ضربة شاردة على أحد فكّيها، أو رفسة في وركها، أو هجوم يطوّح بها أرضا دون احتمال للقيام من جديد!!... في ذلك الزّمن، كانت الحرب اليوميّة على أشدّها؛ وقد كانت بينهما سجالا، لا تخلو من مضاعفات وخيمة ونتائج لا تحمد عقباها.

أمّا اليوم، فقد هدأت فورة تلك الحرب، وسكن وطيسها الّذي غدا أشبه ما يكون براحة المسافر الّذي يدرك أنّه في صباح الغد سيواصل الرّحلة إلى المجهول ليرتاح من جديد حين تؤذن الشّمس بالمغيب ويكتنف السّكون السّرمديّ جوانب الكون مترامي الشّسوع والأبعاد... الآن، غدت الحرب أكثر سلاسة ومرونة، لا تتعدّى مجرّد ملاسنة يتطارح فيها شيخ عجوز وزوجته الشّيخة تاريخ ثلاثين سنة من أسباب الخلاف القديمة، والمنازعات الطّويلة، والعتاب واللّوم، وآلام الحياة الّتي ستفضي حتما إلى لحظة فريدة... هي لحظة الموت! فمن سيبكي صاحبه أوّلا، وهل تتكفّل لحظة الموت تلك بمحو تلك النّقطة السّوداء في قلب كليهما؟ هل تطهّر الدّموع ما عجزت ثلاثون سنة من المعاشرة والحبّ على تطهيره؟!!

كنت مرهقا وحزينا... دلفت إلى غرفة المعيشة وأنا أستشعر إحساسا طاغيا بالغثيان، ربّما لأنّي لن أتمكّن من الخروج هذه اللّيلة... وخرجت دون أن ألقي بالا، هذه المرّة، إلى الجولة الأخيرة من الصّراع الدّائر على أشدّه داخل الحوش، مطمئنّا إلى النّهاية المتوقّعة، الّتي لا تعدو أن تكون مسألة وقت، حيث يتّجه جدّي صوب غرفته لينام، وتمسك جدّتي مسبحتها تدير حبّاتها بين أصابعها في انتظار عودة الغائبين من مملكة اللّيل... خرجت من الباب الحديديّ الكبير، وعبرت مجازا ضيّقا، ثمّ استدرت إلى يمين عطفة... على بعد خطوات، تناولت مفتاح الغرفة، فأدرته في الأكرة... في الدّاخل، استقبلني الظّلام كثيفا معتما مهيبا... اتّجهت صوب السّرير دون أن أضيء الأباجورة... تمدّدت فوقه بكامل ملابسي، وأنا أنتظر أطياف النّوم أن تكحّل جفوني.

في تلك اللّيلة نمت نوما متقطّعا، تتخلّله بعض فترات صحو مشوّشة؛ ولكثرة ما اختلطت عليّ الصّور والمشاهد العربيدة واشتبكت في مخيّلتي، لم أعد أميّز بين ألق الأحلام وإزعاج الكوابيس، كما لم أعد أدرك، على وجه اليقين، هل ما كنت أراه كان يوافيني خلال النّوم أم في لحظات الصّحو، أم في تلك اللّحظة العجيبة الّتي تنهار فيها ملامح العالم الخارجيّ فجأة على عتبات مملكة النّعاس القصيّة... وعلى أيّ حال، فقد نسيت كلّ شيء بمجرّد أن ضغطّت زرّ الأباجورة في الصّباح؛ وعندما انتهيت من ارتداء ملابسي، وأغلقت باب الغرفة ورائي، متّجها إلى الحوش الكبير لتناول الفطور على

إيقاع حكايات جدّتي، كنت مستعدّا تماما إلى إلقاء جميع أحلام البارحة وكوابيسها وراء ظهري، واستقبال يوم جديد من العمل في المصلحة خلال ثاني يوم من أيّام الحظر...

وأنا أتناول فنجان القهوة من يد جدّتي، طفت على سطح ذاكرتي، ودون سابق إنذار، صورة واضحة غاية الوضوح، وكأنّها لم تفارق مخيّلتي لحظة واحدة، أو كأنّها تأبى إلاّ أن تتحدّاني لعلمها بسابق نيّتي على النّسيان... كانت الصّورة هي صورتها، صورة «مشيرة» الّتي عرفتها بها منذ أوّل يوم جاءت لتنضمّ فيه إلينا كزميلة في العمل، ونفس صورتها الّتي عرفتها بها دائما، منذ قرّرت أن أشمشم أخبارها، وحتّى السّاعة الّتي كشفتني فيها متلبّسا بالجرم المشهود... بعد ذلك، ومثلما يحدث في قاعة للأفلام، حيث تتالى الصّور والمشاهد في تواتر عجيب، كانت الصّورة (صورة «مشيرة») تتراءى أمام عينيّ المبهورتين في مواقف وحالات شتّى... مواقف وحالات تصل إلى حدّ التّناقض، ولا يكاد يربط بينها أيّ خيط مشترك... غزتني دفعة واحدة نفس الأحلام والكوابيس الّتي كنت رأيتها في اللّيلة الماضية لدرجة أنّي اقتنعت أنّ «مشيرة» كانت الفتيل الّذي ألهب ضرام البركة الرّاكدة القابعة في قاع أعماقي، وقد كانت لديّ هذه القناعة، ووجدت مبرّرا لها في ذلك الوجه القمحيّ ذي الملامح الأجنبيّة الّذي كان يتكرّر، كما لو كان ذلك بفعل قوّة خارقة، في كلّ ما رأيته على امتداد ليلة كاملة من السّهاد الممضّ والأخيلة الجامحة... «مشيرة» تنطّ أمامي، بشعرها الّذي فقد حمرته المخمليّة ورونقه، وصار يشبه حراشف

سمكة ميّتة طافية على رمال الشّاطئ، وجسدها الّذي ما عاد جسدها، ذاك الرّيّان الشّهيّ، ولكن جسد ضفدعة عجوز غطّته التّجاعيد والأخاديد، ولم يبق منها غير وجهها الّذي كان يتضاءل شيئا فشيئا أمام تكشيرة أنيابها الحادّة وأسنانها الكبيرة المرعبة... كانت تنطّ وتضحك فقط، دون أن تنبس ببنت شفة، وتنطّ وتضحك، ثمّ تختفي وراء طبقة شفيفة خلف مدى سرابيّ غير منظور... «مشيرة» تغافلني من الوراء في اللّحظة الّتي لا أكون فيها متوقّعا لظهورها، وعندما أهرع إليها لمعانقتها، تتحوّل إلى كلبة سوداء ضخمة الجثّة تقفز من داخل برميل متدحرج وتشرع في العدو ورائي... ثمّ تختفي في وقت ما، وهي تطلق ضحكة هستيريّة رهيبة... «مشيرة» تتجسّد في كائنات مجهولة لعصور ما قبل التّاريخ، وتتقمّص هيئات حيوانات ضارية مفترسة؛ فهي تارة تنّين يقذف من فيه نيرانا حامية محرقة، وهي تارة أخرى قرد راقص يسبح في بركة من الرّمل والصّخور، وهي طورا سحليّة بحجم الدّيناصور تتلوّن بألوان الطّيف، وترسل بصرها في كلّ الاتّجاهات، من الأمام والخلف... كانت دائما تضحك... إلاّ أنّه كان من الممكن أن أنسى كلّ ذلك، متذرّعا بكونه لا يعدو أن يكون مجرّد كابوس قد جرّ وراءه، في حمّى التّعب والإرهاق والقلق، كوابيس أخرى أكثر رعبا وصخبا؛ ولكن ما شدّ انتباهي حقّا ليست تلك الكوابيس، بقدر ما كانت صورة «مشيرة» كما رأيتها في ذلك الحلم الّذي سيلاحقني إلى المصلحة، وسيظلّ يلاحقني حتّى وقت متأخّر جدّا... غابة فسيحة، شاسعة، مترامية الأطراف،

تكتنف الخضرة كلّ أركانها وزواياها، متضامّة، متربّعة على عرش جلالها، بين أشجار كثيفة ملتفّة الأغصان، غزيرة الأوراق، وأنهار وجداول ينبعث من داخلها هسيس وخرير، وأطيار مغرّدة، وفراشات حائمة، وآمال عراض... كنت أمشي بتؤدة وسط الغابة... كنت أبطئ عن قصد لأتملّى الجمال النّابض الّذي يلفّني، عندما لمحت، أو هكذا يخيّل إليّ، طيف «مشيرة»، وهي منتصبة القامة، كأنّها تصلّي، بين جدول متعرّج المسار وشجرة حور مجوّفة الجذع... كانت «مشيرة» ترمي بنفسها في الجدول، دون أن تخلع ملابسها، ثمّ تظلّ تحت الماء حينا يسيرا، وتخرج فتنتفض كما يفعل عصفور صغير مقرور، وتهرع إلى ذلك التّجويف داخل شجرة الحور، فتختبئ فيه؛ وبعد برهة، تعود لتنتصب بقامتها كالمتعبّدة، وتغطس في الجدول، ثمّ تختبئ في التّجويف، وهكذا، حتّى استغرقها ذلك مرّات عديدة... لم أتمكّن من رؤية وجهها حتّى ذلك الحين، وقد كنت أرى قطرات الماء، حينما تنتفض، لا تسقط على الأرض، ولكن تتحوّل إلى دويبات صغيرة تشعّ بأنوار مضيئة، سرعان ما تطير ميمّمة شطر القبّة الزّرقاء في الأعلى... راعني ذلك، وجعلني أتردّد في اتّخاذ الخطوة الموالية... كنت أريد أن أجري باتّجاهها... أن أجري باتّجاه «مشيرة»... وكنت خائفا، ولم أكن أعرف سببا وجيها واحدا لخوفي... كنت أراها... وكنت أرى الجدول والتّجويف، وأشاهد قطرات الماء تتضخّم باستمرار، وتعلو دون توقّف، حتّى صارت أشبه بصحن طائر، بدأ ينزل إلى أن أصبح فوق رأسها

تماما؛ حينئذ، رفعت يديها الاثنتين، فانفتحت طاقة عظيمة وسط ذلك الصّحن، وتدلّى، من مكان ما، سلّم مجدول من ألياف الحبال... ورغم دهشتي، وعجزي عن تفسير ما يحدث أمامي، فقد كنت أعرف ماذا يجب عليّ أن أفعل في تلك اللّحظة بالذّات بواعز من اللّهفة أكثر ممّا هو بدافع من الرّؤية والحسّ السّليم... جريت... جريت بفتور وتردّد في البداية... ثمّ جريت بوثوق فيما بعد... وأخيرا جريت بحماسة يشوبها يأس عندما رأيت «مشيرة» تختفي وراء باب الصّحن الطّائر، الّذي انصفق وراءها... قفزت صوب الاتّجاه الّذي رحلت فيه، لكنّ الصّحن كان قد اختفى، مخلّفا وراءه صدى لصوت أنثويّ بعيد يردّد باستمرار: «إلى اللّقاء... إلى اللّقاء...»

كان ذلك صوتها دون ريب. صحت:

. مشيرة... مشيرة...

ولكنّ صياحي بدل أن يعيدها إليّ، أعادني إلى عالم اليقظة والحقيقة القاسية!!

في لحظة ما، وأنا أحسّ كأنّ ذاكرتي بدأت تتضخّم إلى حدّ أنّي لم أعد قادرا على السّيطرة عليها، ولا على تفادي أن يترجم ذلك الحلم على نفسه بشكل أهوج قد يكشفني أمام جدّتي، بدا لي أن أتدارك الموقف في الوقت المناسب، فأطلعها على رؤياي بشكل غير مباشر، ومع بعض التّحويرات طبعا، كما كنت أفعل دائما كلّما رأيت حلما واستحال عليّ كتمانه... كانت جدّتي تمتلك غريزة بدائيّة، ولكنّها مرهفة إلى حدّ لافت للنّظر، في تفسير الأحلام، وكنت أمتلك قدرة عجيبة على

خداعها، سيّما إذا تعلّقت تلك الأحلام الّتي ألقي بتفاصيلها على مسامعها بفتيات كنت تعرّفت إليهنّ، وانعكس إعجابي بهنّ في مكبوتات لاوعي خلال اللّيالي المجدبة الطّويلة، فأقول لها مثلا: «لقد أطلعني صديقي على حلم رآه...»؛ وأطلب منها أن تفسّره، فتتأهّب جدّتي متحفّزة للإدلاء بما عندها، دون أن يساورها أدنى شكّ. في بداية تجربتي معها. أن يكون ذلك الحلم حلمي، وما إقحام صديقي إلاّ مجرّد حيلة بريئة لجعلها تتكلّم... تتطلّع، ساعتئذ، إلى سطح غرفة المطبخ، كأنّها تستنجد بقوى خفيّة لا يملك غيرها القدرة على رؤيتها، وتقول لي بعد تفسيرها المسهب الملهم: «قل لصديقك لا يقلق، فليس في حلمه ما يدعو للقلق...»؛ في وقت متأخّر، أصبحت جدّتي تبتسم ابتسامة ماكرة خبيثة فيها قدر غير يسير من الشّفقة، كلّما ذكرت لها صديقي، ولا أدري أكانت تلك الابتسامة تخفي وراءها معرفة يقينيّة بكشف خطّتي، أم أنّ جدّتي قد بدا لها أنّني أسخر من تفسيراتها البسيطة، وأسعى فقط لتزجية الوقت معها من باب التّسلية والتّرفيه. ولكن، مهما يكن من أمر، فقد واظبت على تأهّبها رغم ابتسامتها السّاخرة، فتنظر إلى السّقف في شبه استغراق، وتقول لي في نهاية كلامها: «قل لصديقك لا يقلق...»

بدا لي في ذلك الصّباح أن أطلعها على رؤيا اللّيلة الماضية، غير أنّي أشفقت أن يحدث ذلك لها بلبالا. سيّما وأنّ الأمر يتعلّق بالصّحون الطّائرة؛ وهي، على امتداد سنواتها الخمسين، كان أرقى ما وصل إليه خيالها تلك السّيّارة السّوداء الصّغيرة الّتي

تشبه إلى حدّ كبير دعسوقة بطيئة؛ صحيح، أنّها تملك معجما ثريّا بأسماء نباتات موجودة وأخرى غير موجودة، وصحيح أيضا أنّها تملك حسّا مرهفا في ربط الأشياء ببعضها البعض، وربط الأشياء بإحالاتها الممكنة؛ ولكن، إذا كان لزاما عليها أن تنظر إلى طائرة أو صاروخ، ربّما سيكون ذلك سببا في إصابتها بصدمة عميقة، أمّا إذا أجبرت على الصّعود إلى أحدهما ربّما أصابتها غشية واكتنفتها قشعريرة الإغماء!!

قالت لي، وهي تتطلّع إلى صفحة السّماء المتلبّدة بالغيوم، وتصعّد فيّ نظراتها الفاحصة وأنا أهمّ بالخروج من الباب:

. أظنّها ستمطر... انظر إلى تلك السّحب الدّاكنة، وهذه النّسمات الباردة الّتي تكاد تجمّد الدّم في العروق... اذهب فارتد معطفا، أو على الأقلّ، اطلب من جدّك أن يعيرك مطريّته...

لم أكن لأشعر بالطّمأنينة إذا طلبت أيّ شيء من جدّي، لأنّي كنت، أوّلا، أتفادى قدر الإمكان إزعاجه، وهو يعاني من آلام شيخوخة مزمنة تمنعه حتّى من مجرّد الحركة، إضافة إلى العمليّات الخمس الّتي كان ينوء بها جسده المترهّل المتهالك؛ وكنت، ثانيا، أخشى أن يجرّني معه إلى حديث بلا نهاية، عدا كونه حديثا مستهلكا أعرف كلّ تفاصيله وجزئيّاته مسبقا... عرّجت على غرفتي الصّغيرة، فارتديت معطفي، ثمّ عبرت الزّقاق إلى الشّارع الإسفلتيّ الطّويل الّذي يقود إلى وسط المدينة المجلّلة بسكون الصّباح... كان المطر ينزل رذاذا، وكانت السّماء الرّحبة تزداد قتامة ودكنة، حيث كانت

السّحب تتجمّع على صفحتها، دون توقّف، منذرة بسيل عرم من الأمطار... رغم ذلك، وما عدا تلك النّذر الأولى، كانت الطّبيعة مستكنّة في شبه هدوء، فلا رعود ولا بروق تلوح في ثنايا الأفق الغافي، باستثناء تلك الحبيبات الصّغيرة من الرّذاذ الّتي كانت تنزل تباعا، فتكوّن سيولا رقيقة في أخاديد الشّارع وأطرافه المتربة... راعني سكون المدينة الرّهيب في ذلك الوقت من الصّباح لدرجة أنّي اعتقدت أنّ الوقت ما يزال مبكرا، ولكنّي فوجئت حين نظرت إلى ساعتي فوجدتها قد ناهزت الثّامنة والنّصف... كانت أكشاك الصّحف المنتشرة على طول الشّارع، والّتي لم تخطئ منذ زمن طويل مواعيد فتحها، مغلقة، وكان المقهى الوحيد إلى اليسار شبه مفتوح، لم أستطع أن أرى من خلال بابه الموارب سوى بعض أشخاص متلفّعين بعزلتهم في صمت، ينظرون إلى الطّبيعة في الخارج بأعين باهتة قد ذهب وميض بريقها، وهم يدخّنون على إيقاع الرّذاذ...

عند باب المصلحة، لفت انتباهي منظر غريب لم تعتده عيناي من قبل، فبقيت لبرهة قصيرة وأنا مشدوه، أتأمّل عمّ «إبراهيم»، الحارس اللّيليّ، وهو يفتح الصّنبور ليغسل وجهه، وقد خلع طاقيّته وعمّته اللّتين لم يكن ليخلعهما في أوقات أخرى سابقة، وشمّر كمّي جلبابه الّذي جعلتني بعض البقع المتّسخة عليه أتأكّد أنّه جلباب نومه... غير بعيد، كان باب الغرفة الوحيدة خارج المصلحة، والّذي لم أره يفتح ولو مرّة واحدة منذ تعييني، مفتوحا، وقد تسلّلت منه إلى الخارج

بعض أصوات مشاكسة وصوت حيّ، بدا وكأنّه صوت امرأة، ربّما هي زوجة عمّ «إبراهيم»، تحاول أن تسكتها... كانت تلك الغرفة غرفة الحارس، وهي بمثابة فضاء ضيّق المساحة موصول بالسّور الخارجيّ، بها كرسيّ وسرير وحشيّة متآكلة، يؤمّها عمّ «إبراهيم» أحيانا عند انتهاء نوبته في الحراسة لينعم ببعض الرّاحة... في هذا اليوم، بدا لي الأمر غريبا، فدفعني الفضول ناحية الصّنبور... لمحني عمّ «إبراهيم»، فهرع نحوي مسلّما، وقبل أن أردّ تحيّته، وجدتني أسأله في لهفة:

.ماذا يحدث هنا، يا عمّ إبراهيم؟!!

فأجابني بكلّ بساطة، كأنّني على علم مسبق بما سيخبرني به:

.لقد جئت لأقيم مع العائلة...

لم أمهله حتّى يتمّ كلامه، فسألته مرّة أخرى:

.أيّة عائلة؟

قال، وهو يبتسم فبانت أسنانه الصّفراء من أثر التّدخين:

.إنّها عائلتي، يا أستاذ.

فلم أتمالك نفسي، وقلت معولا:

.ولكن، قل لي، بربّك، ماذا يحدث هنا؟

فقال بنفس بساطته، بساطة الحارس اللّيليّ الّذي جاء ليقيم مع عائلته في غرفة بالمصلحة:

. إنّه الحظر، يا أستاذ... ينتهي دوامي في الثّامنة والحظر يبدأ حوالي السّادسة، لذلك لا أستطيع العودة إلى البيت، ووجدت أنّ أسلم حلّ أن أنتقل بعائلتي إلى هنا حتّى ينتهي

الحظر.

كانت المفاجأة الثّانية في انتظاري على إثر دخولي المكتب، إذ عندما نظرت ناحية المكان الّذي كانت تجلس فيه «مشيرة» لساعات طوال وراء أوراقها وأضابيرها، لم أجدها، ووجدت مكانها امرأة أربعينيّة، مطموسة الملامح، تلبس نظّارات طبيّة، وقد انهمكت في عملها دون أن تمنح نفسها فرصة حتّى لشرب فنجان القهوة الّذي جلبه عمّ «صابر» الفرّاش، والّذي ما يزال مليئا. ويبدو أنّ الزّملاء في المكتب قد عاملوها بالمثل، فلم يكن هناك من أحد ينظر إليها، ولو شزرا، كما تعوّدوا أن يفعلوا مع «مشيرة»، ولعلّ مردّ ذلك يرجع إلى أنّ المرأة الجديدة، بجدّيتها المفرطة، وسنّها الّتي تؤهّلها أن تكون بمثابة الأمّ لنا جميعا، إضافة إلى كونها عطلا من كلّ جمال، لم تكن لتثير صخبا أو جلبة من حولها... غياب «مشيرة» أعاد إلى ذاكرتي، من جديد، حلم البارحة؛ وقد جعلني ذلك للحظة أنوب عن جدّتي في تفسيره، فكانت الإشارات واضحة، والدّلائل والقرائن قاطعة، ممّا سهّل عليّ عمليّة الفهم، واختصار الطّريق... لقد كان ذلك الحلم إذن بمثابة النّبوءة، وها هي ذي تتحقّق في أوّل فرصة، دون منحي سبيلا إلى الاستئناف، ودون منح نفسها أيّة فرصة للتّأجيل... لا أنكر أنّي أحسست بخيبة أمل ويأس، وشعرت كما لو أنّ شيئا قد تحطّم محدثا ارتطاما ذريعا بداخلي؛ إلاّ أنّني، رغم ذلك، لم أفقد السّيطرة بعد على كتمان مشاعري والتّغطية على انفعالي، فجلست على الكرسيّ وراء مكتبي، وأنا أقول، بصوت خافت، لزميلي

الّذي كان يجلس بجانبي، مشجّعا إيّاه على الكلام كخطوة أولى، وممهّدا للسّؤال الحاسم الّذي سأستدرجه للإجابة عنه دون أن يكتشف لهفتي على رحيل «مشيرة» وحزني لفراقها:

.هل علمت بما فعله عمّ إبراهيم؟

فرازني بطرف عينه اليسرى، دون أن تبدو عليه آثار المفاجأة ممّا يؤكّد أنّه قد علم بالخبر قبلي؛ وبدل أن يجيبني على السّؤال الّذي طرحته عليه، ابتسم ابتسامة ساخرة، تضوع جرأة وخبثا، وقال:

.زوجة المدير أيضا هنا.

أصابتني دهشة طارئة؛ وعجزت أن أفهم سرّ العلاقة بين مجيء عائلة عمّ «إبراهيم» وزوجة المدير؛ فأنا وإن رأيت أنّ ما قام به الحارس يعتبر غريبا وشاذّا، إلاّ أنّني أعتقد أنّ مجيء زوجة المدير لا يحمل شيئا من الغرابة أو الشّذوذ على الإطلاق، ويعتبر شيئا عاديّا، لا يستدعي ريبة أو شكّا. قلت مندهشا:

.وما دخل زوجة المدير في الأمر؟

فقال، وقد تحوّلت ابتسامته إلى مشروع ضحكة مهدّدة بالانفجار:

.هي في مكتبه الآن... وهي في المكتب منذ أيّام...

ثمّ توقّف عن الكلام لحظة ريثما رشف حسوة من فنجان القهوة بجانبه، وواصل قائلا:

.أظنّ أنّ المدير قد فتح باب غرفة مكتبه الجانبيّة أخيرا.

قلت، وأنا لم أفهم شيئا ممّا قاله:

.لكن لماذا؟

قال، وهو يتظاهر بالغضب والتّذمّر:

.ألم تفهم بعد... إنّه الحبّ، يا صديقي!

قلت أسأله:

.ولكن ما دخل الحبّ؟!

قال ضاحكا هذه المرّة:

.إنّ مديرنا ضحيّة أخرى من ضحايا الحظر المفروض!!

هكذا إذن... عمّ «إبراهيم»، ثمّ المدير؛ فمن أيضا؟! لكن هذا، على الأقلّ، خير من الاختفاء أو الاختطاف على أيدي قوى مجهولة آتية من اللاّمكان... أشرت إلى صديقي حتّى انتبه إليّ، وأومأت إلى تلك المرأة الأربعينيّة الجالسة في مملكة غيابها السّرابيّ، وأنا أنوي أن أنتزع منه اعترافا دون أن أجعله يحسّ بالمكيدة. همست له قائلا:

.ماذا تفعل تلك المرأة هناك؟

قال، وهو منكبّ على أوراقه، دون أن ينظر إليّ:

.إنّها المستخدمة الجديدة...

ثمّ استدرك قائلا بعد فترة صمت وجيزة، وقد ترقرقت نبرات صوته، وهي تحمل في طيّاتها ألما وحسرة لم يسع إلى إخفائهما:

.سترحل فاتنتنا الصّغيرة مشيرة إلى بلد السّوبرنيطيقا مرّة أخرى.

لم تكن لديّ رغبة في العودة إلى البيت بعد انتهاء الدّوام حيث كانت رأسي تضجّ كما قفير النّحل بأفكار وهواجس لا رابط بينها، كما كان قلبي يجترّ آخر الخيبات على مذبح الموت

الأخير... تركت لقدميّ أن تقوداني، فأسلست لهما القياد دون نيّة بادية في الاعتراض أو الاحتجاج... دلفت من بوابّة المصلحة الخارجيّة إلى الشّارع المحاذي، وأنا شبه غائب تقريبا، وقد كانت قطرات الرّذاذ تبلّلني، فتتخلّل شعري حتّى تستقرّ في فروة رأسي، وتلج عبر فتحات المعطف، فتنفذ إلى صدري وبطني من خلال قماش قميصي الأبيض الرّقيق... كانت الطّبيعة تلفّني بفتنتها وسكونها الرّطيب في ذلك الوقت من النّهار، ولم أكن أملك القدرة أو الجرأة على النّظر إلى صفحة السّماء القصيّة العابسة، ولا إلى خط الأفق الرّصاصيّ، ولا على تذوّق طعم تلك الحبيبات الصّغيرة من الرّذاذ، رغم كلفي بطراوة البرد وشدّة ولعي ببدايات الخريف...

لم يكن المقهى قد اكتظّ بروّاده بعد حينما دخلت إليه، حيث كانت هناك قلّة قليلة توزّعت على بعض مناضد وسط البهو الدّاخليّ، في شبه صمت، حول فناجينهم وكؤوس شايهم. وكان بعضهم يمسك بخرطوم أركيلته يستمرئ رائحة الدّخان النّديّ، ويستمع إلى أغنية قديمة تنبعث أنغامها من حاك ذي بوق إسطوانيّ، لا بدّ وأنّه كان مركونا في مكان ما وراء القائمة... جلست إلى طاولة في مكان شبه معتم عند الزّاوية، أنظر من خلال زجاج النّافذة الكبيرة الشّفيف إلى العالم في الخارج، وهو يضطرب بارتعاشات سريعة تحت ضربات المطر الوانية... كان الأثر الّذي خلّفه الحظر باديا في كلّ مكان... في الشّارع المهجور الحزين... في العطفات الخالية، والميادين الكابية الّتي تنوء بخضرة أشجار حدائقها الرّصاصيّة...

على الطّابور الّذي كان عدد أفراده يقلّ بين يوم وآخر... في الصّمت المنذر المهدّد...

جاء النّادل، فلم أنتبه إليه إلاّ بعد أن هزّني من كتفي هزّة رقيقة، أعادتني إلى الإحساس بالعالم من حولي، وسألني في أدب جمّ عن طلبي... تذكّرت فجأة أنّي لم أشرب فنجان القهوة الّذي جلبه لي عمّ «صابر» إلى المكتب، كما تذكّرت أنّي لم أدخّن حتّى ذلك الحين تحت تأثير الاضطراب والانفعال... كنت مشتاقا إلى فنجان من القهوة السّاخنة، وكنت أكثر من ذلك مشتاقا إلى سيجارة أعبّ من أرج نسغها. قلت:

.قهوة من فضلك

كانت السّاعة تشير إلى الخامسة والنّصف بعد الظّهر، على ساعة المقهى الحائطيّة ذات البندول الذّهبيّ الكبير، عندما غيّبني الباب؛ ورغم أنّه لم يتبقّ سوى نصف ساعة على إعلان الحظر في ذلك اليوم، إلاّ أنّي كنت أرغب في تمطيط جولتي التّسكّعيّة، كما لم أكن أستشعر، كعادتي، حاجة ملحّة في العودة إلى البيت... ولعلّ فنجان القهوة الّذي شربته، والسّجائر الّتي دخّنتها تباعا، وبشهيّة مفرطة، ينضاف إليها صوت «العجوز» الشّبحيّ الّذي كان يتردّد خارج حدود الزّمان والمكان، مخترقا، في هدوء وسكينة، كلّ خليّة من خلاياي، موغلا في شغاف القلب حتّى آخر نقطة من النّقاط الغامضة المجهولة في بؤرة أعماقي، كلّ ذلك جعلني أحسّ بنشوة طاغية في ذلك المساء، وبثّ في داخلي دافعا إضافيّا للاستمتاع بسعادتي المباغتة حتّى آخر لحظة من لحظات الزّمن المتاحة

بموجب قانون الحظر... كنت في طريقي إلى زيارة صديقي الكتبيّ، الّذي تقوم مكتبته على ناصية الطّوار، والّذي اعتدت أن أزوره بين الفينة والأخرى، عندما تناهت إلى مسمعي أصوات مناجاة خفيضة تنبعث من مكان ما... لم يكن الظّلام قد هبط على المدينة بعد، ورغم السّواد والقتامة اللّذين غلّفت بهما الطّبيعة الغاضبة الوجود، فقد كانت هناك بعض أنوار شاردة ترسلها في خفوت أعمدة الإنارة البلديّة... خطوت بضع خطوات إلى الأمام مزمعا مواصلة طريقي، لولا أنّ ضحكة دافقة علت فجأة، جعلتني أتسمّر في مكاني صعقا مدهوشا... بدت لي تلك الضّحكة مألوفة... استدرت قليلا، واتّجهت صوب المكان الّذي بدا لي أنّ الضّحكة قد انطلقت منه... كانت العتمة شديدة، والظّلام حالكا، فلم أتمكّن في البداية من تحديد مصدر الصّوت... علت تلك الضّحكة ثانية، وقد تخلّلها صوت أنثويّ رقيق أشبه بالمناغاة يقول في مجون:

.لا تتعجّل... برفق... نعم، هكذا... نعم، أحسنت...

لم يعد لديّ أدنى شكّ في معرفة الصّوت... هذه الضّحكة ضحكتها قطعا... ضحكة «مشيرة»، ولا سبيل إلى أن أخطئ جرسها أو رنينها... هل هذا معقول، يا إلهي؟!... اندفعت كالمجنون مسترشدا بالأصوات... ترى من يكون هذا الّذي معها؟... وهل يكون رحيلها مجرّد إشاعة لتغطّي على احترافها الفجور؟!... في عطفة ضيّقة، في مكان قصيّ شبه معتم، كانت تضع آخر اللّمسات على حفلة شبقها اللّيليّ، في أحضان

دركيّ مستتر بظلام الحظر!!

صحت، وأنا أندفع نحوهما، دون أن تكون لديّ أدنى فكرة عمّا يجب أن أفعله:

. مشيرة... مشيرة...

لم يكن الدّركيّ ليفقد حسّه السّليم بالخطر، رغم وضع التّلبّس الّذي ضبطتّه عليه، فتناول مسدّسه بكلّ خفّة وصوّبه نحوي قائلا في غضب لم تزايله آثار المفاجأة:

. قف مكانك، وإلاّ أفرغت كلّ الرّصاصات في قلبك.

توقّفت لاإراديّا، ولا أعتقد أنّ ذلك كان بفعل الخوف، بقدرما كان بفعل الصّدمة الّتي جعلتني أجمد في مكاني على إثر نظرة خاطفة إلى وجه تلك المرأة الّتي كانت تزرّر فستانها بكلّ هدوء، ودونما إحساس بالخجل في نظرات عينيها الّتي كانت تصوّبها نحوي في فجور وتحدّ... يا إلهي، لم تكن «مشيرة»، وإنّما امرأة أخرى، لا شكّ أنّها إحدى المومسات المحترفات... زقزقت عصافير الفرح بقلبي، وغزتني سعادة عارمة تخيّلت أنّها ستجرفني في تيّارها حتّى حدود الذّوبان والهلاك... في تلك اللّحظة، كنت مستعدّا أن أواجه كلّ شيء: الشّتم، الضّرب... وحتّى الموت كنت على استعداد أن أجابهه دون إحساس بالخشية أو الوجل.

أومأ الدّركيّ إلى تلك المرأة فذهبت، وهي تتثنّى، إمعانا في فجورها وتحدّيها، والتفت إليّ قائلا بصوت خشن ونبرات فجّة:

. ما الّذي جاء بك إلى هنا؟

...

وقال محتدّا لمّا لم أجبه، وهو يكاد يتميّز غيظا:

.كان أحرى بك أن تكون في بيتكم الآن...

فقاطعته بهدوء:

.لم تحن ساعة إعلان الحظر بعد.

فأشار إليّ إشارة فظّة وقال آمرا:

.هات بطاقة هويّتك.

سلّمته إيّاها، فنظر إليها مليّا وقد بدت عليه أمارات الجدّ في ملامحه المشدودة، وغاب قليلا، ثمّ عاد يصحبه دركيّان آخران... انتظرت ليعيد إليّ بطاقتي، لكنّه لم يفعل، وبدلا من ذلك، أومأ إلى أحد الدّركيين قائلا:

.خذاه إلى المركز.

قلت، وقد بدأت أفقد هدوئي:

.ولكن لماذا؟

فطافت بشفتيه الكامدتين ابتسامة متشفّية، وقال بكبرياء رجل السّلطة:

.هناك ستعرف لماذا.

بعد ربع ساعة على متن سيّارة «الجيب»، كنت بصحبة ضابط المباحث الملازم أوّل «نعيم شهدي»، وقد أومأ إليّ بإشارة من يده أن أجلس، فجلست مقابله على أحد الكرسيّين الخشبيّين المحاذيين لمكتبه... ناولني سيجارة، وهو يتظاهر بالبراءة، ثمّ قال بصوت رجوليّ، لكن تكتنفه رقّة متناهية:

.هل أنت صاحب هذه البطاقة؟

وسلّمني بطاقة هويّتي الّتي كان أخذها منّي ذلك الدّركيّ.

قلت:

. أجل.

حينئذ، ناولني ورقة صغيرة مطويّة بعناية متناهية، وهو يقول:

. هذه الورقة وجدناها صدفة في المستشفى المركزيّ منذ مدّة طويلة. خذ، اقرأها.

لم أتمالك نفسي فسألته، وقد بدأ هدوئي الأوّل يصطبغ بشيء غير قليل من الانزعاج والإعوال:

.ولكن ما علاقتي أنا بهذا الأمر؟

فقال لي مشفقا:

.اقرأها أوّلا، وستعرف بعد ذلك لماذا جلبناك إلى هنا.

بسطت الورقة على المكتب بيد مضطربة، وبالكاد استطعت أن أميّز الحروف الصّغيرة... لم أصدّق عينيّ، وأنا أقرأها... كانت مكتوبة بخط «م . ع»، أوّل ضحايا جرائم الاختطاف... «م . ع» الّذي أعلنت عن اختفاء جثّته من المستشفى المركزيّ تلك الجريدة الّتي عثرت على أحد أعدادها القديمة في غرفتي تلك اللّيلة... هل كان ذلك الـ «م . ع» صديقي «مظفّر عبد الله»؟ لكن، لماذا يسعى إلى توريطي بكلّ بساطة، ودون جريرة: «إذا اختفيت، أو حدث لي أيّ مكروه، فإنّي أحمّل سعيد أشرف كلّ المسؤوليّة.»؟!!

قال لي ضابط المباحث الملازم أوّل «نعيم شهدي»:

.هل عرفت الآن لماذا جلبناك إلى هنا؟

ونظر إلى شابّ بجانبه، يلبس ملابس مدنيّة، وراء آلة كاتبة عتيقة، وقال له بنبرة آمرة:

.اكتب... قرّرنا نحن ضابط المباحث الملازم أوّل نعيم شهدي حبس المتّهم سعيد أشرف في الإيقاف التّحفّظي لمدّة ثلاثة أيّام على ذمّة التّحقيق... أقفل المحضر في ساعته وتاريخه، وقد أملينا ووقّعنا.

الجزء الثّالث

..بداية الحكاية..

(الآن هنا)

لا أعتقد أنّه كان بإمكاني أن أتوصّل إلى تفسير مقنع لما يحدث لي، كما لا أستطيع أن أحدّد، وبكلّ وضوح، طبيعة الشّعور الّذي انتابني، وأنا أستمع إلى ضابط المباحث وهو يملي قرار الإيقاف، ثمّ وأنا أساير ذلك الدّركيّ الّذي أخذ بذراعي وانطلق بي عبر أروقة وممرّات ضيّقة إلى زنزانة في قبو تحت السّجن. كانت الدّهشة ما يعوق تفكيري عن الفهم والاستيعاب، ولم أكن حتّى ذلك الحين قد أحسست بالخوف أو الرّعب رغم أنّ قرار الإيقاف كان واضحا لا يحتمل أيّ خطأ أو إعادة نظر. وربّما كان ذلك، وعدم توقّعي أنّ ما حدث يمكن أن أكون أنا سببا له ودافعا مباشرا، هما اللّذان منعاني من الظّفر بأيّ تفسير، أو على الأقلّ من العثور على خيط قد يؤدّي إلى كشف النّقاب عن جوهر مأساتي.

رافقني ذلك الشّعور الطّاغي بالدّهشة إلى الزّنزانة، وقد كان ممضّا حادّا إلى درجة أنّي، رغم فضولي ونزوعي إلى دسّ أنفي في كلّ شيء في أوقات سابقة أخرى، لم ألق بالا إلى المكان

الجديد الّذي ألفيت نفسي فيه، والّذي سأمكث فيه ثلاثة أيّام كاملة بأمر رسميّ مكتوب... لو كنت في مكان آخر غير هذه الزّنزانة، وكان الظّرف ملائما، لما فوّت على نفسي فرصة الإلمام بكلّ جزئيّة من جزئيّاته، ولكنت قادرا في مدّة وجيزة على وصفه وصفا دقيقا. الآن، بدا لي الأمر مختلفا تماما، وكان الشّيء الوحيد الّذي أحسّه بداخلي، والّذي أشعر أنّه يكاد يعبّر عن نفسه في شكل أصوات متناوحة سوف لن أكون قادرا على حبسها في أعماقي لمدّة أطول، هو أن أدخّن سيجارة وأحبس الدّخان في رئتيّ، ثمّ أرسله عبر خياشيمي لأستعذب رائحته، الّتي سوف لن يكون غيرها قادرا على جعلي أنسى أنّني في هذه اللّحظة بالذّات في زنزانة، وأنّني وحيد، وحزين أيضا. كانت جميع تصرّفاتي الّتي تلت التّعبير عن رغبتي في التّدخين غريزيّة إلى حدّ كبير، وكانت كلّها تقريبا بدافع البحث عن وهم نشوة ضائعة... كنت ما أزال مرتديا معطفي، فدسست يدي في جيبي الدّاخليّ متأكّدا بأنّي قد وضعت علبة السّجائر فيه آخر مرّة، ولكن حين سحبتها كانت فارغة، وليس بها ولو سيجارة واحدة... رميتها أرضا، ودست عليها بقدمي في عنف اليائس الّذي لم يتبقّ له من ملذّات الدّنيا سوى إحساس جارف بالرّغبة، وحتّى هذه قد تتحوّل إلى داء عضال من الصّعب الإبلال منه، سيّما إذا بقيت حبيسة صدر ينفث داخله أهواء نفس لوّامة... شعرت أنّه يجب عليّ أن أفعل شيئا ما، كلّفني ذلك ما كلّفني: كما فكّرت أنّ شخصا ما يمكن أن يساعدني... لكن أيّ شخص؟ وفي أيّ مكان من هذا الفضاء

الصّغير الموحش تحت الأرض؟... حثثت خطاي المتعثّرة نحو الباب كأمل أخير، ودون أن أكون متأكّدا أنّ هذا الشّخص الّذي فكّرت فيه يمكن أن يكون الحارس الموكل بزنزانتي، فقد كانت القناعة الّتي كوّنتها عن السّجون والزّنازين أنّها أماكن حصينة، بلا منافذ، موكل بها حرّاس شداد غلاظ، لا يفعلون إلاّ ما تمليه عليهم رغباتهم الّتي قد تصل إلى ذروة الإحساس باللّذة في تعذيب المساجين... في البداية خبطّت في صمت، ثمّ شرعت أخبط الباب وأنا أصيح صياحا أقرب إلى الرّجاء والبكاء منه إلى التّعبير عن الغضب والاحتجاج.

جاءني صوت في الوقت نفسه الّذي انفتحت فيه طاقة صغيرة أعلى الباب، وهو يقول في رقّة لم أكن أتوقّعها:

. ماذا تريد؟

قلت، وقد انزلقت الكلمة على لساني دون تفكير:

. سيجارة.

قال الصّوت، وقد تجلّى أمامي هذه المرّة، فطالعتني ملامح حارس وقد امتزجت قساوتها الظّاهرة بطيبة خفيّة كانت تتدفّق في شكل ومضات خاطفة من عينين حزينتين:

. تفضّل.

ومدّ لي يده بسيجارة تناولتها شاكرا.

ثمّ أضاف، وقد لاحظ سعادتي اللاّمتناهية، وربّما الإحباط والضّياع اللّذين كانت تخفيهما تلك السّعادة بين طيّاتها:

. يمكن أن أشتري لك علبة سجائر إذا أعطيتني نقودا...

وقال بعد فترى صمت يسيرة:

.إذا احتجت أيّ شيء، فما عليك إلاّ أن تطرق طاقة الباب، وستجدني دائما في الخدمة.

سألته، وقد أخذت بلطفه غير المتوقّع، وإبداء استعداده لخدمتي:

.هل أستطيع أن أتشرّف بمعرفة اسمك؟

فقال باسما:

.اسمي جاد المولى.

فقلت بدوري:

.وأنا سعيد.

راق مزاجي، وأحسست بانتعاش جامح يسري في كامل أوصالي، لدرجة أنّي كدت أتعثّر بخطواتي وأسقط إذ لم تعد قدماي قادرتين على حملي؛ وكلّ ذلك حصل لا لشيء إلاّ لأنّي اكتشفت .وأنا في ذروة الشّعور باليأس والإهمال .أنّ القناعة الّتي كانت ترسّخت في ذهني من قبل عن السّجن والزّنازين قد آن لها أن تتحطّم في أوّل اصطدام لها بصخرة الواقع، على الأقلّ، فيما يتعلّق بهذا الحارس، الّذي يعتبر، وبالنّظر إلى موقفي الحرج، هبة من السّماء... وقد ازدادت حيويّتي، وترسّخ لديّ إحساس جديد بصلابة الأرض تحت قدميّ بعد نفثات الدّخان الأولى... فجأة، وأنا أرقب بعينين ساهمتين خيوط الدّخان الّتي كانت تنعقد في شكل حلقات صغيرة، سرعان ما تتسّع وتتلاشى، في هروبها الدّائم نحو سطح الزّنزانة، نطّت «مشيرة» من فجوة مظلمة في ذاكرتي، وبدا لي كأنّها قائمة أمامي، بكامل فتنتها وجاذبيّتها، تحدّق فيّ بإمعان،

كأنّني شخص لا تعرفه، أو تحاول أن تتذكّرني كشخص قابلته ذات مرّة، ثمّ نسيت ملامحه... لم أكن فيما مضى من النّوع الّذي ينزع إلى التأمّل، بل لم أكن أميل إلى التّأمّلات البتّة، وكنت مقتنعا . ولا أدري لماذا . أنّ الّذين يقضون السّاعات الطّوال في الاستغراق والشّرود لا يمكن أن يكونوا سعداء بأيّ حال من الأحوال، وتذكّرت بعض الشّعراء الرومنسيّين ممّن أنساهم البحث عن الكمال في عالم مثاليّ لذّة الكمال في اللّحظة الرّاهنة: هؤلاء الشّعراء منهم من مات دون سنّ الثّلاثين، في ذروة حزنه، من أثر صدمة الحلم الموهوم أكثر من المرض والألم نفسه... «كيتس»، «شلّي»، «بايرون»، وغيرهم. لذلك، عندما كانت تعنّ لي صورة «مشيرة»، وأنا أدخّن، كنت أحاول أن أتشرّب مرامي الصّورة فحسب، دون ضجيج كبير، أو تفكير لا طائل من ورائه. ولكن هل كان حبسي داخل الزّنزانة ضروريّا حتّى أكتشف مدى خطئي؟ هل كان حبسي انتقاما لأولئك الّذين ظلمتهم في لحظة من لحظات عدم التّروّي؟... وحيدا الآن، وربّما في وضع مثل وضع أولئك الشّعراء منكودي الحظّ، أجدني أستغرق، رغما عن أنفي في تأمّلات لا حصر لها. جعلني ذلك أتساءل: «هل ما يجعلنا نتأمّل ويدفعنا إلى الاستغراق هو الوحدة فحسب؟!» وقبل أن أتمكّن من الإجابة عن هذا السّؤال الّذي بدا لي بسيطا إلى درجة أنّه لا تمكن الإجابة عنه، وجدتني، وبمثل إيحاء ملهم، أكتشف سرّا طالما ظلّ مخفيّا، لأنّ اكتشافه كان يتطلّب قدرا من التّأمّل، وكنت عدوّا لا يضاهى للتّأمّل والمتأمّلين: لم يكن يحلو لـ «مشيرة» أن

تخطر ببالي إلاّ وأنا أدخّن، أستمرئ رائحة السّيجارة وأرتشف نسغها!!... ورغم أنّني كنت في تلك اللّحظة أنظر إليها وهي تحدّق فيّ، ورغم أنّها لم تكن تبعد عنّي سوى بضع خطوات، فإنّي لم أقم بأيّة حركة يمكن أن تشي بفرحتي للقائها، كأن أهتف باسمها، أو أهرع نحوها في خفّة ملاك صغير؛ وقد استغربت ذلك من نفسي، ونقمت على تبلّد حواسّي إلى درجة وددت معها لو تنشقّ الأرض فتبتلعني، حيث لم أكن قادرا على ردّ الفعل في الوقت المناسب؛ وقد كان يكفيني حينما كنت خارج الزّنزانة، وحتّى أثناء النّوم وسط مهمه الأحلام، أن ألمحها قادمة من بعيد، أو في هيئة المتعبّدة كما كنت رأيتها في آخر حلم، حتّى تتيقّظ كلّ حواسّي دفعة واحدة، وأشعر أنّني أريد أن أملأ فمي باسمها حتّى تتردّد أصداؤه في البرّ والبحر، والجبل والسّهل، والصّحراء والوادي... أنا لم أكن يوما شاعرا في حياتي، وحتّى قراءاتي الشّعريّة كانت بدائيّة جدّا تقتصر فقط على تجربة الطّفولة في المدرسة والمعهد؛ وقد كانت القصائد الّتي يمدّنا بها معلّمونا، أو القصائد المثبتة في المقرّرات موجّهة في الأغلب الأعمّ، ولا تكاد تتعدّى كونها تغنّيا بالطّبيعة، أو تمجيدا للوطن، أو حضّا على طاعة الوالدين واحترام الكبار. ولولا ما علق بذهني من أبيات وبعض قصائد متفرّقة ممّا دأب على تدبيجها شعراء العربيّة من أمثال «معروف الرّصافيّ»، و«أحمد شوقي»، و «حافظ إبراهيم»، وغيرهم، لكنت أجهل تماما تلك القولة الشّهيرة بـ: «أنّ الشّعر ديوان العرب»، والّتي تلخّص تاريخ حضارة يمتدّ عمرها إلى

أكثر من أربعة عشر قرنا!!... أنا لم أكن يوما شاعرا في حياتي، ولكنّ حضور «مشيرة» المباغت، والعقدة الّتي قيّدت لساني فعقدته عن الكلام، إضافة إلى عبق السّكون المنتشر في زوايا المكان، كلّ ذلك جعلني ألهج بذكر أسماء شعراء سمعت بهم مؤخّرا، وصادف أن قرأت بعضا من شعرهم؛ كما جعلني أستشعر رغبة في تقليدهم، ولو بأسلوب ركيك... كانت الرّغبة جامحة، طاغية، مدمّرة، وكنت وحيدا، مستوحشا، معزولا... لا أدري هل كنت جالسا فقمت، أم أنّي ظللت جالسا، قد يكون ذلك على السّرير، أو على الأرض، أو على أيّ شيء آخر... تخيّلت «مشيرة» في نفس المكان تحدّق فيّ... بدت لي صورتها واضحة، أوضح من أيّ وقت مضى... سحبت الهواء العابق برائحة الدّخان إلى رئتيّ بعمق... استجمعت قواي دافعا الأصوات والكلمات من بؤرة أعماقي إلى حنجرتي... واتتني شجاعتي، وحالفني الحظّ فخرج صوتي أخيرا سلسا دافئا، ورومنسيّا، لأوّل مرّة في حياتي، لأنّه لم يسبق لي أن تحدّثت إلى أنثى من قبل... كنت أخاطب «مشيرة»، بل كنت أخاطب صورتها... كنت أخاطب «مشيرة» وصورتها... لا يهمّ، هي أو صورتها، فكلا الأمرين سيّان...

تفيقين، سيّدتي،
من هديل يواربه المستحيل،
تفيقين في البعد،
والبعد أهزوجة

أقفل القلب أسرارها،
ردّدتها الشّوارع خلف خطاي،
وأحبلها البحر صمتا جديدا!!
***

هنا،
حيث شئت:
لك الأغنيات
لك القلب،
في اللّيل،
صبحا،
وعند الأصيل.
هنا، إن أردت،
بحرف تكون المدائن،
هذا اليباب يكون الأخير.
***

فتحت بنبضين
نافذة العشق،
أقفلت في القلب بابا أخيرا؛
بصمت أضأت الزّوايا بوشوشة الشّمع؛
أطلقت للحرف حرفا جديدا؛
وكان المساء بعيدا. قريبا...!!

وكان المساء بعيدا،
تلملمه الرّوح شوقا وذكرى؛
وأنت .مع الشّوق.
بعض من الضّوء،
أغنية هربّتها المدائن خلفي؛
وأنت مع .الذّكريات.
محنّطة من سنين...!

***

أرى، بين قلبي وقلبي،
مسافات أخرى، وبعض التّلاشي؛
أرى، من نوافذ عشقي،
على البعد نجما قديما،
ونافذة علّق النّخل فيها سديما.
رأيت.
وكان المساء قريبا.
كأنّ التّناهي ورقرقة الدّمع
كانت أصيلا!
فهلاّ أتيت
من القلب للقلب ليلا؟
وهلاّ علقت بوشوشة الشّمع
حتّى أراك تفيقين،
في الاحتراق،

امتدادا لمملكة شيّدتها المواعيد...
خلف الجفون؟!!
***

تقولين، سيّدتي،
إنّك، الآن، أنت؛
وأنت، بلا أنت، أنت!
فكيف تجلّيك كلّ الدّروب،
خطاي، وهذي المنارات،
كلّ السّفائن، حتّى الهديل؟!؟
تقولين، سيّدتي،
إنّ للحرف أقنعة
لا يراها المسافر في مهمه الجرح.
سيّدتي،
إنّ للحرف، أيضا، مسارب أخرى
يبايعها المستحيل!!
فلست بمن يدّعي فتح باب
لكلّ الحروف، ومحرقة اللّيل،
حتّى أقرّر قتل البدائل /
كلّ السّبيل!؟!
***

أخاف...
وأخفي من الحرف شطرا
به الكون كان.
وأخفيك .لو تعلمين .
صليبا من الصّمت بين العرائش؛
أخفيك تمتمة الرّبّ
تخصب في الكون وعد الوصايا.
ولكن،
أخاف .
إذا أنت أحرقت، في اللّيل، كلّ النّذور،
وأعفيت نذري من الحلم،
والعشق والأغنيات.
لك، الآن، أن تفعلي كلّ شيء،
وأن أستجيب؛
إذ الحرف، في البدء، كان نبيّا،
وأنت، كما الحرف، بالاختزال /
تكونين بدءا.
وأنت، كما الوحي، بالانفعال /
تصيرين كلّ القصيده.
***

... لعلّي كنت ملهما؛ والانفعال الّذي كان يمدّني بتلك الكلمات لا بدّ وأنّه قد بلغ أقصى ذروته إلى حدّ أنّني نسيت من

أكون، وصدّقت الوهم الّذي لم يكن ليخطر ببالي أبدا من قبل بأنّني ربّما أكون شاعرا بالفطرة؛ ولعلّي أيضا كنت، في الأغلب، أقرأ وأنا مغمض العينين، لأنّني عندما فتحتهما، عندما انقطع فيض الإلهام فجأة، لم أجد «مشيرة» في المكان الّذي أثبتّها فيه أوّل مرّة، كأنّ الأرض انشقّت فابتلعتها، أو تخطّفها الطّير، أو طار بها عفريت في أجواز الجوّ... أحسست بخيبة أمل، ورانت على قلبي موجة من الاكتئاب من جديد، تمنّيت معها لو أظلّ في موقفي، كما أنا، خلوا من كلّ إحساس بالحركة، أو الوزن، أو الحزن، أو الألم... لو توافيني حالة لانهائيّة من العطالة المطلقة، حيث لا أسماء حميمة تثير في النّفس وخز الحنين، ولا أشياء يمكن أن تنطبع على صفحة ذاكرة محكوم عليها بالصّمت والتفجّع. ولكن، هيهات! فالخيبة ما انفكّت تخضّ دمي خضّا، وما فتئ الاكتئاب يتجسّد أمامي في شكل صور معتمة موحشة، والألم يتكوّر ويتضخّم في أعماقي حتّى صار داميا، يكفي أن أخزه بأطراف أصابعي حتّى يتفجّر الدّم سيولا ووديانا!!

خطوت نحو شرّاعة الباب، رغم أنّ رغبتي في التّدخين لم تكن ملحّة، وطرقتها طرقات خفيفة لطيفة... في الحقيقة، كنت أشتهي لو ظلّت معي بعض السّجائر، فمجرّد وجودها كان كافيا أن يمنحني شعورا بالأمان والطّمأنينة؛ ولكنّي، في الوقت نفسه، كنت أتوجّس خيفة من رائحة الدّخان الّتي أصبحت مرتبطة في ذهني بحضور «مشيرة»، وهذا الحضور نفسه هو ما كان يرعبني لأنّه حضور مائع، أشبه ببرق خلّب

سرعان ما يختفي مخلّفا في القلب حسرة وكمدا... لم تلبث طاقة الباب أن فتحت، وطالعني وجه الحارس «جاد المولى»، منفرج الأسارير والقسمات، وقد غدت تلك النّظرة الحزينة في عينيه أقرب إلى سكينة وادعة... سمعته يقول قبل أن يمنحني الفرصة لفتح فمي:

.تريد أن تدخّن، أليس كذلك؟

قلت بعد لحظة صمت استغرقتني لاستبدال الكلمات الأولى الّتي كنت سأصوغها في شكل طلب، بكلمة أخرى تتناسب وسؤاله الأخير:

.بلى.

وأعطيته ورقة نقديّة، وأنا أقول:

.اشترلي علبة سجائر، واحتفظ بالباقي لنفسك.

تناول الورقة قائلا:

. ما عليك إلاّ الانتظار لبعض الوقت. فلن امكث طويلا حتّى أعود.

وأغلق الشّرّاعة برفق، لم أكن أتصوّر أن يتحلّى بمثله سجّان في أقبية السّجن!!

..الأن هنا مرّة أخرى..

(آلام الشّكّ والتّجلّي)

كان أوّل شيء تنبّهت إليه حين استدرت راجعا إلى مكاني الأوّل هو العتمة الّتي كانت تلفّ كلّ شيء، وترين بثقلها كلّه، مخلّفة وراءها صمتا وسكونا قد أحدثت فيهما الظّلمة شروخا وخدوشا... واستغربت آنئذ، وتعجّبت من نفسي، ممّا حدا بي أن أتساءل كيف أمكنني أن أتصرّف طوال المدّة المنقضية دون ارتكاب أيّ خطأ في التّقدير، أو السّقوط في شرك الاحتمالات العديدة السّيّئة الّتي كان الظّلام كفيلا بوضعها في طريقي... سمعت كثيرا من النّاس يقولون إنّ المرء لتتداول عليه حالات، يكون فيها أشبه بالملهم أو الرّاهب أو المجنون؛ وفي هذه الحالات ينتابه إحساس عجيب بانفصال نهائيّ عن العالم من حوله، وقد ينسى للحظة أنّه حدّ بين طرفي الزّمان والمكان، وقد ينسى وجوده نفسه في رحلة البحث عن شيء ما، أو فكرة ما، أو طيف ما... تذكّرت ذلك، وأنا أقف تقريبا في مكان ما في الوسط؛ واعتقدت أنّي . من بين الثلاثة المحتملين . قد أكون ملهما كان عليه أن يتخلّص أوّلا

من شعور طاغ بالانشداد والضّياع حتّى يدرك أخيرا أنّه هنا، في هذه الزّنزانة، وليس في أيّ مكان آخر... حتّى يدرك أخيرا أنّه داخل الظّلمة، وسط أتونها، ينظر إلى العتمة، ويحسّ بها تغزو كلّ خليّة من خلاياه... قد أكون جلست على حافّة السّرير، أو قد أكون ظللت واقفا طوال الوقت. أنا لست متأكّدا من ذلك... و«مشيرة»، هل هي الأخرى مجرّد وهم لذيذ من أوهام الذّاكرة؟... وحارس الزّنزانة، «جاد المولى»، هل يكون وهما آخر؟... لقد كان طيّبا معي، فهل أنسى رقّة صوته ونظرته الحانية؟ ثمّ كيف أثبتّ صورته في ذهني إذا لم أكن قد رأيته فعلا؟... سأفترض، بيني وبين نفسي، أنّي قد رأيته، وأكثر من ذلك، قد أكون تحدّثت إليه وأعطيته نقودا ليشتري لي علبة سجائر؛ ولكن ما لم أفهمه إلى حدّ الآن كيف أمكنتني رؤيته في ظلّ العتمة والظّلمة المطبقة... في حياتي.وهي بحساب الشّهور والأيّام طويلة قياسا إلى حياة أناس آخرين.لم أسمع برجل قد اخترق حجب الظّلمة وأمكنه أن يرى عيانا ما كان سيمكنه أن يراه فيما لو كان النّور مضاء، ولكنّي في المقابل قد أصبحت على يقين من أنّ أناسا بمقدورهم أن يروا إذا احتجبوا عن عالم الأحياء نفسه، وسوف لن يكون النّور . إن وجد . دافعا من دوافع اطّلاعهم على الكشف، ولا الظّلمة . إن أطبقت . عائقا بإمكانه منع الرّؤية والتّجلّي. هل هي البصيرة إذن؟ هل يعني هذا أنّي أصبحت واحدا من هؤلاء الّذين يمكنهم أن يروا دون حواجز؟ ما دمت قد اعترفت بأنّي ربّما كنت ملهما، فربّما يكون ذلك كافيا لتفسير ما حدث؛ وربّما أكون قد سموت

فوق وجودي المادّي إلى مراتب الصّفوة ممّن انكشفت أمام أعينهم حجب المجهول... «لا حاجة لمن كان مبصرا بالتّفكير في حاجة من حاجاته، إذ يكفي أن يحسّ. ولو إحساسا عارضا بحاجته حتّى تقوده بصيرته إلى تحقيقها، على أهون حال، وبأيسر السّبل»؛ من قال ذلك، يا ترى؟ وهل يكون من قاله أحد من النّاس؟ أم هو مجرّد صوت من الأصوات المتناوحة بداخلي، أبى إلاّ أن يقتحمني في هذه اللّحظة ليزيد من تشويش أفكاري؟... لا يهمّ ذلك، ما دمت أدرك على كلّ حال، أنّي أعرف هذه الجملة، وقد يستغرقني عمر طويل قبل أن أنساها... قد أكون رأيت نورا، أو ذبالة نور وانية، وهو ما تكفّل بإرشادي إلى كلّ ما فعلته على أكمل وجه، وبالدّقة الكافية!! كوّة في الجدار مثلا؟ أو مصباح؟ أو نافذة؟ أو شبه نافذة؟ ولكن أيّ نور هذا الّذي تراه فلا يزيدك إلاّ عمى على عماك. وأين الكوّة؟ وهي إن وجدت، فما سيكون جدوى وجودها في زنزانة محشورة في قبو تحت الأرض النديّة الرّطبة؟ والمصباح، أليس من الطّبيعيّ أنّه إذا كان هناك مصباح أن تستطيع رؤيته ولو بلغ حجمه حدّا متناهيا من الصّغر، لأنّ النّور الذّي سيكون منبعثا منه ساعتئذ سيدلّ عليه، ويرشد حتما إلى مكانه؟ والنّافذة، أو شبه النّافذة!! إنّي لم أسمع قطّ من قبل أنّ للزّنازين نوافذ! بلى، لكلّ زنزانة باب، وبابها مرعب لأنّه ثقيل وقاتم؛ أمّا أن تكون لها نافذة، فالصّعود إلى سطح القمر في غضون دقائق معدودات أسهل من ذلك وأهون بكثير!!

سمعت طرقا خفيفا على شرّاعة الباب، وتناهى إليّ من

بعيد صوت مزلاج ينداح في بطء، وفي نفس الوقت لمحت بريقا خاطفا، أشبه بالوميض، كان يشعّ بكلّ جلال حول الطّاقة؛ لم يكن إشعاعه قويّا، ولا عنيفا، ولكن فاتنا إلى درجة لا يتصوّرها عقل، سيّما إذا كان عقلا متعبا ومكدودا مثل عقلي... تجمّدت في مكاني، وأحسست بحالة العطالة الّتي كانت اعترتني منذ مدّة تعاودني من جديد... عيناي كانتا منشدّتين نحو ذلك الوميض بعنف مازوكيّ، تتابعانه في حركته الدّائبة، تتابعانه وهو يظهر حينا ويختفي حينا آخر، وتتابعانه أخيرا وهو يغزوني ويغرق كلّ شيء حولي في ظلمة سرمديّة بلا حدود... هل كان ذلك حقيقة؟ هل كان وهما جديدا، كما كانت «مشيرة» وهما منذ أوّل يوم مجيئها إلى المصلحة، وحتّى اللّحظة الّتي أسبغت فيها على صورتها تلك الكلمات/ بنات أفكاري؟!!

.سعيد.

.سعيد.

انتبهت بغتة من استغراقي، كالمصعوق، وقصدت مصدر الصّوت... كنت أرى الحارس «جاد المولى»، وقد تحوّل ذلك الوميض الخاطف من مكانه الأوّل ليحيط وجهه، بنفس قسماته وملامحه، ونفس التّعابير الّتي كنت رأيتها مستقرّة على صفحته، والّتي انطبعت آثارها في ذهني منذ أوّل مرّة تعرّفت فيها إليه. لا بدّ أنّه قد لاحظ على وجهي كمّا هائلا من الارتباك والرّهبة والاشفاق، فقد سألني بنبرة أبويّة مشفقة:

.ما لك، يا ولدي؟

فأجبته متلعثما، وأنا لا أدرك تماما ماذا أقول:

.لا شيء... لا شيء على الإطلاق.

ثمّ عنّ لي أن أسأله ذلك السّؤال الّذي كان يختزل جوهر حيرتي، وذروة مأساتي:

.هل ترى النّور من حولك؟

فضحك كأنّ السّؤال .لبساطته .لا يمكن أن يستثير سوى ضحكة ذات رنين كتلك الّتي صدرت عنه، وقال بهدوئه المعتاد:

. فكيف أراك إذن؟ قطعا أرى النّور... إنّه النّور المنبعث من المصباح في يدي.

ثمّ مدّ لي يده قائلا:

.هذه علبة السّجائر.

لم أشأ أن أسأله أكثر، فقد تأكّدت أنّه لم يكن يرى ذلك الوميض الّذي أراه؛ ولكنّي كنت مصمّما على إراحة نفسي من ثقل الكوابيس والخيالات، فقلت له:

.أريد مصباحا، يا عمّ جاد.

ما لبث سوى لحظات عاد بعدها حاملا فانوسا زيتيّا أعطانيه، ثمّ أغلق الشّرّاعة وتركني لنهنهة الصّمت، وذلك الوميض الّذي انسرب عبر ثنايا الفتحة الّتي انفرجت عنها طاقة الباب وعاد ليحتلّ مكانه الأوّل، أمامي، بنفس الألق والفتنة اللّتين تراءتا لعينيّ منذ قليل... تملّكني خوف، ليس لمرأى النّور الّذي كان مجرّد ظهوره . إن كان ظهوره حقيقة وليس وهما .كفيلا بأن يمنحني نعمة الإحساس بأنّي في سلام مع المحيط من حولي، والّذي أبصر عناصره جيّدا، ودونما

حاجة إلى وسائط؛ ولكن ما جعلني أخاف، ويركبني شبح الرّعب، شعور غريب بأنّي ربّما أكون أتصوّر أشياء ليست موجودة في الواقع؛ وعليه، واستنادا إلى حالات كنت مررت بها من قبل، قد أكون عرضة إلى اختلال توازني العقليّ، ومعانقة شبح الجنون... تناولت عود ثقاب، وأشعلته بسرعة، ثمّ أدنيته من فتيل الفانوس، وأشعلته بدوره... اشرأبّ عنقي لاإراديّا إلى الأمام، ونظرت نحو المكان الّذي بدا لي أنّ الوميض كان ينبعث منه، فلم أجد شيئا، وكانت تلك صدمتي الثّانية، منذ حلولي بالزّنزانة، بعد الاختفاء المفاجئ لـ «مشيرة»!!

تقدّمت نحو الباب، وقد أزمعت أن أداور هواجسي والمخاوف الّتي أصبحت لا تطاق بداخلي؛ وما إن اقتربت منه حتّى وجدته أشبه بجذع شجرة كبيرة ضخمة، مصقولة في غير إتقان، وقد شدّ في مواضع عديدة منه بعوارض حديديّة، متباعدة، في شكل أفقيّ، مثبتة بمسامير عملاقة قد علا رؤوسها الصّدأ؛ ولولا تلك الشّرّاعة الصّغيرة الّتي تفتح على عالم أكثر رحابة واتّساعا، لكان مجرّد رؤية هذا الباب المعمّر كافيا وحده لأن يبعث في النّفس يأسا وكآبة... تأمّلت، بعد ذلك، السّقف. كان واطئا جدّا إلى درجة أنّي لو رفعت ذراعي على امتداده للمست سطحه بأطراف أناملي. وكان مستقيما في مواضع عديدة، ومنحنيا في مواضع أخرى؛ وقد دفعني ذلك إلى الاعتقاد أنّه ربّما يكون على وشك السّقوط، سيّما وأنّ النّظرة الأولى الّتي ألقيتها عليه خلّفت لديّ إحساسا جارفا بالقدم، والفناء، والتّداعي؛ ثمّ إنّه كان متآكلا جدّا بفعل

الرّطوبة، فظهرت في وسطه وأطرافه قشور بيضاء كلسيّة، كان بعضها يتساقط باستمرار على أرض الزّنزانة... الجدران هي الأخرى متآكلة، ولكنّها ضخمة عملاقة؛ وعلى عكس السّقف، كان منظرها العامّ يوحي بالمقاومة والصّمود، كما أنّه يعطي انطباعا عميقا بالحياد واللاّمبالاة... وقد تخيّلت، في وقت ما، وأنا أجيل نظرات وجلى خلالها أن أجد عبارات كتلك الّتي دأب المساجين على حفرها أثناء مدّة محكوميّتهم، إلاّ أنّي أصبت بخيبة أمل، زاد من حدّتها شعور طارئ بالحيرة، إذ كان الشّيء الوحيد الّذي رأيته على كلّ الجدران تقريبا، وبكلّ وضوح، في نفس الموضع من كلّ جدار، جناحين كبيرين مكسوّين بريش ناعم، أكاد لشدّة نعومتهما أن أمدّ يديّ فألمسهما بأطراف أناملي، وذيلا مرقّشا بمختلف الألوان الّتي تحاكي في تعدّدها وتنوّعها ألوان الطّيف... تساءلت عمّا يعني كلّ ذلك، وحاولت أن أجد علاقة ما بين ما كان يمكن أن أجده مكتوبا وبين الّذي أراه الآن أمام عينيّ، ولكن دون جدوى... فهل هو وهم آخر من أوهام المخيّلة؟ أم أنّ هناك قوّة خفيّة ما تروم مشاكستي والتّلاعب بعقلي؟... ألا يجوز أن يكون الجناحان رمزا لشيء ما؟ والذّيل كذلك؟ ألا يحتمل أن تكون هذه الصّور والأحافير بقايا آثار من زمن ما، ، وقد كان مقدرًا لي، منذ قديم الأزل، أن تنكشف أسرارها على يديّ؟ ولكن أيّ رمز يمكن أن يوحي به جناحان في قاع زنزانة تحت الأرض؟ وأيّ معنى لذيل مرقّش، متناهي البهاء والفتنة في مكان موحش لا يفرز سوى إحساس مقزّز بالعذاب والموت؟ ثمّ، ليكن ما رأيته آثارا أو بقايا آثار،

فكيف لم يتوصّلوا إلى اكتشافها من قبل، حيث أنّه لا بدّ وأنّ مساجين قبلي قد جاءوا إلى هذا المكان، مثقلين بخطايا ارتكبوها، وأخرى ربّما لم يكونوا مسؤولين عنها؟ لكن من يستطيع أن يجزم أنّ آخرين قد جاءوا هنا قبلي؟ من يستطيع أن يثبت لي ذلك؟!!

لقد كنت أخشى إن أنا تماديت في الاستسلام لمثل هذه التّساؤلات وغيرها أن ينتهي بي المطاف إلى فقدان البقيّة الباقية من وعيي، أو ربّما السّيطرة على نفسي، فأرتكب حماقة لا تليق بسجين لم يمرّ على وجوده بالزّنزانة سوى بعض يوم. وقد تفاقمت هذه الخشية بداخلي بشكل لا يحتمل حتّى أحسست بثقل رهيب في رأسي، وشعور أقرب ما يكون إلى الغثيان، فاستدرت منقادا إلى غريزة مبهمة: إذ ذاك، وقعت عيناي، في جانب قصيّ إلى الجهة اليسرى، على بطّانيّة، قد يكون من العبث تسميتها بذلك الاسم، إلاّ أنّها لا تشبه أيّ شيء آخر، فيطلق عليها اسمه... كانت أغلظ بقليل من اللّحاف، وأرقّ بكثير من البطّانيّة العاديّة، وقد بهتت إلى حدّ أنّ أيّ لون لم يعد صالحا لنسبته إليها؛ كما أنّ البقع المنتشرة فوقها، والّتي بات من غير الممكن إزالتها عنها، توحي بأنّ عمرها من عمر البطّانيّة نفسها... تحت البطّانيّة الملقاة في لامبالاة، ظهرت بدايات حشيّة، لم تكن من نوع تلك الحشايا المعروضة في الأسواق هذه الأيّام، والّتي اشتريت واحدة منها مذ صرفت لنا المصلحة أوّل ماهية مستحقّة، ولكنّها من ذلك النّوع الّذي ينتمي إلى عصر آخر... خرقة متّسخة عليها

خطوط بيضاء وزرقاء متعامدة، محشوّة بالقشّ، الّذي لا بدّ وأنّ البقّ والبراغيث قد فقسوا فيه وفرّخوا للمرّة الألف، على أقلّ تقدير... لم أروسادة؛ إذ بدا لي أنّ التّرف الّذي كنت رأيته منذ قليل كان في غنى عن ترف الوسادة، الّتي ربّما كان وجودها سيؤدّي إلى إصابتي بتخمة عسر الهضم... رأيت قوائم السّرير، وكانت طويلة، من معدن مطليّ بلون أبيض قد حال وتآكل في أكثر من موضع، وما عدا ذلك لم أكن أرى سوى أرضيّة الزّنزانة الّتي كانت تكسوها حجارة كبيرة بيضاء، ذات ألوان وأحجام متباينة، قد ملئت الفراغات الكثيرة بينها بإسمنت كامد اللّون... وكنت طوال الوقت أشتمّ رائحة غريبة... لم تكن رائحة الهواء . على عفونتها ،، ولا رائحة الرّطوبة، لكن رائحة أخرى عطنة؛ وقد جعلني ذلك أحسّ بألم لا يقاوم في المثانة، فخشيت أن أفعلها في سروالي... فكّرت في المرحاض، وقادتني خطاي اليائسة، لاإراديّا، إلى مصدر الرّائحة، حيث كانت آنية من الصّفيح ما تزال بها بقايا من الفضلات، الّتي رغم قدمها كانت تنبعث منها روائح غاية في القرف والنّتانة... انتظرت قليلا، وكان الألم يعتصرني، ولكنّي لم أستطع أن أتبوّل... انتظرت مدّة أخرى، حتّى كدت أيأس، وفي الأخير، لم تنزل سوى بضع قطرات وانية، وعلى فترات متباعدة.

كيف يستطيع أحد ما، أيّ أحد، ومهما بلغت درجة لامبالاته وتحمّله، أن يطيق المكوث في زنزانة، سيّما إذا كانت هذه الزّنزانة بهذه الوحشيّة المحايدة والعدائيّة القاتلة؟!... كنت أسمع الكثير من الحكايات عن المساجين وعن ظروف

عيشهم داخل السّجون، وكنت لا أصدّق أغلبها، لأنّي كنت أرى فيها الكثير من المبالغات؛ كما قرأت عنهم كثيرا في الصّحف وبعض الكتب الّتي كانت تضعها المصادفات أمامي؛ ولعلّي كنت آنئذ أستمع إلى الأحاديث المتداولة، أو أقرأ لنفسي، وكأنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرّد هذر لا يعنيني. فما علاقتي أنا بالسّجن؟ وهل كنت أتوقّع أن أكون، في يوم من الأيّام، أحد نزلائه؟ إنّ مجرّد التّفكير في ذلك كان يملأني رغبة في الضّحك، حيث لم أكن من أصحاب السّوابق، كما لم يكن لديّ نزوع، من أيّ نوع، نحو العنف أو الانحراف، من شأنه أن يضعني وجها لوجه في طريق السّجن المعبّدة بالشّوك... سمعت عن أناس كثيرين قضوا حياتهم في الزّنازين، ولم يخرجوا منها إلاّ وهم في الهزيع الأخير من حياة لم تعد تستأهل أن يعيشها الإنسان؛ وعن آخرين قد تراوحت مدّة محكوميّتهم بين خمس سنوات وعشرين سنة؛ وعن أناس آخرين قد قضوا قبل أن يحين موعد إطلاق سراحهم... أنا لم أكن مثلهم... إنّي مختلف عنهم تماما، وكيفما قلّبت أمري، وجدتني مختلفا عنهم اختلافا بيّنا... سوف لن تطول مدّة إقامتي أكثر من ثلاثة أيّام، ولا شكّ أنّه سيفرج عنّي في نهايتها إذا قابلت قاضي التّحقيق وأخبرته بحكايتي؛ ومع ذلك، ورغم تلك القناعة الّتي لم يكن من العسير عليّ تكوينها نظرا لتأكّدي من براءتي، فقد بدأت أشعر بالقلق والانزعاج يدبّان في خواء نفسي شيئا فشيئا، كما يدبّ رتل من النّمل الجائع في أرض خلاء... كنت في حاجة إلى أن أعرف الوقت، ولم تكن لديّ. لسوء الحظّ. ساعة؛ فأنا

لم أضع في يدي. طول سنواتي الثّلاثين. واحدة في يدي، وقد سألت عمّ «جاد المولى» من الشّرّاعة عن الوقت، فضحك عاليا، وقال لي:

. لا تزعج نفسك، يا ولدي؛ حتّى إذا حان وقت خروجك، سنخرجك دونما حاجة إلى ساعة!!

شعرت، فجأة، كأنّ شيئا غريبا، غاية في الغرابة، يحدث من حولي، دون علم منّي... وقد قدّرت، حتّى من قبل أن أنظر في أيّ اتّجاه، كم سيكون الأمر مرعبا مهولا. فالأشياء داخل زنزانة لا يمكن أن تكون إلاّ كذلك بالنّسبة إليّ. تساءلت في نفسي، وأنا أحاول أن أؤجّل لحظة الاكتشاف، مستهدفا بذلك منحي فرصة لتهدئة هواجسي ومخاوفي: «هل يمكن أن أتحمّل في ثلاثة أيّام ما قد يتحمّله أحدهم في خمسة أو عشرة أيّام؟!»... كانت المفاجأة في كلّ مكان من حولي؛ أو بالأحرى، على الجدران الأربعة، في تلك الصّور والأحافير... لقد بدا لي في لحظة ما، أنّ ذينك الجناحين اللّذين كنت رأيتهما من قبل، وذلك الذّيل المرقّش، قد شرعوا جميعهم في النّدف استعدادا للتّحليق... الجناحان يخفقان خفقانا متواصلا، والذّيل يرتفع وينخفض باستمرار؛ وبين الفينة والأخرى، وكما يحدث في الحلم عادة، كان يخيّل إليّ كأنّي أرى مكان الفراغ بين ذينك الجناحين، وذلك الذّيل، طيف شيء ما، أو شخص ما، كان يختفي ويظهر، دون إعطائي أيّ فرصة لإثباته، كما لو أنّه كان يروم أن يلعب معي لعبة الاختفاء... انتظرت مدفوعا بحبّ الفضول، هذه المرّة، أكثر من الخوف أو الدّهشة، فقد تأكّد

لديّ، وبما لا يقبل مجالا للشكّ، أنّ كلّ شيء ممكن الحدوث في زنزانة بلا نوافذ أو كوى... لم أعد أتساءل عن حيّز الوهم أو الحقيقة في كلّ ما أرى، فقد بدا لي، ولا أدري لماذا، أنّ الوهم والحقيقة لا بدّ وأن يكونا وجهين لعملة واحدة!!... وانتظرت وقد استحال حبّ الفضول إلى رغبة جامحة في المعرفة، ولكنّ كلّ جهودي ذهبت سدى؛ وبعد طول انتظار لم أسمع سوى صوت، كان آتيا من مكان ما، وهو يقول في وثوق:

. أطفئ النّور.

أعطاني ذلك الصّوت شجاعة إضافيّة، وثقة في النّفس كانت في طريقها إلى الانحلال والتّلاشي، فسألته، وأنا أنظر ناحية المكان الّذي تخيّلت أنّه ربّما يكون قابعا فيه:

. من أنت؟

فسمعته يقول:

. أطفئ النّور.

فأعدت عليه السّؤال:

. من أنت؟

فردّ عليّ للمرّة الثّالثة:

. أطفئ النّور.

حينئذ أردت التّأكّد من أنّه يسمعني، فقلت:

. كائنا من تكون أنت، هل تسمعني؟

ساد الصّمت وقتا طويلا حتّى ظننت أنّه لن يعود إلى الكلام مرّة أخرى؛ ولكن عندما استدرت قاصدا السّرير، لأوّل مرّة، لأجلس على حافتّه، بعد أن بدأت أحسّ ألما يسري في قدميّ

وساقيّ المتعبتين، سمعت ذلك الصّوت من جديد، ولم يكن يبدو عليه أنّه قد سمع سؤالي أو انتبه إليه، فقد ضاعف من حيرتي وزاد البلبال الّذي أخذ يعتمل بنفسي ويزداد اضطراما، وهو يترنّم بنبرات أقرب إلى الحزن والتّأسّي:

.الحزن أيضا يعرف طريقه إلى قلب أبولون البهيّ الطّلعة،

فما إن بدأ إنشاد فرحة النّصر على بيفون حتّى غدا فريسة الأحزان. كان يقف على جسد الأفعوان الصّريع مزهوّا بقوّته عندما لمح أيروت، إله الحبّ الفتيّ واقفا بالقرب منه وقد صوّب إليه قوسه الذّهبيّ الصّغير، فضحك أبولون وابتدره قائلا:

.ما لك ولهذا السّلاح الرّهيب أيّها الغلام!! الأولى أن ترميني بمثل السّهام الذّهبيّة الفتّاكة الّتي صرعت بها بيفون منذ لحظات. أتحسب أنّ لمثلك أن يضارعني في رمي السّهام . أم أنّك تطمح إلى بلوغ ما سموت إليه من المجد.

فأجاب أيروت باستعلاء، وقد لمست الإساءة كبرياءه: . سهامك يا أبولون نافذة أبدا لا تخيب، لكنّ سهمي أيضا سيخترق فؤادك.

وصفّق أيروت بجناحيه الذّهبيّين فكان بعد لحظة فوق قمّة جبل برناس الشّاهق، وهناك أخرج من كنانته سهما يجرح القلب ويثير الحبّ رمى به قلب أبولون المجيد فاخترقه، ولم يلبث أبولون أن التقى بدافنا ذات الجمال الفتّان فأحبّها، غير أنّها كانت عالقة القلب بحبّ رجل آخر وكانت مخطوبة له، فما إن شهدت أبولون يقترب منها ونداء الحبّ في عينيه

حتّى أجفلت وفرّت من أمامه فانطلق في إثرها وهو يصيح:
. قفي أيّتها الرّبّة الرّائعة، ما لك تفرّين منّي كالنّعجة الّتي يطاردها الذّئب. ما لك تطيرين كالحمامة الّتي تحاول الإفلات من الصّقر. أنا لست عدوّا لك. انظري. لقد أدمت قدميك أشواك العلّيق الحادّة، إيه، قفي، تمهّلي، فأنا أبولون بن زيّوس، ولست واحدا من الرّعاة الفانين.

لكنّ الفتاة حثّت خطاها مسرعة فأسرع أبولون في إثرها وكأنّه محمول على الأجنحة. ها هو ذا قد اقترب منها حتّى بدأت تحسّ بأنفاسه فخانتها قواها وأخذت تضرع إلى أبيها قائلة:
. أبي بينيوس. مدّ لي يدك بالعون! انشقّي بسرعة أيّتها الأرض وابتلعيني، أو لتتحوّل هيئتي هذه فهي لا تجرّ عليّ سوى الآلام.

وما أتمّت الآلهة الفاتنة ضراعتها حتّى دبّ النّمل في أطرافها واكتسى جسمها بالقشور وتحوّل شعرها أوراقا من الغار وارتفعت يداها إلى السّماء فاستحالتا غصنين. ووقف أبولون طويلا يتأمّل الشّجرة الخضراء وتمتم:
. فلتزيّن هامتي ولو بإكليل من أغصان، ولتزيّن بأوراقك قيثارتي وكنانتي منذ الآن، ولتظلّ أوراقك أبديّة الخضرة يا شجرة الغار.

وبهدوء تمايلت أغصان الشّجرة وكأنّها تردّ على كلمات أبولون، ومالت ذروتها الخضراء دلالة الرّضى والقبول.[٧]

٧ «دافنا». عن قصيدة أوفيد «ميتامورفوز»

وصمت الصّوت مليّا، ثمّ عاد يقول وكأنّه يقرأ من كتاب:

. خرج أكيتون مرّة مع رفاقه للصّيد في غابات كيثيرون. وحلّ وقت الظّهر القائظ فتفرّق الصّيّادون المتعبون في ظلال الغابة الظّليلة طلبا للرّاحة. أمّا أكيتون الشّابّ فانفصل عنهم ومضى ينشد مكانا باردا في وديان كيثيرون فأطلّ على وادي غارغافيا الأخضر الزّاهر، وادي الإلهة أرتيميدا. كانت أشجار الدّلب والسّرو ترتفع في الوادي باسقة كثيفة وتتماوج الحشائش الخضراء مختلطة بألوان الزّهور الزّاهية. وفي أحشاء الوادي يتردّد خرير ساقية صغيرة ويخيّم الصّمت والهدوء والبرودة على كلّ شيء. وتحت مندحر شديد الميل شاهد أكيتون كهفا رائعا يبطّنه الاخضرار فسار نحوه غير عالم بأنّ أرتيميدا، ابنة زيّوس تلجأ إليه للرّاحة والهدوء.

كانت أرتيميدا قد دخلت الكهف لحظة وصله أكيتون، وكانت قد ناولت قوسها وسهامها إلى واحدة من الحوريّات وتهيّأت للاستحمام فنزعت الحوريّات حذاءها وعصبن شعرها وكنّ على وشك المضيّ إلى النّهر لاغتراف مائه البارد عندما أطلّ أكيتون على مدخل الكهف، فأطلقت الحوريّات صرخة ثاقبة والتففن حول أرتيميدا ليحجبنها عن نظرات ذلك الفاني. وأضاءت حمرة الغضب وجه أرتيميدا مثلما تضيء الشّمس المشرقة بحمرتها الغيوم. واتّقدت عيناها فزادتها جمالا على جمال. وفي سورة الغضب أحالت الصّيّاد التّاعس وعلا فتشعّبت القرون على رأسه وتطاولت عنقه وضاقت أذناه واستحالت يداه ورجلاه إلى أطراف وعل جميل

كما اكتسى جسمه بوبر ناعم. وأسلم الوعل المذعور أقدامه للرّيح حينما رأى صورته المنعكسة في الماء فأراد أن يصيح: «يا ويلتاه»، ولكنّه فقد القدرة على النّطق، وتساقطت العبرات من عينيه، ولم يبق منه بشريّ غير عقله. ماذا له أن يعمل؟ أين المفرّ؟

وتنسّمت الكلاب رائحة الوعل فلم تميّز فيه صاحبها بل اندفعت في إثره تنبح نباحا رهيبا. وانطلق الوعل الجميل كالرّيح يقطع وهاد كيثيرون وتلالها ويطوي الغابات والسّهول وسفوح الجبال وقرناه المتشعّبان يستقرّان على ظهره وتعدو في إثره الكلاب، ثمّ اقتربت منه أخيرا وأطبقت بأنيابها على جسده التّاعس تعمل فيه عضّا ونهشا. إنّه يريد أن يصرخ بها .. ارحميني فأنا صاحبك أكيتون! لكنّ صدره لا ينشقّ إلاّ عن الأنين الحزين الّذي يضمّ الصّوت البشريّ في طيّاته. وخرّ أكيتون الوعل على ركبتيه الأماميّتين تنطق عيناه باليأس والرّعب والضّراعة، فقد دنت النّهاية الرّهيبة.

وأشفق رفاق أكيتون لأنّه غاب عنهم ولم يشاهدوا ذلك الصّيد الثّمين، ولم يعرفوا أنّه كان يمثّل نهاية أكيتون الّذي أزعج أرتيميدا: الإنسان الوحيد الّذي اكتحلت عيناه بمرأى الجمال الإلهيّ لابنة زيّوس ولاتونا.[٨]

---

٨ «أكيتون». عن قصيدة أوفيد «ميتامورفوز»

آلام الشّكّ والتّجلّي... في زنزانة!

((حديث الجنون))

بلى، إنّي أسمع بأذني، وأرى بعينيّ... تتناهى إليّ أصوات في شكل ذبذبات تخترق طبلة أذني، وأنظر من حولي، ولكن لا أظنّ بأنّي رغم ذلك ستكون لديّ الجرأة على الاعتراف بأنّي أسمع أصواتا حقيقيّة؛ وأنّي،أنا «سعيد» شخص حقيقيّ، له وجدود ثابت في الزّمان والمكان، يستشعر إحساسا بالألم لأنّه لا يعرف، أوربّما لأنّه يعرف... الملهم أو المنوّم مغناطيسيّا، وفي ذروة لحظة التّجلّي والإشراق، يخاطب أشخاصا غير منظورين، يستحضرهم، يستدعي صورا موغلة في الذّاكرة، أو متلاشية بين طيّات الزّمان، تتكاثف داخله أحاسيس شتّى، تتضخّم، يشعر آنذاك بأنّه قد حطّم جميع الحواجز والحدود... يشعر بأنّه قد اختزل في لحظة انتشائه كلّ العصور البائدة والحواجزوالحدود... يشعربأنّه، في لحظة، قد اختصر الزّمان، وامّحى أمام عينيه المكان ليصبح مجرّد نقطة بلا قبل ولا بعد، ولا وراء ولا أمام... يشعر في لحظة بأنّه حطّم قيود عبوديّته وبلغ تسامي المتصوّفة وأهل الكرامات؛ ولكن، رغم

ذلك كلّه، وإذا ما غامت لحظة الكشف، وارتدّ إلى غموض الواقع وألوانه الباهتة، هل ستكون لديه الجرأة ليعترف أنّه قد رأى ما رأى أو سمع ما سمع؟! لسوف أكون أنا مثل ذلك الملهم أو المنوّم مغناطيسيّا إذا ما كانت لديه الشّجاعة الكافية ليقول: «إنّي لست متأكّدا! وقد يكون ما رأيته وهما، وقد يكون حقيقة كذلك؛ ونفس الشّيء ينطبق على ما كنت سمعته أو أحسسته!!»... بلى، إنّي موجود بين زوايا هذه الزّنزانة، ولست موجودا؛ وإنّي أسمع صوت ذلك الطّيف بكلّ وضوح، ولا أسمعه؛ وأرى ذينك الجناحين النّاعمين والذّيل المرقّش، ولا أرى شيئا... وفي الحقيقة، لقد أعطاني ذلك الإحساس بالضّعف أمام رهبة الجزم واليقين مسوّغا لتدخين سيجارة أخرى؛ ولذلك لم أتوان لحظة واحدة في سحب علبة سجائري... داهمني شعور غامض بأنّي لو كنت تأخّرت قليلا، أو قاومت تلك الرّغبة الطّافحة في التّدخين، لكنت حكمت على نفسي حكما غير قابل للاستئناف... هذه الخيالات الّتي أراها أمامي، والّتي لا تكفّ أبدا عن الحركة والاضطراب العشوائيّ... وهذه الصّور وبقايا الصّور... وهذه الهواجس الّتي ما تفتأ تتجسّد غيلانا وعفاريت بأنياب طويلة ترشح سمّا زعافا، كانت كلّها نذرا بقرب المأساة ودنوّها وحلول الهلاك والموت!!

وأنا أدخّن، غالبا ما كانت تراودني أفكار كثيرة، تنساب بكلّ عفويّة دون أن يكون لديّ أدنى نيّة لإيقافها؛ بل إنّي كنت أتعمّد التّدخين، حتّى ولو لم تكن بي رغبة إلى ذلك، لا لشيء إلاّ

لأستمتع بجموح تلك الأفكار، وأتلذّذ بتمرّدها على كلّ منطق. ذات مرّة، كنت أنظر إلى حمار هرم في أحد الإسطبلات؛ ورغم أنّ ذلك الإسطبل كان يعجّ بحيوانات أجمل منه وأكثر نشاطا، فإنّ نظراتي كانت تلوب هنا وهناك، ثمّ سرعان ما تستقرّ عليه. وقد تساءلت آنذاك عمّا كان يشدّني إلى ذلك الحمار ولا شيء يميّزه عن باقي الحمير من بني جنسه؛ وفي محاولة للإجابة عن ذلك السّؤال الّذي بدا لي صعبا، عدا كونه مهمّا، أشعلت سيجارة سحبت منها نفسا عميقا... تذكّرت ما كان قاله لنا أستاذ الفلسفة، منذ أحد عشر عاما، في المدرسة الثّانويّة من أنّ «الإنسان حيوان مفكّر»، وتذكّرت مداعبتي لأخي الصّغير، حين كان يمعن في مشاكسته وشيطنته، حيث كنت أقول له مستعيرا عبارة الأستاذ: «أنت حيوان غير مفكّر»؛ ولكنّ أخي الصّغير كان، إلى ميله للّعب وتدبير المقالب، ذكيّا جدّا، فلم يكن ليكتفي بسماع تلك العبارة، بل كان يسألني مدّعيا البراءة في الظّاهر، ولكنّه ينوي في الحقيقة توريطي:

.فأيّ حيوان أنا من بين الحيوانات غير المفكّرة؟

لم أكن أتوقّع منه ذلك السّؤال، غير أنّي دأبت على أن أقول له بعد ذلك نكاية فيه على جرأته وذكائه معا:

.أنت حمار صغير غير مفكّر.

فكان يضحك طويلا، ثمّ يقول وهو يبتعد استعدادا للهرب خشية عقابي:

.وأنت حمار كبير لا يفكّر.

ومنذ ذلك الوقت، انطبعت صورة الحمار في ذهني:

فأصبحت لا أرى حمارا إلاّ طفت على سطح ذاكرتي تلك الملاسنة بيني وبين أخي؛ غير أنّ ما شدّني إلى هذا الحمار الهرم داخل الإسطبل شيء أكبر بكثير من مجرّد مثير... إنّه ذلك البريق العجيب في عينيه الحزينتين... إنّه ذلك الكلام الكثير الّذي سمعته يخرج من بين شفتيه الكبيرتين السّاخرتين... رأيته حين يحرّك أذنيه الطّويلتين يزمّ شفتيه ويصفن كأنّما يفكّر؛ وحين تسترخي أذناه، يضجّ حلقه بالضّحك، ويستلقي على ظهره حتّى يفحص التّراب برجليه الخلفيّتين... رجلاه الأماميّتان لم تعودا رجلي حمار هرم، بل تحوّلتا إلى يدين آدميّتين، مدّ لي إحداهما، ففهمت أنّه يريد أن يدخّن... أشعلت سيجارة أعطيته إيّاها... أخذها منّي، ولثمها بين شفتيه ساحبا نفسا حماريّا، وبعد أن مجّ الدّخان في عربدة، التفت نحوي قائلا:

.الآن، لم يعد هناك داع أن تكون حمارا كبيرا لا يفكّر. لقد أصبح كلانا شخصين مفكّرين، ولا حاجة بنا إلى الحيوانات كي نسبغ عليها ملكة التّفكير.

لا أنكر أنّي أخذت على حين غرّة؛ وربّما كانت دهشتي من أنّه حدس ما يجول بخاطري أكبر من دهشتي لكونه حمارا ناطقا... سألته:

.عجبا! وكيف حدست ما يجول بخاطري هذه اللّحظة؟

فجذب أنفاسا متتالية من سيجارته الّتي ذهب أكثرها، وقال وهو ما يزال يضحك:

.فلتعلم، يا صديقي، أنّي .عدا كوني شخصا مفكّرا .قادر

على قراءة الأفكار؛ ولكنّه الحظّ، تمنحه الحياة لمن تشاء، وتحرمه من تشاء، وأنا ممّن حرمتهم الحياة، ولم تتعامل معهم على قدر الذّكاء والكفاءة.

فقلت له، ولم أستطع أن أخفي إعجابي به:

. إنّك حقّا أذكى من كلّ الحمير الّذين رأيتهم في حياتي!

فنظر إليّ قائلا، وقد استعاد سيرته الأولى، وهيئته الأولى:

. بل أنا حمار هرم مسكين، قد أضناه التّفكير، حتّى تقوّس من حمله ظهري!!

عندما تناولت علبة السّجائر الّتي أحضرها حارس الزّنزانة، وما إن سحبت سيجارة أشعلتها حتّى سرحت؛ وبمجرّد أن استقرّ الدّخان في رئتيّ، على إثر النّفثات الأولى الّتي سحبتها إلى صدري، ضعت تماما... احتجب السّقف الذّي كان فوقي، وغامت أرضيّة الزّنزانة أمام ناظريّ، وتلك الجدران الجبّارة الّتي كنت أراها إلى وقت قريب غارقة في وهم شموخها وكبريائها جاء الطّوفان فدكّها دكّا، وتركها قاعا صفصفا... بقيت ثابتا في مكاني، ولم تخامرني أدنى رغبة في الهروب؛ فما جدوى أن يهرب الإنسان من سجن إلى سجن أكبر منه؟ ولكن، هل أنا أيّ إنسان، في هذا الزّمن الضّارب في القدم، وهذا المكان الّذي لا يشبه أيّ مكان، بفراغه اللاّنهائيّ وامّحاء ملامحه الفارقة؟ هل أنا إنسان أصلا... ذلك الإنسان الّذي إن حانت لحظة وفاته سيموت متأثّرا إمّا بجروحه، أو مرضه، أو شيخوخته المزمنة؟! أنا لا أحسّ الآن أنّي ذلك الإنسان... أعرف أنّ زمن المعجزات قد ولّى، وأنّ خرافة العنقاء لا أصل لها من الصّحّة،

كما أنّ أسطورة أبي الهول وهم كبير من الأوهام الّتي نسجتها حضارة الإنسان الخلاّق على امتداد أربعين قرنا؛ ولكنّي، مع ذلك، أرفض الإقرار بأنّي ذلك الإنسان الّذي سيموت في لحظة ما، إذا حضرت وفاته، متأثّرا بجروح الحبّ الّتي لا تندمل، أو بمرضه العضال، أو شيخوخته الّتي لا ترحم... في هذه اللّحظة، وأنا أدخّن، على قمّة جبل النّشوة، وراء حدود الآلام المرتسمة خلف أسوار الرّهبة، أشعر أنّي كائن آخر فوق الزّمان، والمكان لا يمثّل بالنّسبة إليّ إلاّ وهما آخر من أوهام ذاكرة مثقوبة تركتها تحتضر على سرير الموت وراء أعاصير الأقيانوس وزوابعه العاتية... إنّي أرى بعينيّ اللّتين سوف لن يكون الدّود الجائع قادرا على نهشهما تحت نداوة التّراب وطراوته ضخامة الحوت، وأسمع الماء الّذي كان يهتزّ بعنف تحت ضربات جسمه العملاق وذيله الأسطوريّ... كان نفس ذلك الحوت الّذي ابتلع النّبيّ، واحتفظ به في جوفه، إلى أجل غير مسمّى؛ وكان النّبيّ ممعنا في تسبيحه، مستغرقا في صلاته، يقتطع إذا جاع من اللّحم الطّريّ ويأكله نيّئا... إنّي أرى البحر، هذا المحيط؛ بل هذا البحر المحيط يجفّ يوما بعد يوم، وأرى الماء قبل أن يغور ويغيض يتلوّن بكلّ ألوان قوس قزح، ولكنّ الحوت الهلاميّ أبدا لا ينثني، ولا يتوقّف عن النّدف بزعنفتيه اللّتين تشبهان جناحي الطّائرة في صلابتهما وضخامتهما... يرفع ذيله عاليا، ويضرب دون رحمة. ليس الماء هذه المرّة. ولكن الهواء، الّذي لا شكّ أنّه كان يحسبه لجّة اليمّ، نظرا لقصور رؤيته، وذهاب النّور من عينيه. فلماذا لا يموت الحوت؟ لماذا

لا يسقط في وهدة الأبد وقرار الموت، فتتحطّم أضلاعه الهائلة ضلعا ضلعا، ويتشظّى لحمه ويسيل شحمه زيتا أصفر ضاربا إلى الخضرة؟ هل هي المعجزة؟ ذاك كان عصر المعجزات حقّا! هل هو النّبيّ الّذي كان يتقرّب إلى الله بأحرف الضّراعة وكلمات الغفران وجمل التّوبة؟!... في عصر اليقطين، والثّمار الّتي تنمو تلقائيّا دون الحاجة إلى ماء أو ضوء أو أوكسيجين، لم تكن الأرض دائريّة الشّكل، وكانت الجاذبيّة مجرّد احتمال من الاحتمالات الّتي لم يكن قد تفطّن إليها الإنسان الطّفل المنحدر من سلالة الفطريّات السّامّة ليصوغها في قوانين وقواعد مطمئنّا إلى سرمديّة تفوّقها؛ لذلك لم يكن على الأرض أوزان أو أشكال أو أحجام، وكان الحوت قادرا على الطّيران لأنّه لا يحسّ بثقل جسمه رغم ضخامته... أعرف أنّ زمن المعجزات قد ولّى دون رجعة، وأنّ العنقاء طائر أسطوريّ غريب ينهض من تحت الرّماد ليؤكّد حقيقة البعث والميلاد، وأنّ الشّمبانزي حيوان هائل يشبه الإنسان إلى حدّ كبير، وهو ينحدر من فصيلة الرّئيسيّات، وأعرف أشياء أخرى كثيرة لا يحدّها حصر، خارج حدود الزّمان والمكان... خارج الجدران المغلقة لهذه الزّنزانة الّتي انتفت نهائيّا من ذاكرتي بمجرّد أن تشبّثت بوهم الخلاص وراء حلقات الدّخان... إنّي أرى الأرض تتشكّل منذ خمسة مليارات من السّنين، فوقها الفراغ، ومن تحتها الفراغ، تكتنفها الظّلمة من جميع زواياها وجهاتها... وما إن اكتملت، وتربّعت على عرش عذريّتها الأزليّ، حتّى مادت، ورامت النّور فكانت الشّمس، والقمر، والنّجوم، والكواكب

السّيّارة، والمذنّبات الّتي تنطمس كلّما خبت فيها رغبة الحياة. ارقصي، أيّتها الأرض! ارقصي، أيّتها الجنيّة القادمة من فوّهات العدم؛ واقطعي بنفسك حبلك السّريّ الملتفّ حول عنقك كقلادة على صدر عامر لغجريّة سافرة في عريها الوحشيّ. ارقصي، أيّتها الأرض! ارقصي حدّ الجنون؛ ولتغري بتثنّيك الأنثويّ صرامة الجبال الشّيطانيّة، وزهد الهضاب، وتمنّع الوديان. ارقصي... ارقصي... ارقصي!!

أعرف أنّ زمن المعجزات قد ولّى، و أنّ العنقاء هي العنقاء دوما، هنا، أو في أيّ مكان آخر وراء السّدّ الّذي بناه الفارس المقنّع ذو القرنين، في زمن ما، ليحرم يأجوج ومأجوج نعمة الموت في سلام، في سهول خصيبة، تصلح لأن تكون مراعي لأحصنتهم الفارهة، ومواشيهم الّتي تفوقهم طولا، بجانب بحيرات لجيّة التّكوين، وأشجار تطرح ثمارها كلّ آن وحين، على مفترق طرق بين مدائن لا تعمّر كثيرا، لأنّ أساساتها محشوّة بالملح والرّصاص، إذا جاء الغزاة من «سلامين» أو «قادش» أو من وراء جبال «طوروس» على متن سفن تسعينيّة تمخر بهم عباب بحر «إيجه»، نسفوها بالدّيناميت البشريّ والبارود... أعرف أنّ الأرض هي الأرض، سواء أكانت دائريّة الشّكل، أو أيّ شيء آخر من الأشكال الّتي سيضبطها الجغرافيّون العرب قبل غيرهم في كتبهم ومدّوناتهم؛ وأعرف أنّ النّور هو النّور، لأنّه نقيض الظّلمة، وأنّ الحياة هي الحياة لأنّها امتداد طبيعيّ للموت، أو العكس... إنّي أعرف أشياء أخرى أيضا... إنّي أرى البحر في مدّه وجزره يرفض أن يعترف

بعطالة الفلاسفة والعلماء على حدّ سواء، ويقول صراحة، ودون خجل، وفي تحدّي الجبابرة والعمالقة الدّابرين: «أنا لا أفكّر، ولكنّي رغم ذلك موجود!» فما المشكلة إذن؟ المشكلة أنّي أرى كلّ شيء سوى صورتي في المرآة... رأيت فلك أبينا «نوح»... ورأيت الطّوفان والسّفينة الخرافة ترسو على جبل الجوديّ ذات صباح مشمش منقشع الغيوم والسّحب؛ ولكنّي لم أر من الحيوانات سوى الحمار الّذي كان إبليس يجذبه من ذيله ليعطّل سير التّاريخ... ليمحو الإنسان من خارطة الحياة...!!

أعرف أنّ زمن المعجزات قد ولّى، وأنّ العنقاء تنهض من تحت الأنقاض لتمنحني اسما جديدا، ووطنا جديدا، وهويّة جديدة... ليس الاسم ذات الاسم، ولا الوطن وطن الزّنزانة الكالحة، ولا الهويّة هاوية، ولكنّها هويّة الانتماء لهذا النّور... لهذين الجناحين النّاعمين، وهذا الذّيل المرقّش... هويّة الانتماء لهذا الصّوت الّذي أسمعه يقول كأنّه يهمس:

.أطفئ النّور... أطفئ النّور.

كان هناك من الدّلائل القاطعة ما يؤكّد. بما لا يقبل مجالا للشّكّ . أنّي لم أغف رغم الهذيان؛ وأنّه رغم انتفاء جميع الأشياء والأسماء من محيط ذاكرتي. سواء أكان ذلك بإرادتي أو بغير إرادتي. فقد بقيت أحسّ إحساسا واهنا بأنّي لم أضع تماما، كما كنت أعتقد، وأنّ شرودي ما هو في الحقيقة إلاّ هلوسة من هلوسات الدّخان الّتي أصبحت غالبا ما تطيف بي منذ ما يقرب من خمس سنوات... كانت الجدران الّتي

تصوّرت للحظة أنّها انهارت بداخلي، ترتفع من جديد، لبنة لبنة، بنفس صلابتها الأولى، وقساوتها وتعرّجاتها العديدة، وأحافيرها؛ وكان السّقف، حين نظرت إليه، قائما كما كان أوّل مرّة، وقد تلاشت من ذهني تلك الفكرة اليقينيّة بأنّه سقف آيل للسّقوط، موشك على الانهيار، ونبتت في أعماقي قناعة جديدة بأنّه ما يفتأ يزداد قوّة وخيلاء، وأنّ كلّ آلات الأرض وحيل المهندسين لو رامت هدمه وتحطيمه، لبقي ثابتا في شموخه، لا يحول ولا يزول؛ وكنت متمدّدا على السّرير، لم يبق من السّيجارة الّتي كنت أدخّنها إلاّ عقب قد رميت به بعيدا، دون تحديد؛ وتقلّبت مرارا، وأنا مغمض العينين، ثمّ قمت نصف قومة، واستدرت إلى اليمين في مواجهة الباب، وعدت فاستلقيت ثانية... كانت الرّائحة المنبعثة من آنية الصّفيح، الّتي شممتها أوّل مرّة، قد بدأت تخفّ نتانتها؛ والبقيّة الّتي كانت تسافر عبر فضاء الزّنزانة، فتسطع خيشوميّ كانت تشوبها رطوبة نديّة، ذكّرتني برائحة البول تطلق سراحها رمال الصّحراء في السّاعات المبكرة ذات صباح ممطر...

الفانوس بجانبي، بمحاذاة القائم الأيسر للسّرير... يرسل ذبالته الوانية، في تموّج ضعيف، بالكاد تكفي لإضاءة المساحة الصّغيرة من حولي... إسطواني الشّكل، مع بروز ظاهر في البطن، وهو ينتهي بقائم طويل نسبيّا، على قاعدة دائريّة؛ في لون البنّ المحروق، يشرئبّ فتيله الأبيض، متحدّيا أطياف الظّلمة المتكاثفة في أرجاء المكان.

رغم النّداء الّذي سمعته منذ قليل؛ ورغم صيغة الأمر

الّتي كانت تضوع بها نبرات المنادي، فلم أكن مقتنعا تمام الاقتناع بضرورة إطفاء الفانوس. كنت أريد، قبل أن أفرغ بشكلّ تامّ لهذا الصّوت القادم الجديد، أن أعتاد المكان الّذي وجدت نفسي قابعا فيه فجأة... كنت أريد أن أحقّق مصالحة معه، سيّما وأنّي قد أمكث فيه أكثر من ثلاثة أيّام، والّتي تقرّر تحديدها سلفا بأمر من ضابط المباحث في انتظار معمعة التّحقيق... لم أحاول النّظر إلى الجدران... كنت أتغاضى عن ذلك، رغم جموح فضولي، وسيطرة الصّوت الّذي ما انفكّ رنينه يرحل في فضاء الزّنزانة، غير أنّي كنت . وبإصرار لا يلين . أحاول تأجيل لحظة المكاشفة... ولكن، أيّ مكاشفة قد تكون هذه المكاشفة؟ أيّ حكاية؟... أيّ عجيبة يمكن أن يلقيها في روعي هذا الصّوت، الّذي أعرف بالكاد أنّه منزو بين حدود جناحين ناعمين، وذيل مرقّش في كلّ جدار من الجدران العارية؟... سأنتظر قليلا رغم إلحاح الفضول... سأدّعي عدم المبالاة، مانحا نفسي فرصة أخرى للثّبات والتّخمين... وإمعانا منّي في التّجاهل، سحبت نفسي بكلّ هدوء حتّى لامس جذعي مسند السّرير وأشعلت سيجارة أخرى بطريقة تكاد تكون دراميّة إلى أبعد الحدود؛ فقد تخيّلت، ساعتئذ، أنّي أقف وحيدا، بين أنقاض عالم منهار دمّرته الحرب، أفكّر جادّا في كيفيّة إعادة بنائه من جديد، مردّدا نفس الأبيات الّتي كنت قرأتها ذات يوم في إحدى المجلاّت الأدبيّة: «أحسّ أنّ جميع النّجوم تتألّق في أعماقي/ وأنّ الكون يتدفّق في حياتي كالبحر الهادر/ والأزهار تتفتّح في جسدي/ وشباب الأرض والماء

يتصاعد بخوره/ في قلبي/ ونفس جميع الأشياء/ تعزف فوق أفكاري مثل النّاي/ حين يغفو الكون/ فإنّي أحضر إلى بابك/ النّجوم صامتة/ ولا أجرؤ على الغناء/ إنّي أرقب وأسهر/ حتّى يعبر طيفك/ شرفة اللّيل/ فأرجع بقلب مترع فيّاض/ وفي الصّباح/ أقف عند حافّة الطّريق/ وأغنّي/ فتحيّيني زهور السّهل/ ويصغي إليّ نسيم الصّباح/ ويقف العابرون فجأة/ ويحدّقون في وجهي/ يحسبون أنّي هتفت بأسمائهم/ شدّني إلى بابك/ دوما في انتظار رغباتك/ ودعني أجوب مملكتك/ ملبّيا دعوتك/ لا تذرني أغرق وأضحملّ في أعماق الخمول/ ولا تدع حياتي تستهلك/ وتتحوّل إلى أسمال/ بقفر المكان المدقع/ ولا تدع الشّكوك تكتنفني/ بغبار الشّرود والغفلة/ لا تدعني أسلك طرقا مختلفة/ لأجمع أشياء عديدة/ ولا تذرني أحني قلبي لنير الكثيرين/ ولكن دعني أرفع الرّأس عاليا/ فخورا بأن أكون خادمك.»(::)

لم أكن لأسأل نفسي عن اسم صاحب هذه الأبيات... ولم أكن لأهتمّ بما تعنيه تحديدا. وأنا ألثم بياض السّيجارة بين شفتيّ، في وقفة تاريخيّة لإعادة بناء العالم من جديد... أنا أعرف جيّدا أنّ زمن المعجزات قد عبر ودبر؛ وأنّ الأنبياء، لا الشّعراء، كان يتنزّل عليهم النّاموس، فيلقون في أتّون النّار الحامية، ولا يحترقون؛ ويتفجّر الماء من بين أيديهم في صحراء لا زرع فيها ولا ضرع؛ وتأكلهم الذّئاب ادّعاء، فيكونون وزراء بأرض مصر؛ ويشبّه للنّاس موتهم، غير أنّهم يرتفعون إلى السّماوات العلى، يكونون في أعلى علّيين، « فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ

(١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)»[٩]... «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)»[١٠]... «يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)»[١١]... «وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨)»[١٢]... أنا أعرف، أكثر من أيّ وقت مضى، أنّ الأنبياء، لا الشّعراء، يحملون بأيديهم عصيّ النبوّة إلى أرض «مدين»، حيث عليها يتوكّأون، وبها يهشّون على أنعامهم، ولهم فيها مآرب أخرى؛ فلمّاحانت لحظة البرهان الأكبر، انقلبت حيّة عظيمة لتبتلع إفك السّحرة السّاجدين... أنا أعرف لماذا قال «فرعون»: «أنا ربّكم الأعلى»، وقتل في زمن الصّحو والتّجلّي بني إسرائيل، واستحيا إماءهم ونساءهم... إنّه، بكلّ بساطة، كان يخاف الظّلمة، فامتلك القدرة على الإقناع بحدّ صولجانه، وصيحته المدوّية في الملأ قائلا:

.يا هامان، ابن صرح فرعون العظيم ليطّلع إلى إله موسى الحكيم، أو يبلغ الأسباب!!

---

٩ سورة الغاشية: الآيات من ١٠ إلى ١٦

١٠ سورة الواقعة: الآيات من ١٧ إلى ٢٣

١١ سورة الإنسان: الآية ٥

١٢ سورة الإنسان: الآيتان ١٧ و١٨

كانت السّيجارة تتضاءل، شيئا فشيئا، بين أصابعي؛ وكان رمادها يسقط على الأرض من حين لآخر، محدثا صوتا مكتوما، ممزّقا كثافة السّكون؛ وعندما بدأت أستشعر حرارة العقب بين سبّابتي ووسطاي، ألقيته أرضا، وقد منحني ضوع رائحة الدّخان في المكان الشّجاعة على التّساؤل:

. لماذا لا تكون السّيجارة مثل العنقاء تنهض من بين أنقاضها لتعاود الحياة من جديد؟!!

أحسست أنّ كلّ ما عرفته في السّابق يتهاوى دفعة واحدة، محدثا جلبة وضجيجا عظيمين؛ وأنّ كلّ قناعاتي الّتي كوّنتها على امتداد سنين زيف كبير لا يضاهيه إلاّ وهم أنّ الإنسان كان في الأصل قردا... والعنقاء لم تعد ذلك الطّائر الخرافيّ الّذي سينهض فجأة من بين أنقاض الموت ليعانق الحياة، وإنّما طائر صغير، بحجم راحة الكفّ، منتوف الرّيش، يبحث في متاهة طيرانه الأولى، عن حرارة أمّه ودفء عشّها الّذي بنته بدمها وعرقها معا... الأرض كرويّة الشّكل... والجاذبيّة هي الاكتشاف الحديث الّذي يمنع الإنسان من الطّيران في حال عدم لجوئه إلى الطّائرات النّفّاثة والصّواريخ العابرة لأجواز الفضاء.

في وقت ما، سمعته يتخلّى عن نبرته الآمرة لأوّل مرّة، وقد غدا صوته مترقرقا وهو يقول في أسى يشوبه حنين:

. أقسم أنّي ما كنت أريد لما حدث أن يحدث... كنت أتألّم قبل أن أرى ما رأيت، وقد تعاظم ألمي أكثر، لأنّه كان مقدّرا لي أن أرى بعينيّ، وأسمع بأذنيّ، وأن يفعم القلب الّذي طالما

امتلأ حبّا، بالحقد والتّشفّي... أقسم أنّي ما كنت أريد لحبيبتي أن تلد مسخا... أقسم...

حديث الجنون مرّة أخرى

((حبيبتي تلد مسخا))

... الأصوات... في كلّ مكان... من كلّ مكان... أصوات ضاجّة إلى حدّ الجنون، كثيفة، صاخبة... أصوات يترجّع صداها في الأعالي... أصوات تغزوني بعنف وتستقرّ أخيرا بداخلي... تغزو كلّ خليّة من خلاياي، وأنا لا أفهم شيئا... تكاد تغرقني، وأنا لا أفهم شيئا... أكاد أختنق بها، وأنا لا أفهم شيئا... يا محسّد بشراك... يا مفدّى، حيّاك الله وبيّاك... يا محسّد، تقدّم ولا تراع... يا مفدّى، اليوم يحصحص الحقّ.

وتحين ساعة الانتقام...

. وأنا أقسم أنّي ما كنت أريد لما حدث أن يحدث... كنت أتألّم قبل أن أرى ما رأيت، و قد تعاظم ألمي أكثر، لأنّه كان مقدّرا لي أن أرى بعينيّ، وأسمع بأذنيّ، وأن يفعم القلب الّذي طالما امتلأ حبّا بالحقد والتّشفّي... أقسم أنّي ما كنت أريد لحبيبتي أن تلد مسخا... أقسم...

... الأصوات... في كلّ مكان... من كلّ مكان... في البيت الّذي

ضمّ من قبل كلينا... في بيتها، حيث كنّا نجلس معا في الأماسي، تحت شجرة الحور، نصغي إلى همس بدايات اللّيل، وزقزقة عصفور متوحّد فوق غصن يلفّه المغيب البنفسجيّ... كنّا نصغي إلى وجيب قلبينا يرتّلان سمفونيّة، لم تكن لأيّ من عظماء الفنّ الكلاسيكيّ، لأنّها سمفونيّة خارج المكان والزّمان، مقدّر لها الخلود في الصّمت، لا الكلام...

.وأنا أقسم مرّة أخرى أنّي ما كنت أريد لما حدث أن يحدث... كنت أتألّم قبل أن أرى ما رأيت، وقد تعاظم ألمي أكثر، لأنّه كان مقدّرا لي أن أرى بعينيّ، وأسمع بأذنيّ، وأن يفعم القلب الّذي طالما امتلأ حبّا بالحقد والتّشفّي... أقسم أنّي ما كنت أريد لحبيبتي أن تلد مسخا... أقسم...

... الأصوات... في كلّ مكان... من كلّ مكان... أصوات ضاجّة إلى حدّ الجنون، كثيفة، صاخبة... أصوات يترجّع صداها في الأعالي... تغزو كلّ خليّة من خلاياي، وأنا لا أفهم شيئا... تكاد تغرقني، وأنا لا أفهم شيئا... أكاد أختنق بها، وأنا لا أفهم شيئا... يا محسّد، بشراك... يا مفدّى حيّاك الله وبيّاك... يا محسّد... يا مفدّى... أوّل ما رأيتها عرفتها... لم أكن أتصوّر، من قبل، أنّه يمكنني أن أعرف امرأة، كما عرفتها هي... لم أكن أتصوّر أنّه يمكنني أن أتعرّف إلى امرأة، بكلّ تلك القوّة، وذلك الحنين، أنا الّذي لم أعرف امرأة قبلها، وسوف لن أكون قادرا على حبّ أيّة امرأة بعدها، حتّى لو حاولت ذلك... شيء فيها أغراني؛ ولم أكن أحسّ، إذا نظرت إليها، أنّي مدفوع بتلك الشّهوة البهيميّة الصّامتة. قد يكون ذلك الشّيء رغبة

قديمة تعهّدتها منذ الصّغر، فنشأت جامحة في غفلة منّي... قد تكون رغبة قديمة في أن أجد، ذات يوم، في امرأة ما ما لم أجده في كلّ النّساء اللّواتي رأيتهنّ في حياتي... في أن أجد في امرأة ما يختزل كلّ النّساء ويلخصّهنّ... في البداية، كانت نظراتي العابرة تتعلّق بها عرضا... فتاة ككلّ الفتيات، لا يميّزها شيء عنهنّ، لأنّ عينيّ كانتا تتأبيّان عن الإمعان في رحلة الاستكشاف الخطرة... ولسبب ما، كنت أرفض أن أتحرّى، أن أوغل في السّهوب المبذولة أمامي... كنت أخاف العيون الأخرى الّتي كانت تترصّد لي ولغيري دون هوادة، وأنا المدرّس في نفس المدرسة الثّانويّة الّتي كانت هي تدرس فيها، سمعتي رأس المال والرّبح، في ذات الوقت، إذا اشتكى أحدهما، تداعى الآخر مستسلما للحظة النّزع والاحتضار...

.وأنا أقسم أنّي ما كنت أريد لما حدث أن يحدث... كنت أتألّم قبل أن أرى ما رأيت، وقد تعاظم ألمي أكثر، لأنّه كان مقدّرا لي أن أرى بعينيّ، وأسمع بأذنيّ، وأن يفعم القلب الّذي طالما امتلأ حبّا بالحقد والتّشفّي... أقسم أنّي ما كنت أريد لحبيبتي أن تلد مسخا... أقسم...

... الأصوات... في كلّ مكان... من كلّ مكان... أصوات ضاجّة إلى حدّ الجنون، كثيفة، صاخبة... أصوات يترجّع صداها في الأعالي... أصوات تغزوني بعنف وتستقرّ بداخلي... تغزو كلّ خليّة من خلاياي، وأنا لا أفهم شيئا... تكاد تغرقني، وأنا لا أفهم شيئا... أكاد أختنق بها، وأنا لا أفهم شيئا... يا محسّد، بشراك... يا مفدّى، حيّاك الله وبيّاك... يا محسّد...

يا مفدّى... الأصوات في كلّ مكان... الأصوات تأتي من كلّ مكان داخل البيت، بيتها... تأتي من تلك الغرفة المغلقة، الّتي كنت أجهل ما يحدث داخلها، رغم الصّياح المدوّي الّذي كان ينبعث منها بين الفينة والأخرى... كان صياحا عاليا، ضاجّا بصرخات الألم والاسترحام، يطفر فجأة في فضاء الغرفة، كما يطفر هزيم الرّعد ذات يوم متلبّد بالغيوم، وراء خطّ الأفق المتّشح بالسّواد... سمعت الأصوات من جديد... كانت قريبة جدّا هذه المرّة... كانت قريبة إلى حدّ أنّي لم أكن مضطرّا إلى وضع يدي على أذني في شكل بوق، كي أسمع بوضوح... جاء صوت إليّ... علا... التحم بأصوات أخرى تصيح في أمر: «تعال... تعال... تعال...»؛ وأنا مسلوب الإرادة، أحلّق دون إرادة منّي، جناحاي يرفرفان في اتّجاه الغرفة المغلقة... كنت أريد أن أصرخ، إذ خامرني إحساس غامض بما يحدث وراء الباب، وما يعنيه ذلك الصّياح، وتلك الصّرخات المسترحمة: «لا. لا.» ولكنّ الأصوات... في كلّ مكان... من كلّ مكان... أصوات ضاجّة إلى حدّ الجنون، كثيفة، صاخبة، تهيب بي قائلة: يا محسّد بشراك... يا مفدّى، حيّاك الله وبيّاك... يا محسّد، تقدّم ولا تراع... يا مفدّى، اليوم يحصحص الحقّ، وتحين ساعة الانتقام.

. وأنا أقسم أنّي ما كنت أريد لما حدث أن يحدث... كنت أتألّم قبل أن أرى ما رأيت، وقد تعاظم ألمي أكثر، لأنّه كان مقدّرا لي أن أرى بعينيّ، وأسمع بأذنيّ، وأن يفعم القلب الّذي امتلأ حبّا بالحقد والتّشفّي... أقسم أنّي ما كنت أريد لحبيبتي

أن تلد مسخا... أقسم...

... أوّل ما ألفيتني في الدّاخل... داخل الغرفة، لويت رأسي؛ كنت أودّ لو انطمست عيناي، كيلا تريا تلك الممدّدة على السّرير، وهي تعاني آلام المخاض؛ ولكن هيهات: فتلك الأصوات كانت لي بالمرصاد، تحثّني رغم إرادتي، تقودني إلى مواضع أكثر ألما، وتجبرني على الانصياع، مردّدة دون توقّف: «انظر... انظر... انظر إليها تلك الّتي تيّمتك حبّا، وقد تيّمها الوضع الآن ألما!!»... وأنا أنظر إليها، مجبرا، مغلوبا على أمري، ولا أريد أن أنظر... تصلني الصّرخات المسكينة، مشوبة بالفزع والنّحيب، فأودّ لو أقدر على إيقافها... أودّ لو أستطيع أن أضع إصبعيّ في طبلتي أذنيّ، حتّى يتسنّى لي أن أرتاح لبعض الوقت، ولكن دون جدوى... فالأصوات الّتي تطالعني في كلّ مكان، ومن كلّ مكان، تأبى أن تهادن، ترفض المصالحة، لأنّ من ينتقم يجب أن ينتقم منه، لأنّه مقدّر لي أن أرى أوّل حبّ لي ينهار أمام عينيّ... وأنا لا أريد أن أنظر... فتدفعني الأصوات بكلّ قوّة وعنف، وتأمرني قائلة في ضجيج: انظر...!!؛ وأراها، فتستقبلني صورتها على الفراش المشوّش، بوجهها الّذي ذهب رواؤه، وغزاه الشّحوب، الّذي جعلها تبدو كورقة ذابلة ألقتها ريح الخريف الحانية من على غصن شجرة متوحدّة؛ تعضّ بأسنانها الّتي غدت متوحّشة حادّة على خرقة من الكتّان الخشن كي تستنزف بين طيّاتها كلّ طاقتها على الألم: ترهز، كما تفعل سمكة على وشك الموت ألقى بها البحر المهتاج إلى رمال الشّاطئ المبلّلة، وترفع وسطها بحركة متشنّجة، وتقبض

بكلتا يديها الصّلبتين على مسند السّرير، مغمضة العينين... كانت الخرقة تنفلت من بين أسنانها أحيانا، فتسقط على الشّرشف الّذي كان يغطّي صدرها وأسفل بطنها، وتنطلق من قرار حلقها آهات مكتومة أشبه بأصوات الجراء، يعقبها شهيق سرعان ما ينقلب إلى دويّ يكاد يقتلع الغرفة من أساسها... وأنا أنظر، ولا أريد أن أنظر؛ وأسمع صراخها فيكاد قلبي يتقطّع حسرة، وأحسّ بحرارة الدّموع في مآقيّ، وأستمرئ طعم ملوحتها في فمي؛ ولكن حتّى الاستمتاع بهذه الأشياء الصّغيرة المؤلمة تمنعها الأصوات الرّاحلة في فضاء الغرفة: «لا يبكي من هو مقدّر له أن يأخذ بثأره... لا يحقّ لمن منح نعمة الخلود أن يرثي لابن الإنسان المحكوم بالموت والفناء.»... وتتشكّل بداخلي بدايات الكلام... تنتظم الأحرف في كلمات... والكلمات تتالى في جملة واحدة محدّدة: «لست طالب ثأر لأنّه لا غرماء لي»؛ وأطلب صوتا، أستجديه؛ أتوسّل باسم جميع المقدّسات لأمنح هذا الصّوت، غير أنّ الأصوات... تلك الأصوات الّتي حضورها في كلّ مكان ومن كلّ مكان، لا تريد صوتا يرتفع برغبة غير رغبتها... لا تريد لي تلك الأصوات أن أقول: «من يحبّ لا حاجة به إلى الانتقام...»

. وأنا أقسم أنّي ما كنت أريد لما حدث أن يحدث... كنت أتألّم قبل أن أرى ما رأيت، وقد تعاظم ألمي أكثر، لأنّه كان مقدّرا لي أن أرى بعينيّ، وأسمع بأذنيّ، وأن يفعم القلب الّذي امتلأ حبّا بالحقد والتّشفّي... أقسم أنّي ما كنت أريد لحبيبتي أن تلد مسخا... أقسم...

... الأصوات... في كلّ مكان... من كلّ مكان... أصوات ضاجّة إلى حدّ الجنون، كثيفة، صاخبة... أصوات يترجّع صداها في الأعالي... أصوات تغزوني بعنف وتستقرّ أخيرا بداخلي... تغزو كلّ خليّة من خلاياي، وأنا لا أفهم شيئا... أكاد أختنق بها، وأنا لا أفهم شيئا... يا محسّد بشراك... يا مفدّى، حيّاك الله وبيّاك... يا محسّد... يا مفدّى... دون شكّ ذلك الرّجل كان زوجها... هو قطعا من فضّلته عليّ؛ ولكن حتّى لو كنت عرفته قبل الآن. فقد ظلّت إلى آخر لحظة متكتّمة على اسمه، لا تحدّثني عنه. فإنّي لم أكن لأعتبره، في يوم من الأيّام، خصما لي، أو غريما، وليس ذلك إنكارا منّي للغيرة الّتي تولّدت في أعماقي جرّاء احتلاله مكاني القديم من قلبها، ولكن لقناعة بسيطة كوّنتها، فقد بدا لي أوّل ما رأيتها أنّها سوف لن تكون من نصيبي، على الرّغم من إحساسي بأنّها المرأة الأولى والوحيدة الّتي سوف يكون مسموحا لها بالتّربّع على عرش قلبي... كان ذلك الرّجل زوجها، دون شكّ، لأنّه الرّجل الوحيد الّذي وقعت عليه عيناي في ذلك البيت؛ وملامحه المضطربة، مشيته المتعثّرة، قلقه، قيامه وقعوده، ذهابه وإيّابه، اقترابه من الغرفة، تنصّته، كلّ ذلك دليل إضافيّ، لا يقبل الشّكّ، على أنّه زوجها... هل كان ينتظر مولوده الأوّل منها؟ وهبه كذلك، فلماذا لم تنجب له حتّى الآن، فقد كنت على يقين أنّها تزوّجته مباشرة، على إثر إبلاغي قرار القطيعة؟! هل كان العيب منها؟ أم هو مصدر العيب؟... مسكين هذا الرّجل!! إنّي لا أشعر تجاهه بالمقت أو الحقد، ولا أحسّ، ولو مجرّد إحساس عابر، أنّي أكرهه أو أنقم عليه...

كلّ شيء فيه كان يقول إنّه يكبرني بعشر سنوات على الأقلّ: شعره الرّماديّ، سالفاه الأشيبان، صلعته الصّغيرة الحمراء، تجاعيد وجهه، ترهّله، مشيته المتعبة... إنّي لا أشعر تجاهه بالمقت أو الحقد؛ بل على العكس، أجدني أستشعر حياله إحساسا جارفا بالشفقة والتّعاطف؛ أو ليس هو زوج المرأة الّتي أحببتها، والّتي هي الآن تصارع آلام الوضع والمخاض؟!!... غريمي ليس ذلك الرّجل الّذي ينتظر أن يتوّج خريفه بمولود لم تر عيناه النّور بعد، وإنّما هو هذا الألم الّذي أراه مرتسما على وجه زوجته في تقلّص وتشنّج... غريمي هو عجزي عن التّعبير، ولو عن مجرّد إحساس بالرّثاء حيالها... غريمي هذه الأصوات...هذه الآتية من كلّ مكان... هذه الضّاجّة إلى حدّ الجنون... هذه الكثيفة الصّاخبة... هذه الّتي ما تنفكّ تأمرني قائلة في ضجيجها المعربد: «انظر... انظر... انظر إليها، تلك الّتي تيّمتك حبّا، وقد تيّمها الوضع الآن ألما!!»

.وأنا أقسم أنّي ما كنت أريد لما حدث أن يحدث... كنت أتألّم قبل أن أرى ما رأيت، وقد تعاظم ألمي أكثر، لأنّه كان مقدّرا لي أن أرى بعينيّ، وأن أسمع بأذنيّ، وأن يفعم القلب الّذي امتلأ حبا بالحقد والتّشفّي... أقسم أنّي ما كنت أريد لحبيبتي أن تلد مسخا... أقسم...

... الأصوات... في كلّ مكان... من كلّ مكان... أصوات ضاجّة إلى حدّ الجنون، كثيفة، صاخبة... أصوات يترّجع صداها في الأعالي... أصوات تغزوني بعنف وتستقرّ أخيرا بداخلي... تغزو كلّ خليّة من خلاياي، ولا أفهم شيئا... تكاد تغرقني، وأنا

لاأفهم شيئا... أكاد أختنق بها، وأنا لا أفهم شيئا... يا محسّد... يا مفدّى... فجأة، همد الوجه الّذي كان منذ قليل يتقلّص ويتشنّج، وهمد الجسد كلّه، ولانت اليدان اللّتان كانتا منشدّتين إلى مسند السّرير، وسقطتا بإعياء على الحشيّة... طرفت عيناها لحظة، ثمّ غارتا تحت أهدابها الطّويلة الذّابلة، وبقايا ابتسامة حائرة اجتثّتها في لحظة الخلاص الأخيرة مرتسمة على شفتيها الجافّتين الحائلتين... كادت الدّاية المولّدة تطلق زغرودة، إلاّ أنّها سرعان ما تراجعت، مكتفية بقطع الحبل السّريّ للوليد... لفّته في خرقة بيضاء كانت ملقاة على السّرير، دون أن تخفي اشمئزازها البادي على محيّاها، ثمّ وضعته بجانب والدته النّائمة، وخطت نحو الباب مسرعة... استقبلها ذلك الرّجل المتعب قائلا:

.خيرا.

خفضت رأسها... رفعته، ثمّ خفضته ثانية، وهي تقول:

.لا أعتقد أنّه خير.

صاح الرّجل معولا:

.فماذا يكون إذن؟ وما الّذي حدث؟

قالت الدّاية، وهي تنحّيه جانبا لتخرج، وكأنّها تخشى عدوى وباء داهم:

.إنّه مسخ، يا سيّدي.

كدت أبكي ساعة سمعتها تنطق تلك الكلمة: وتمنّيت صادقا لو تحوّلت هي، حبيبتي، إلى كائن بجناحين ناعمين، وذيل مرقّش، لنطير معا ميمّمين شطر البرزخ... لنطير

بعيدا حيث لا مسوخ ولا آلام، ولا موت ولا ولادة، ولكن هي تلك الأصوات تمنعني حتّى من مجرّد التّمنّي، والتّملّص من الانتقام.

.وأنا أقسم أنّي ما كنت أريد لما حدث أن يحدث... كنت أتألّم قبل أن أرى ما رأيت، وقد تعاظم ألمي أكثر، لأنّه كان مقدّرا لي أن أرى بعينيّ، وأن أسمع بأذنيّ، وأن يفعم القلب الّذي طالما امتلأ حبّا بالحقد والتّشفّي... أقسم أنّي ما كنت أريد لحبيبتي أن تلد مسخا... أقسم...

ميتامورفوس

ما كنت أريد لما حدث أن يحدث؛ ولكنّه حدث، ولا حيلة لي في ذلك... فلتطفئ النّور الآن، أو فلتتركه مضاء إن شئت، فلا أعتقد أنّي سأسعد برؤياك، كما كنت آمل من قبل، وأشكّ أن يرتوي فضولك الّذي زرعته فيك منذ تلك اللّيلة البعيدة، حينما وضعتك وجها لوجه أمام ذلك الإعلان الصّغير: لا لشيء إلا لأنّي قد اقتنعت، ومنذ فترة طويلة، أنّ حكايتي ليس فيها ما قد يثير الاهتمام؛ وإذ كنت قد اخترتك أنت بالذّات، واحدا من بين آلاف عرفتهم قبل ميتتي الأولى وبعدها، لأحيطك علما ببعض مأساتي، فلأنّه لا يساورني الشّك في مدى تحفّظك وكتمانك... إنّي لا أملك إلاّ أن أعاتب نفسي، أن أقسو عليها، أن أضجّ منها إلى الحدّ الّذي أرغب معه أن أخرج من جلدي، لأنّ الألم كان أعظم من أن يُحتمل، ولأنّي كنت أضعف من أن أحتفظ بسرّ أحسّ في كلّ لحظة أنّه على وشك أن يخترق صدري: سرّ غامض ينطّ دوما بداخلي كما يفعل الضّفدع إذا لفظته نتانة المستنقعات الآسنة العطنة: لذلك، بحثت عنك... لم تكن أنت بالذّات، ولكن أيّ شخص كتوم يمكن أن أشركه معي في هذه التّركة الّتي قد تنوء بحملها الجبال الرّواسي... ووجدت ذلك الشّخص أخيرا، وكنت

أنت، كما تخيّلتك ورسمتك في خيالي، عندما كانت تهدأ تلك الأصوات الّتي تطالعني من كلّ مكان، وفي كلّ مكان... تلك الأصوات الضّاجّة إلى حدّ الجنون... تلك الكثيفة الصّاخبة... وجدتك في تلك الزّاوية المعتمة... في تلك الغرفة الصّغيرة، مواربا بين طيّات سرّ لا أعلمه، ولكنّي خمّنت أنّه قد يضاهي السّرّ الّذي قرّرت أن أحمله إليك... أن أورّثكه؛ ولك بعد ذلك الخيار في أن تحتفظ به أو تذيعه، رغم أنّي أودّ أن تودعه شغاف قلبك، وتغلق بابه برتاج وأقفال... هل فكّرت يوما أن أكون أنا. صديقك «مظفّر عبد الله». وراء كلّ ذلك؟ هل تبادر إلى ذهنك، ولو للحظة عابرة، أن يكون ذلك الشّخص الّذي وضع أمامك مصادفة ذلك العدد القديم من تلك الجريدة المنسيّة صديقك الّذي قضى متأثّرا بجروح حبّ عضال لا تندمل أبدا؟

ما كنت أريد لما حدث أن يحدث؛ ولكنّه حدث، ولا حيلة لي في ذلك... فلتطفئ النّور الآن، أو فلتتركه مضاء إن شئت، فلا أعتقد أنّ كلينا سيسعد برؤية الآخر. حبّذا لو كان الزّمان خلاف الزّمان، والمكان خلاف المكان، إذن لكنّا تعانقنا كصديقين قديمين، لعبا سويّا في مرابع براءتهما الأولى، على مفترق أحلام طفولة منسيّة، ثمّ سافرا معا على جناحي الزّمن المسافر إلى روضة المعهد الغنّاء، وفصول الدّراسة الغافية في ساعات ما بعد الظّهر العابقة برائحة نكتة عابثة أطلقها، فتضحك منها، وتسألني، وأنت ما تزال تضجّ ببقايا ضحكتك المعربدة: «ولماذا لا تضحك أنت؟» فأجيبك، وأنا أنظر إلى

عينيك السّرّيتين الكتومين: «أنا لا أضحك من نكاتي!»

حبّذا ذلك الزّمان، وحبّذا ذلك المكان! لكن، لم يبق من ذلك الصّديق الّذي عرفته سوى النّظرة الحالمة السّاهمة، ورغبة عنيفة في الهجاج، وقدر لا فكاك منه يشدّني إلى انتقام . يشهد الله . أنّي لا أريده... لقد فكّرت فيك، وأنا أحتضر على سرير الموت، وفكّرت فيك أكثر بعد رحلة التّجسّد والتّقمّص: عابثت صورتك في خيالي، محوتها مرّات، ثمّ عدت أرسمها من جديد، محاولا، في صمت، أن أستشفّ ملامح ذلك الطّفل الفريد الّذي كان يلبس مريلة سوداء قديمة تشبه إلى حدّ كبير تلك الّتي يلبسها عادة عمّال الورشات، وصندلا مهترئا، دون جوارب، وسروالا قصيرا في برودة كانون الثّاني وزمهريره؛ والّذي كان يشيح بوجهه كلّما رآني أدخّن كما لو كنت أرتكب جريمة نكراء. تساءلت: «أين يكون ذلك الطّفل الآن؟ وهل بقي نفس ذلك الطّفل الّذي عرفته انطوائيّا، متباعدا، قصيّا، كجبل هرم وراء حدود العالم؟» كنت أنت فقط المتبقّي، رغم أنّي أحتفظ بأسمائهم جميعا، فردا فردا، ومازلت أذكر كلاّ منهم، وأدرك تماما أنّه لو وضعني القدر من جديد أمام أحدهم فلن يستغرق ذلك إلاّ دقائق معدودات حتّى أتعرّف إليه... كانوا زملاء أكثر منهم أصدقاء، وكنت الصّديق الوحيد، أعرفك في صمتك أكثر ممّا أعرفهم في صخبهم وضجيجهم، وهم يدخّنون بكثافة، وراء أبواب غرف صغيرة مغلقة دائما. لقد كنت واحدا منهم، أصخب إذا صخبوا، وأضجّ معهم إذا ضجّوا، لأنّي كنت أومن إيمانا قاطعا آنذاك أنّ الزّمن. في زمن

الصّخب. هو السّبيل إلى إعادة بناء العالم من جديد، ولكن في لحظات بعينها، أشعر أنّي أريد أن أهرب من سيل الكلام الّذي كان يحاصرني إلى جزيرة الصّمت الّتي كانت جزيرتك... أضيق بكلامهم الّذي لا يتوقّف عن الخوف ومزيد الخوف، وتنتابني رغبة طاغية في الهروب، رغبة في الطّيران من الوكر الضّيّق في الدّغل المحاصر بالأشواك والرّصاص إلى جنّة الفقراء الّتي سوف لن يهتدي إليها الفقراء المتعبون... يتكلّمون، فأغضي عنهم، وأراقبك وأنت لا تتكلّم، فوقر في نفسي أنّه فيما لو كتب لي أن أستأمن أحدا ما على سرّ من الأسرار، فسوف لن أجد خيرا منك، راهبا قد وقع خطأ بين أناس لا يصمتون إلاّ ليتكلّموا من جديد... ناسك متوحّد قد ألقي به من عل بين رفقاء سوف يكون استثناء غريبا إذا ضبطوا فجأة يكتنفهم الصّمت والسّكون... لا أنكر أنّي كنت واحدا منهم، غير أنّه لم يتبادر إلى ذهني أيّ واحد منهم حين فكّرت أن أشرك في السّرّ أحدا من النّاس...

ما كنت أريد لما حدث أن يحدث، ولا حيلة لي في ذلك... فلتطفئ النّور الآن، أو فلتتركه مضاء إن شئت، فلا أعتقد أنّ كلينا سيسعد برؤية الآخر... «مظفّر عبد الله»؟! ألا يعني لك شيئا هذا الاسم؟! تذكّر جيّدا... أجهد ذاكرتك المكدودة قليلا... ارجع إلى زمن الخطى الثّابتة، والهامات المرفوعة إلى رحابة السّماء لتزرع فيها بذرة الأمل القادم؛ وانظر من ثقب ذلك الباب الحديديّ، المطليّ باللّون الأسود، ذات مساء من تلك المساءات البعيدة، بإحدى المدائن القصيّة

عن البحر، حيث الجميع . جميع الزّملاء . يجلسون في نهاية الرّواق على تلك الحشايا الرّقيقة، بمحاذاة السّلّم المؤدّي إلى السّقف، الّذي يشرف بدوره على سقوف البيوت الأخرى في الحيّ العتيق... كان ذلك في نهاية عام دراسيّ من الأعوام الكثيرة المنقضية الّتي مازلت أذكرها جيّدا، رغم كلّ شيء، وكنت قدمت بسرّي الجديد من هناك، حيث تركتها تستعدّ لخوض غمار الامتحان النّهائيّ... أنا أيضا كنت أهيّئ نفسي لاجتياز آخر مراحل الدّراسة، ونيل آخر الشّهادات المتبقّية في سلسلة شهادات أخرى لا تنتهي أبدا... مازلت أذكر أنّك كنت تجلس في أقصى ركن من الرّواق، وكنّا نستمع جميعا إلى جهاز التّسجيل، دون أن تزوغ أعيننا عن الأوراق الكثيرة الّتي كنّا نستذكرها، والّتي كانت تمثّل برمّتها خفايا مقرّر لا ندري في أيّ جانب من جوانبه سنمتحن... نظرت إليك خلسة، وأنت تتناول أحد الأشرطة الملقاة إلى جانبك، حين ارتفع صوت تلك المغنيّة الجميلة، بمطلع تلك القصيدة الشّهيرة لـ «امرئ القيس»: «تعلّق قلبي طفلة عربيّة...»؛ تأمّلت المغلّف مليّا، قربّته إليك، مدقّقا في تقاطيع الصّورة الّتي أمام عينيك، وأنت تقول مخاطبا الجميع دون أن ترفع رأسك:

. أجمل ما في صاحبتنا (وأنت تقصد المغنّية الجميلة ذات الصّوت الجميل) خالها الذّي يرتسم في أقصى شفتيها كحبّة الحمّص.

كنت إذ ذاك حديث عهد بالسّرّ الّذي مازلت لم أطلع عليه أحدا؛ كما لم أشأ . حتّى في تلك اللّحظة الحميميّة . أن أكشفه،

لاعتقادي أنّ الأوان لم يحن بعد لكشفه؛ ولكنّي، مع ذلك، قلت متوخّيا الإلغازوالموارية:

.وهي أيضا لها في أقصى شفتيها خال!

ولم أزد على ذلك... اكتفيت بالابتسام، وعدت إلى النّظر في الأوراق الّتي كانت مبذولة أمامي... ذاك كنت أنا، ولا أحد غيري!! «مظفّر عبد الله» بلحمه القليل وشحمه الأقلّ! فهل أصبح هذا الاسم يعني لك شيئا الآن؟ لا شكّ أنّك تذكّرت، لأنّه لا بدّ لك أن تتذكّر، فأنت الوحيد الّذي اخترته من بين آلاف لأستأمنه على السرّ!! فلتطفئ النّور الآن، أو فلتتركه مضاء إن شئت، فلا أعتقد أنّ كلينا سيسعد برؤية الآخر... فلتطفئ النّور، كما فعلت تلك الّتي تعهدّتها أملا في قلبي لم يولد بعد، واستللتها جنينا من حشاشة فؤادي، ونشّأتها على الحبّ وبادلتها الصّفاء، فكافأتني بالهجران والصّدود... فلتطفئ النّور الآن، فما عاد هناك شيء يمكن أن يثير عجبي أو استغرابي، بعد أن قذفت في وجهي، في ذلك المساء البعيد، حين ران المغيب الغسقيّ على الوجود، وهي بصدد إغلاق النّافذة، تلك الكلمات القليلة المؤلمة: «أنت رجل بائس!»... قذفتها في وجهي بكلّ بساطة... قالتها بكلّ برود إلى الحدّ الّذي شككت معه أنّها هي نفس الفتاة الّتي كانت تضع رأسها على فخذي، ونحن وحيدان في غرفة بإحدى البيوت المستأجرة الّتي يشغلها بعض الأصدقاء، وتقول وهي تحدّق بعينيها الكبيرتين في عينيّ المرهقتين جرّاء الأرق والسّهر: «سأكون لك إلى الأبد»؛ فأتخلّل شعرها اللّيلكيّ الطّويل المسترسل

على كتفيها وقذالها بأصابعي المضطربة المستكشفة، وأردّ بنبرات ساهمة يكاد يكتنفها فراغ الغرفة، والصّمت الجاثم بكلكله على فضاء الباحة الخارجيّة: «وأنا سأضحّي في سبيلك بكلّ شيء.»... وكنت صادقا وأنا أقول ذلك... كنت صادقا، ومستعدّا للموت في سبيلها، لأنّي كنت على يقين، ساعتئذ، أنّ حبّا كبيرا كحبّنا لا يمكن أن يبلغ نهايته السّعيدة دون حواجز أو عوائق... وكان أخطر تلك الحواجز والعوائق جميعها شبح ذلك الشّخص الملغز الغريب، الّذي كان يتعقّب خطانا، ويتحرّى أسرارنا الصّغيرة، لا لشيء إلاّ لأنّه قادم من نفس مدينة المجهول الّتي قدمت هي منها... أعرف أنّها لم تكن تحبّه، وكان من شأن ذلك أن يزيل مخاوفي ويجعلني أكثر ثقة وإصرارا؛ ولكنّي، في المقابل، أدرك أنّ الإصرار والمثابرة من شأنهما أن يولّدا شيئا من الاهتمام: فهذا الاهتمام بعينه هو الطّريق الممهدّة الّتي تقود إلى الحبّ والألم والمأساة... حرون كبغل، مشاكس كقطّة مستثارة، حقود إلى أبعد الحدود، لا يني يتبعنا، ويدسّ العيون في إثرنا... دائما في كلّ مكان، حيث نكون معا، حتّى في أكثر الأماكن الّتي نكون فيها أقلّ توقّعا لظهوره، يضحك تلك الضّحكة المبتسرة الّتي لم أكن لأخطئ معناها أبدا، يمجّ دخان سيجارته في لامبالاة، يتقدّم نحونا بخطى ثابتة، مزهوّة إلى حدّ الغرور... كان وقحا إلى أبعد الحدود، ولا يحاول أن يخفي وقاحته، لا سيّما في حضوري؛ إذ يقترب يمدّ يده فيصافحها متجاهلا إيّاي، وكأنّه لم يتفطّن إلى وجودي بجانبها، ويحادثها ممعنا في تجاهلي، ولا

يألو جهدا في النّيل منّي أمامها، بأسلوبه المكشوف، فيدعوها إلى مرافقته، أو يلتصق بها، وهو يضحك كأنّ بينهما ارتباطا، أو يجذبها من يدها، وكأنّه يجرّها، قائلا: «تعالي معي نشرب شيئا.»... فكّرت، في كثير من الأحيان، أن أضربه، أن أطرحه أرضا أو أبصق في وجهه القذر، أن أقول له: «أنت لاشيء، أنت حشرة»؛ وقد كدت مرّة، في لحظة غضب أشفيت فيها على جنون مسعور، أن أرفعه عاليا بكلتا يديّ، وأقذف به بعيدا إلى حشد من الكلاب الجائعة الملتفّة حول جيفة نتنة، ولكنّ تلك النّظرة المعاتبة الّتي رمتني بها فيما يشبه الأمركانت كافية أن تجعل الدّم يجمد في مفاصلي... شعرت بالهمود، وطأطأت رأسي مثقلا بهمومي وهواجسي. قلت في نفسي، وأنا أكاد أذوب أسى وحزنا: «كونها لا تحبّه لا يعني أنّها تشتهي أن أسحقه كحشرة... فهو، قبل كلّ شيء وبعده، من هناك... من نفس تلك المدينة المجهولة الّتي قدمت هي منها.»... لمّا رأتني أتمرّغ في وحل خيبتي وهزيمتي، ربّتت بدفء كفّها كتفي، وقادتني من ذراعي بعيدا، كي لا يكون باستطاعته سماعنا، وقالت لي في تواطؤ وهي تضحك:

.تكون مخطئا كثيرا إذا ظننت أنّي يمكن أن أفضّله عليك!

أحسست بانتعاش نسبيّ إذ سمعتها تقول ذلك، لكنّ خوفي من فقدها لم يتلاش بعد، وظلّ ما يشبه الغصّة يجهد أن يحتوي حلقي الجافّ ليمنعني من التّنفّس... صدّقتها... كنت دائما أصدّقها، دون أن يتطرّق الشّكّ إليّ لحظة واحدة في كلامها... كنت أصدّقها، غير أنّي لم أكن مطمئنّا إلى ذلك

الخلد الّذي كان ينغل تحت أقدامنا دون توقّف، يتشرّب رطوبة التّراب، يخبط هنا وهناك، يخطئ وجهة تقدّمنا أحيانا، لكنّه لا يعدم وسيلة للعثور علينا في النّهاية... كان الهواء الشّتائيّ الرّطب المشبع طراوة ونداوة يقوده إلينا حتّى في أشدّ النّهارات قتامة وعبوسا؛ كان ينقل إليه عبق أنفاسنا حتّى في أحلك اللّيالي ظلمة وعتمة. فإذا ما نجحنا مرّة في الهروب منه، ومحونا كلّ الآثار الّتي يمكن أن يسترشد بها علينا، أطلق وراءنا كلابه الجائعة الّتي كان درّبها أعواما على تقصيّ الرّائحة... كنت أعرفها، كلابه؛ أعرف أصدقاءه الّذين هم على مثل شاكلته. يقول لهم في زهو المنتصر المظفّر: «أقسم أنّها لن تكون له أبدا؛ فحتّى لو لم تقبل بي زوجا، فسوف لن أدعه يفتكّها منّي... أقسم أنّي سأفعل به ما لا يمكن أن يفعله ألف شيطان مجتمعين!!»... لعبته كانت مكشوفة، بسيطة، غير أنّها لم تكن دائما غير ذات جدوى؛ أسرارنا كلّها، وحتّى أكثرها حميميّة، بات على علم بها؛ متى التقينا، أين ذهبنا، ماذا فعلنا منذ التقينا إلى أن افترقنا، لقاءاتنا الحميمة في تلك الغرفة القصيّة بإحدى البيوت المستأجرة الّتي يشغلها بعض الأصدقاء، كلّ كبيرة وصغيرة؛ فلمّا أطلعها على ما توصّلت إلى معرفته، والإلمام به، لا تنزعج، ولا يبدو عليها ما يدلّ على القلق أو الانزعاج، وتبتسم تلك الابتسامة الفاتنة الّتي تعرف جيّدا كيف تأسرني بها، و تقول وهي تضغط على ذراعي بكفّها ضغطة حانية:

.سأكون لك إلى الأبد!!

ولكن يبدو أنّ ذلك الأبد الّذي كانت تصرّ على إقحامه في تلك الجملة الّتي أصبحت تبثّ فيّ من الرّعب أكثر ممّا تبثّه من الهدوء والطّمأنينة، كان أقصر بكثير ممّا كنت أتوقّع؛ بل إنّي ظننت أحيانا أنّها كانت تورده على سبيل المجاز لا الحقيقة، وهو ما حدا بي في إحدى المرّات، وأنا وسط حشد من النّاس المحترمين جدّا، أن أضحك ضحكة هستيريّة مجنونة. أشكّ أنّ أيّا من الحضور لم يسمعها، إذ اكتشفت سماجة تلك الكذبة الّتي كانت تحملها تلك الجملة بين طيّاتها، كما اكتشفت مدى البلاهة الّتي كانت تنمو في أعماقي، حتّى كادت تتحوّل إلى عملاق ضخم الجثّة بإمكانه أن يحطّم كلّ شيء، وبأسرع وقت ممكن، بمجرّد أن تومئ إليّ بإصبعها، ذاك الّذي كلّما رفعته في وجهي أدركت فورا ما تريد، دون أن تكون في حاجة إلى إبداء ذلك بالكلام... كان ذلك الأبد أقصر بكثير ممّا تصورّت، وكان مقدّرا له أن لا يعمّر أكثر من ثلاث سنوات، بالتّحديد سنتين وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما، انتهت في ذلك المساء وهي تغلق النّافذة، بعد أن أطفأت النّور المضاء في الغرفة، كأنّها كانت تخشى أن تلتقي عيناها بعينيّ. والغريب في الأمر أنّي لم أتساءل، لا في ذلك الوقت، ولا في أيّ وقت آخر، عن السّبب الّذي حدا بها إلى تغيير موقفها من ناحيتي؛ ولولا ما سمعته بعد ذلك، وعرفته في مرحلة متأخّرة، وبمحض الصّدفة، من ثقات تربطها بهم صلات مختلفة، ولكنّها متينة، عمّا دفعها إلى زواجها المفاجئ، وثورتها الجارفة على ذلك الغريب الّذي كان يسعى بيننا بالسّوء والوقيعة والضّغينة، لظلّ الدّافع،

وراء ردّة فعلها، في ذلك المساء البعيد، سرّا من الأسرار الّتي لا يجوز تجليتها وإماطة اللّثام عنها... كنت أريد أن أتألّم، أن أتجرّع مرارة مأساتي في صمت؛ فما حاجتي إلى كلام سوف لن يكون بإمكانه أن يجبر ما انكسر من صدع العلاقة الرّاحلة؟! وحتّى لو حاولت في تلك اللّحظة، أن أظفر منها بسبب مقنع لما حصل، فسوف لن يكون بإمكاني، وبكلّ الوسائل الّتي أملك، أن أجعلها تتكلّم. هي هكذا دائما، منذ عرفتها، تحبّ بعنف، وتكره بعنف، وإذا ما صمّمت على العناد، وقرّرت الصّمت، فالشّيء الوحيد الّذي كان يجمل بي أن أفعله، إذا لاحظت عليها ذلك، أن أستسلم، ودون أيّ شرط من أيّ نوع... علّمتني الرّضوخ، ودرّبتني، خلال فترة خطبتنا القصيرة، على الصّمت، والتّلذّذ بالألم، حتّى وأنا بجانبها، أرنو إليها مأخوذا بحضور فتنتها واستعصاء امتلاكها. كانت تقول لي، في كلّ خلوة من الخلوات العديدة الّتي كان يتيحها لنا الوقت والأصدقاء: «من يحبّ يجب أن يتألّم في كلّ الحالات، في القرب، وفي البعد، لا ينسى من يحبّ في أيّ حالاته الّتي يكون عليها، إذا كان حزينا، أو طافحا بسعادة لا توصف!!» في كلّ مرّة، كان يبدو لي موقفها غريبا، بل مناقضا لما اكتسبته من معارف وأفكار، وكوّنته من خلال ما قرأته واطّلعت عليه، ولكن انتهى بي الأمر إلى اعتناق آرائها كحقيقة ثابتة لا تتغيّر... كنت أعلم أنّ المحبّين يتعذّبون في فراقهم، ولا شيء أحبّ إليهم من اللّقاء؛ ويتألّمون ويشكون بثّهم ولواعج عشقهم، فإذا ما جاد الزّمن بالتّداني

والاجتماع، ضربوا صفحا عن جميع عذاباتهم، وطووا كلّ آلامهم في صدورهم، ليفرشوا بدلا منها حلل الحبّ القشيبة، ويهيّئوا أنفسهم لتطارح الأشواق والصّبابات... كنت أعرف كلّ ذلك؛ لكنّني كنت أعرف كذلك أنّه كان يجب عليّ أن أطرح كلّ ما عرفته جانبا، لأعتنق فلسفة جديدة في الحبّ، تضوع بقدسيّة صاحبتها، الآمرة النّاهية، على قلب لا يملك إلاّ الصّدوع بالطّاعة والامتثال، قائلا: «السّمع والولاء لمولاتي المتربّعة على عرش قلبي.» لذلك، كان الشّيء الوحيد الممكن القيام به . منذ اخترقت أذنيّ جملتها الباترة القاصمة: «أنت رجل بائس!»، نظرا لموافقته طبيعتي الجديدة الّتي غرستها فيّ بعنادها ومثابرتها أن أتألّم... أن أنزف من الدّاخل، دون أن أتيح لهذا النّزيف فرصة التّوقّف، لأنّ هذا النّزيف نفسه هو ما سيخولّني الاستمتاع بخيبتي وانكساري، وبنفس الإحساس بالذّنب وتبكيت الضّمير اللّذين عوّدتني عليهما قائلة بكلّ وثوق وثبات:

. المحبّ عليه أن يشعر دائما بالذّنب وتبكيت الضّمير إذا أحبّ؛ ذلك سيمنحه قدرة أكبر على الألم!

كان تصميمي على الوقوف أمام نافذتها، بعد أن أغلقتها، وحطّ اللّيل رحاله على الوجود، سادلا سجوفه الرّماديّة على أديم الأرض، من أجل أن أناجيها مثلما كنت أناجيها، كأنّ شيئا لم يقع، لأنّي حتّى تلك اللّحظة لم أكن مقتنعا تماما أنّ شيئا قد وقع فعلا... في صمت، ردّدت على مسمعي أسماءها

الجليلة الّتي كنت أطلقتها عليها في زمن السّفر والسّكون... قرفصت، معفّرا ثيابي بتراب جلالها المهيب ضارعا إليها أن تمنحني بركة الحزن الّذي سيساعدني على فجيعة الألم... تمسّحت بإفريز نافذتها... مسحت بأطراف أناملي حافّته، وأنا أتلو ما تيسّر من آيات عربدة سحرها وقداستها... فتحت بآخر مفاتيح الخوف بوّابة القلب السّرمديّة، لم أكترث للأزيز الّذي تجاوبت أصداؤه في أعماق وديان الرّعب القصيّة، فرشت الممرّ الغافي، على طول غرفة مملكة النّسيان، بسجاجيد القطيفة، ونثرت فوقها أزهار الألم، أضأت آخر الشّموع في شمعدانات الدّير الأيونيّ، وأشرعت مصاريع نافذة القلب على جدائل النّخلة الوحيدة القائمة في فناء الشّارع الخلفيّ... جاءت العصافير... جاءت أسراب الدّوريّ، والحساسين، وجموع المكّاء، وأبي الخضير، لتعزف سمفونيّة السّفر الأخير، على تلك الرّبوة المشعشعة بالأنوار بين النّخلة والغرفة المضاءة بشموع الشّمعدانات... وأنا أنظر ولا أرى: أنظر إلى الأنوار الشّعشعانيّة، فأحسبها شهبا ومذنّبات؛ وأنظر إلى النّخلة، فتتراءى لي كما لو أنّها عملاق هلاميّ آت من عصور سحيقة مجهولة، وأنظر إلى الباب، وإلى سجاجيد القطيفة، وأشمّ شذى الأزهار، فلا يعني لي ذلك شيئا؛ وأسمع زقزقة العصافير، فلا أعي منها إلاّ ما يوحي إلى أسمائها القدسيّة، ويعظّم مجد أمجادها، ونشيد إنشادها... وفجأة، يختفي كلّ شيء، كأن لم يكن، وأصحو. كالمسرنم . على ضربات قطرات الرّذاذ الحيّية تتخلّل شعري، وتلتبس بثيابي؛ ثمّ أرفع رأسي،

فأرى ألسنة البرق الخاطفة تضيء جيوب الظّلمة، وتصمّ أذنيّ أصوات رعود بعيدة... سرعان ما استحال ذلك الرّذاذ الحيّ إلى وابل مدرار، وسيول كانت تنغل بعنف في التّربة فتحيلها إلى سواق موحلة، ومستنقعات باهتة الألوان... وقفت، لم أكن خائفا من المطر. رسمت بيديّ تحيّة الوداع على صفحة نافذتها، وانطلقت، يواربني الجنون وسكون اللّيل...

تلك الوقفة الشّاردة على نافذتها، وضياعي السّاهم أمام إفريزها سوف لن أتذكّرهما أبدا. وحتّى بعد كلّ الّذي حدث لي كدليل على الاحتجاج، أو محاولة للتّمرّد على ما لقّنتني إيّاه من مشاعر متضاربة، وأفكار متطرّفة، وآراء لا يبرّرها العقل، وتجد تفسيرها الوحيد في كلّ ما هو طوباويّ وخياليّ وغير عقلانيّ، فلم يخطر ببالي أبدا أن أناقش. ولو كان ذلك بيني وبين نفسي. مدى صحّة ما نقلت عدواه إليّ على امتداد ثلاث سنوات تقريبا، وإنّما كلّ ما أحسست به آنذاك، وشعرت به فجأة يطفو على كلّ المشاعر الأخرى الّتي تضطرم بداخلي، أن أبكي وحدتي على أنغام اختفاء طيفها، أن أستنشق الرّائحة الأخيرة لغيابها، والّتي سيبقى عبق أريجها في أنفي، حتّى وهي تتقلّب في مستنقع آلامها لتضع ذلك المسخ الّذي أصابته اللّعنة الأزليّة لزواج دون حبّ... انطوائي التّلقائيّ على نفسي، ومناجاتي الهامسة والبكاء الصّامت، وتلك الدّموع الهادئة الّتي كانت تنزل بكلّ جلال حبّ مسكين في مغطس الفؤاد المنكوء، كلّ ذلك كان بمثابة الغشاوة الّتي انسدلت أمام عينيّ

لتحجب عنّي لون المطر (هل تذكركم كنّا نحبّ المطر، ونحن صغار؟ هل تذكر ذلك اليوم الشّتائيّ البعيد عندما ضبطنا المعلّم نتراشق بكريّات الطّين أمام باحة المدرسة؟ يومئذ، قرّعنا تقريعا عنيفا؛ ولم يكتف بذلك، بل ضربنا ضربا مبرّحا على أرجلنا الصّغيرة بعصاه الغليظة الّتي كانت لا تفارقه أبدا، والّتي كان يطلق عليها، بكلّ زهو وفخار، اسم «المجنونة»)... كان الوابل الّذي غمر أديم الأرض خلال دقائق، وحوّلها إلى سباخ ومستنقعات من الوحل والطّمي، قد عاد ينزل رذاذا من جديد، يتساقط في شكل حبيبات صغيرة جدّا، بلون الحليب؛ وقد كانت وهي تنهمر تحدث أصواتا مكتومة أشبه برجع الصّدى أو ذوب الحنين... تبلّلت كلّيا، ولم يبق شيء من ملابسي، أو شبر في جسدي، لم يتسرّب إليه الماء؛ ومع ذلك فقد كنت أسعد مخلوق على وجه الأرض، في تلك اللّحظة، لأنّي كنت على يقين، بشكل أو بآخر، أنّ قشعريرة البرد الّتي اجتاحت جميع أوصالي كانت مصدر لذّة أكثر ألما... في بداية النّهار، كان الطّقس ربيعيّا، والسّماء صافية، لا أثر على صفحتها لغيمة، أو طيف سحابة، كما هو الشّأن دائما في معظم أيّام شهر نيسان، لذلك لم أجشّم نفسي مشقّة ارتداء معطفي الكحليّ الطّويل، أو سترتي الوحيدة، الصّوفيّة، وارتديت قميصا من الكتّان، قصير الأكمام، وبنطالا رقيقا، تبلّل كلاهما منذ زخّات الرّذاذ الأولى، ورشح عبرهما الماء، فغطّى جسمي كلّه... أحسست ببرودة الماء في شعري، على فروة رأسي، داخل أذنيّ، على جبهتي، فوق أنفي... شعرت بقطرات

الماء تستقرّ في أصل شفتي العليا، ثمّ تنحدر شيئا فشيئا إلى فمي... جربّت أن أتذوّق طعمها بدافع غريزيّ غامض، وحينما انحدرت أولى الحبيبات إلى حلقي، أدركت عند ذلك السّرّ... كان طعمها طعم الخزامى، طعم شعرها هي، شعرها اللّيلكيّ الغافي ا لمنساب في ليونة أشعّة شمس الرّبيع. إذ ذاك، قلت ،لأوّل مرّة بعد اختفائها وراء مصراعي النّافذة، وبصوت كان أقلّ كثافة من الصّمت الّذي كان يلفّني، في لامبالاة، غيرعابئ بوخزمأساتي:

.كم ستكون الحياة ثقيلة وفارغة من دونك!!

دعاني الحزن واللّهفة المتأخّرة على فقدها، ممزوجين بتلك الرّائحة وذلك الطّعم الّذي جلا جفاف حلقي، أن أوغل، دون هوادة، في تقصيّ رائحتها، واستمرائها في أشياء أخرى أكثرلذّة؛ وكان الشّيء الأقرب منالا إليّ، والّذي فكّرت فيه قبل سواه، نظرا لعلاقة السّنين الحميمة الّتي جمعتني به في رحلة الأوائل والبدايات، أن أدخّن، وقد حاولت ذلك فعلا، دون أن أضيّع وقتا إضافيّا ثمينا في تقدير مدى نجاعة هذه الرّغبة المفاجئة. وفي الوقت الّذي امتدّت فيه يدي إلى جيب بنطالي، لم أجد علبة السّجائر، حيث اعتقدت أنّي وضعتها منذ الصّباح المبكر... حينئذ، وعلى إثر إحساسي الدّاهم، كما فيض اليقين، بأنّي أصبحت أقدّر المسائل بحسّ سليم من جديد، تذكّرت أنّ آخر سيجارة دخّنتها كانت منذ السّاعة السّابعة والنّصف صباحا، وأنّي رميت بالعلبة الفارغة في

باحة الدّار، وأنّي لم أدخّن بعد ذلك، لسبب بسيط جدّا، وهو أنّه في غمرة المشاكل اليوميّة الصّغيرة نسيت أن أشتري علبة جديدة، ففقدت شهيّتي للتّدخين... تذكّرت كلّ ذلك بما يشبه لحظة التّجلّي التّراجيديّ، ممّا ضاعف إحساسي الطّاغي بالذّنب، إذ تصوّرت أنّ عاداتي الأكثر تأصّلا في نفسي، والّتي لم أكن أشكّ لحظة في مدى تمكّنها منّي وسلطانها عليّ، قد باتت محلّ أخذ وردّ، لا أثر فيه لشفقة أو تعاطف...

عندما وجدت نفسي أخيرا أمام ذلك الكشك الخشبيّ الصّغير، الذّي يقوم في مستوى وسط من تقاطع شارعين رئيسيّين، والّذي يضيئه مصباح زجاجيّ مثمّن الشّكل، معلّق في سقفه المسطّح، كنت قد تبللّت تماما، ولا مجال للاعتقاد بأنّه يمكنني أن أصبح أحسن حالا، حتّى لو ارتديت أفخر الثّياب وأكثرها جلبا للرّاحة والدّفء... والحقيقة أنّ مردّ ذلك لا يرجع إلى ملامحي الّتي غدت أقرب ما يكون إلى ملامح فزّاعة منسيّة وسط مزرعة عقيم، أو شعري الّذي جعل منه الرّذاذ جمّة من الصّوف المندوف في غير حذق وعناية، وإنّما إلى الضّربان العنيف لصدري، وكأنّي عدّاء مسافات طويلة... ولعلّ ذلك الضّربان، وليس أيّ شيء آخر، هو ما جعلني أستمتع بنهايتي البائسة إلى الحدّ الّذي شكرت معه القدر الرّحيم الّذي أمدّني بهذه الطّاقة الرّهيبة على الألم... كنت متأكّدا أنّ قلبي يدقّ بعنف، وأنّ الدّماء تعربد في شراييني الرّقيقة الخضراء مثل مضخّة لا تتوقّف أبدا عن الهدير، ومع ذلك لم أحاول

أن أرتدّ إلى الخلف، ولم يساورني شعور الخوف الّذي يملي عليّ أن أعبر باضطرابي ممالك الهدوء والسّكون كي أغدو أكثر هدوءا وسكونا. على العكس من ذلك، كان ضبط نفسي آخر ما أفكّر فيه، وكانت الطّمأنينة. بالنّسبة إليّ. وهما جديدا أتعس بكثير من كلّ الأوهام الّتي اكتسبتها في رحلة الألم وتبكيت الضّمير؛ لذلك تملّكتني رغبة بهيميّة أقرب إلى الجوع في العناد، وتلبّسني شيطان الكفر إلى درجة أنّي كنت أحسّ براحة لا مثيل لها وأنا أقوم. عن سبق إصرار وتصوّر. بفعل كلّ ما يناقض الحسّ السّليم: انحنيت ففككت خيوط حذائي، وشمّرت بنطالي قليلا، ثمّ استقمت مرّة ثانية فحللت زرّين من أزرار قميصي تحت أنظار البائع الّذي كان ينظر إلى هيئتي مبهوتا، وهو يعتقد. دون شكّ. أنّي أحد هؤلاء المعتوهين الّذين أصبح يعجّ بهم شارع المدينة بين يوم وآخر. قلت، وكان آخر ما أفكّر فيه أن أسأله عن سبب تلك النّظرة، أو آخذ عليه اتّهامه الصّريح الّذي قرأته على صفحة وجهه:

. أريد سجائر.

أخذت العلبة، واستدرت، دون أن أنتظر الباقي، وقد سمعته وهو يصيح ورائي، كأنّه ينادي شخصا تفصله عنه صحراء من العروق والرّمال المتحرّكة، ولكنّي لم أكن لأسمع صوته، أو أيّ صوت آخر، خارج حدود دائرة هي قطبها ومحورها... رأيت بعض أنوار شحيحة تتراءى أمامي، وسط ضباب ذاكرتي الّتي بدأت في التّلاشي، فتقدّمت نحوها بخطوات متعثّرة؛ ولكن

كان عليّ أن أعبر الشّارع الإسفلتيّ المبلّل برذاذ المطر، وأن أستدير قليلا إلى اليمين، بمحاذاة زقاق ضيّق، يؤدّي بدوره إلى رأس ناصية تكتنفها ظلمة مطبقة... بالكاد تمكّنت من قراءة اللاّفتة الضّوئيّة في الأعلى، فوق باب قديم نسبيّا... كانت خمّارة، وكنت أوّل مرّة سأجرؤ في حياتي على دخول مثل هذا المكان، دون إحساس بالخجل، أو أيّ إحساس آخر. فقط شعور جامد يكاد يكون شبه حتميّ، باقتراب الموت وحلول المأساة... دفعت الباب بوثوق، وكأنّها ليست المرّة الأولى الّتي أجازف فيها بالدّخول إلى مكان كهذا المكان... دخلت... شيء ما أخبرني أنّي أعرف هذه الخمّارة، ومنذ سنين طويلة... لم ألتفت... لم أنظر في أيّ من الاتّجاهات الممكنة، رغم عربدة الضّحكات، ورائحة الدّخان الّتي كانت تسطع أنفي ممزوجة بروائح شتّى لخمور رديئة غير معتّقة... قادني نفس الإحساس بالألفة الّذي اجتاحني منذ قليل إلى ركن قصيّ في الزّاوية اليسرى الغارقة في شبه عتمة نظرا لسوء الإنارة، عدا كونها معزولة تماما عن فوضى المناضد المنتشرة في غير تكلّف وسط البهو، كانت تلك الزّاوية المكان الأوفق والأفضل لطالب لذّة مبتدئ جاء يحترف نعمة السّلوان، وينشد طعم حبيبته الرّاحلة في روائح الخمر والدّخان... جلست في وضع جانبيّ يجعلني بمنأى عن عيون أولئك السّكارى الّذين بقي فيهم رمق يسير من الوعي، وألقيت بمأساويّة غير محسوبة على سطح المنضدة المغطّاة بشرشف أزرق نيليّ القدّاحة وعلبة الدّخان... فيما بعد، فكّرت فيما يجب فعله... لم يستقرّ

ذهني على شيء محدّد... أخذت علبة السّجائر لاإراديّا من فوق المنضدة... فتحتها... سحبت سيجارة أشعلتها... سحبت الدّخان إلى صدري... لم أمجّه... كانت هناك، في نسغ الدّخان، ملفوفة مرّة أخرى في استعصاء حضورها وفتنة غيابها!!

شيئا فشيئا، بدأت رائحتها تمتزج في ذاكرتي بطعمها؛ وكلّما أخذ ذلك المزيج في الخفوت والانطفاء أذكيته بأوّار النّار وحلقات الدّخان. ولقد بدا لي، في قمّة روعة الانتشاء والضّياع، أنّ صورتها الّتي كانت تتخايل أمامي باستمرار أخذت تتجسّد بقوّة خفيّة أكبر بكثير من قوّة الوهم والخيال، في ذكاء عينيها العميقتين الخبيئتين، وشعرها الرّاجف بأسرار اللّيل وألغاز البعث، وجبينها الأشمّ، وذلك الخال الصّغير في منتهى ملتقى الشّفتين... ما أحزنني، وجعل فرحتي الأولى تغوص في قاع بئر عميق بلا قرار أنّها لم تكن تنظر إليّ، وإنّما كانت عيناها معلّقتين بنقطة غير مرئيّة في الأفق البعيد. هتفت باسمها، في ذروة الإحساس بالألم وتبكيت الضّمير: «سليمى!» وواليت الهتاف حتّى بحّ صوتي، ولكنّها كانت تبتعد شيئا فشيئا حتّى اختفت تماما، ووراى ملامحها السّراب الحائل بيننا... في تلك اللّحظة فقط . ليس قبلها ولا بعدها . تساءلت عن طعمها كيف سيكون أثناء الشّراب. هل بإمكانه أن يكون أعذب ممّا هو عليه أثناء التّدخين؟ هل بإمكان الألم أن يكون أكثف في الخمر؟ هل ينتهي بي الأمر إلى النّسيان أو الموت ألما؟... طلبت من النّادل أن يأتيني بزجاجة واحدة على سبيل التّجربة؛ وما أن أحضرها إليّ على صينيّة ذات تخاريم فضّيّة حتّى انتزعت

سدّادتها في رعونة طفل صغير، وملأت كأسا رفعتها في الهواء، أبقيتها قليلا في نقطة في الوسط، كأنّي أنتظر أن تقرع في اللّحظة الأخيرة كأسها بكأسي؛ ولمّا تصوّرت أنّها قامت بذلك فعلا، أدنيت حافّة الكأس من شفتيّ، وحسوت الجرعة الأولى متحسّبا لمفاجأة الاكتشاف الأولى... لم أكن مخطئا... كان طعمها أعذب في الشّراب... أفرغت الكأس دفعة واحدة في جوفي، فقد كان ظمئي إليها بلا حدود... خاطبتها، في صمت، بيني وبين نفسي... ناجيتها باسمها الجديد الّذي ألهمني إيّاه فيض الإلهام وحميميّة المكان: «قفا لحظة،/ نشرب الصّحو ثانية،/ ولتغنّ سليمى على قمر واحد في الرّصيف./ أرح نجمتيك على وردة الدّار،/ خبّئ بقايا العيون بمزودة الدّمع،/ علّم صغيرك أن يقرأ الخطو دون امتنان./ لكي يقتفيك.../ ورتّب كلاما يغنّي على مغزل اللّيل فوق النّوافذ،/ سدّد ختوم البريد ببارق.../... قفا لحظة:/ نشرب الصّحو ثانية،/ ولتغنّ سليمى على رجل واحد في الرّصيف./ أريحي كاحليك... سليمى:/ قفا لحظة:/ نبك هذي الدّيارا؛/ ففينا المدى للبعيد... البعيد/ يقرّب منّا الدّيارا كظلّ لصيق./ سليمى.../ أيا طللا دارسا شبّ فينا صغارا/ ولاكته في مشمش العمر مقصورة الشّعراء./ بنيناه في كلّ بيت بثلج الحروف،/ حفظناه قبل الولادة/ وبين الوساده،/ وفي هجرة الرّمل بين الجزيرة،/ كنت سليمى. كما المعجزات:/ فبيت صليل/ وبيت شهاده.

قفا لحظة نبك هذي الدّيـارا
ونبك الطّلول ونبك مـرارا
على جسرلندن كنّا بحـارا
ومن جسرلندن صرنا غبارا
قفا لحظة نبك فينا البحـارا

قفا لحظة؛/ نشرب الصّحو ثانية،/ ولتغنّ القيان/ لنرقص على قدم واحده. ونغترب في البياض/ وفي باحة البرتقال الّتي حملت حزنها/ في صهيل الحروب...!/ سليمى،/ قفي أسحب الكحل من حقّ صوتك،/ هاتي مراويدك المشرعات/ أعلّق على خوصي المستظلّ بموت الوجوه.../ شبيها لوجهي،/ أرتّب مسار النّهارلشمسي وظلّي؛/ غدا، يا غبارالمدينة/ من يرحلون هم العائدون...!

غدا، بين كلّ الوجوه، ستأتي سليمى؛ ولن يهرب الظّلّ منّا... ستأتي لنهدم عشّين في صدرلندن. آه، ترى من سيلقي الشّوارع في راحتينا، سليمى...؟ ترى هل تطيب الجروح على قبلة في المعابر؟ واللّيل إذ يجمع النّخل في نجمتين، تجوز الظّلال على حدق في النّوافذ/ نزرع في ظلّة الياسمين حروفا، نقول: غدا، سوف يأتي الرّبيع، ويمضي شتاء... يفيض خريف، وصيف سيهدي مكاتيبنا سلّة المهملات!/ لنا فندق واحد/ دفترواحد... غرفتان،/ ونافذة من رخام./ لها أن تمرّ القطارات في نفق واحد،/ أن تزقّ الحمائم أفراخها،/ أن نسير... نسيرإلى زاويه./ فلتغنّ الميادين في كلّ لندن:/. «يحيا السّلام.../ لنشرب على

نخب صيف جديد؛/ وندعو بأن يرحل الطّارئون،/ فنحيا لعام جديد...!»

قفا نبك هذي الدّيـــارا
ونبك الطّلول ونبك مـرارا
على جسر لندن كنّا بحـارا
وفي جسر لندن صرنا كبارا
قفا لحظة نبك فينا المحـارا»

... إثر كلّ كأس أجرعها، وكلّ سيجارة أدخّنها، كانت رائحتها تطغى حتّى تغطّي على كلّ رائحة عداها، وطعمها يأتلق بداخلي حتّى لتغدو كلّ نشوة أحسستها، منذ أن بدأت أعي حقيقة اللّذة، وإلى هذه اللّحظة الدّابرة وأنا أجلس متخفّيا وراء متاهة هذه المنضدة ذات الشّرشف الأزرق النّيليّ، اختصارا لطعم نشوة واحدة، أزليّة، متفرّدة، بلا قبل يحدّها ولا بعد يفنيها؛ ورغم أنّي كنت أحسّ أنّ حلقي يكاد يختنق بعبير رائحتها وشذى طعمها، فإنّي لم أحاول أن أمنح نفسي فرصة للاستراحة أو التّفكير، وكنت في قمّة جنوني أريد أن أشعر أنّي مليء بوجودها في داخلي... حسوت أرجها قطرة قطرة... دفعت بها بكلّ تلذّذ إلى جوفي دفعة واحدة... مصصت رحيقها وأنا أمسك بعنق الزّجاجة، وفي كلّ مرّة أكتشف أنّ لها طعما جديدا... سحبتها مع الدّخان... نفثتها بين ثنايا حلقاته، فكانت فتنتها تتجدّد دوما، كأنّها عنقاء الرّماد، لا تحترق إلاّ لتظهر من جديد في سماء شموخها واستحالتها.

لم أسكر... خمس زجاجات كاملة قذفت بها في أعماقي، لا أدري كيف أمكن مثلي، وهو حديث عهد بهذه المفسدة المغوية أن يحتملها دون أن يغرق في وحل قيئه وتخثّر برازه. والأغرب من ذلك، أنّي كنت أشرب، وأنا في حالة من الصّفاء، تشبه إلى حدّ كبير لحظات الكشف وأسرار التّجلّي؛ وأدخّن السّيجارة تلو السّيجارة دون أن تعتريني قشعريرة الغثيان أو ذلك الدّوار الّذي يسبق لحظة الضّياع والإغماء... لم أسكر؛ ولو قدّر لأحدهم أن يراني على تلك الحال من الهدوء والجلال لظنّني سكّيرا لا يجارى من سكّيري الحيّ العتيق الّذي أقيم فيه... أولئك كانوا فئة أخرى من السّكّيرين، ينحدرون من نسل سكّيرين ضليعين في الحرفة، سلالتهم في طريقها إلى الاندثار، يشربون كلّ شيء: ماء الكولونيا، الكحول الطّبيّة الّتي تباع عند الصّيادلة، الخمور بأنواعها وخمورا أخرى يصنعونها بأيديهم من نفايات الشّارع ونتانة أرواحهم، يشربون كلّ ذلك ولا يسكرون؛ يشربون باللّيل والنّهار، في بيوتهم، في الشّوارع في ظلمة اللّيل، في الخمّارات، في المقابر، وعلى بطون خليلاتهم المليئة طعاما وشرابا وشبقا...

إحساس واحد فريد شعرت به آنذاك؛ إحساس لم أجرّبه من قبل، انتابني دونما سبب ظاهر تقريبا، وقد تمكّن منّي إلى الحدّ الّذي فقدت معه كلّ علاقة حسّية بما هو حولي... لقد شعرت أنّي أموت رويدا رويدا، دون أن تبدو عليّ أعراض الموت المعتادة الّتي غالبا ما تظهر في انحباس التّنفّس، وتوقّف دقّات

القلب، ممّا ينجرّ عنهما توقّف نهائيّ في حركة الجسد كلّه... كنت أنظر إلى معالم المكان تتلاشى بشكل فجائيّ، والزّبائن يختفون بكلّ هدوء، دون أدنى ضجّة يحدثونها، والنّادل يتماهى بغتة مع القائمة الّتي شرعت في الطّيران من خلال السّقف الّذي تفتّت بدوره إلى كريّات من الهواء الصّغيرة... إنّي أملك، الآن، من الأدلّة ما يخوّلني أن أجزم أنّ ذلك لم يكن وهما، بل كان حقيقة أخرى، واقعا آخر فرضت ملامحه الفارقة حالة جامحة من الحضور في الغياب... ومن هذه الأدلّة الخفّة الّتي طرأت دون تمهيد على وزني، والأصوات الصّاخبة العديدة، الّتي كانت تتناجى فوق رأسي مباشرة، كأنّها تخشى إيقاظي من حلم مستحيل، ثمّ تفرقع بضحكات سعيدة معربدة، وهي تدعوني إلى عالمها الأثيريّ، الّذي كان يتموّج في فضاء فسيح لا أثر فيه لحدود أو عوائق... كنت أعلو عن الأرض لاإراديّا، أطير بكلّ سلاسة وسهولة، دون أن أبذل أيّ مجهود يذكر، ولولا المسافة الّتي كانت تتسّع باستمرار بين الأرض وبيني، لشككت بأنّي أنا، «مظفّر عبد الله»، المحبّ المسكين المهزوم، كنت بصدد الطّيران، في وقت ما، وفي رحلة طيراني العجيبة تلك، رأيت، رغم قصر الزّمن، ما لم يكن بمقدوري أن أراه حتّى ولو امتدّ بي العمر مائتي سنة أخرى... عادت صور الماضي السّحيق لترتسم في مخيّلتي، وكأنّها انعكاس آنيّ لأحداث لم يمض على زمن حدوثها إلاّ دقائق معدودات: قمم جبال تغطّيها طبقات ثلجيّة بيضاء، على امتداد الفصول الأربعة، أنهار متجمّدة تعكس مياهها الّتي تحاكي قطع البلّور

الصّقيلة هياكل أسماك ما تزال على قيد الحياة، مزارع لم تكن خصبة في يوم من الأيّام، جرذان تخلّت أخيرا عن عاداتها الغذائيّة لتكتسب عادة قضم أظافرها من الجوع، جنود حاسرو الرّؤوس، حفاة الأقدام، يرتدّون عن أسوار شاهقة العلوّ في اللّحظة الأخيرة، حيث كانوا على وشك دكّ الأبواب واختراقها، رجال في التّيه، مواربون في عباءاتهم السّوداء، على ظهور ديناصورات لم ينزلوا عنها مدّة أربعين عاما، حشود من النّاس أمام أحد القصور يحتفلون بانتصارات لم ينجزوها أبدا، مهرّج مطموس الملامح على دكّة وطيئة، وسط ساحة عامّة، يقول صراحة إنّ «نبوخذنصر» قد اعتذر لليهود قبل أن تبيدهم جيوشه الجرّارة وأنّهم بدورهم ساندوه على أن تكون لهم أرض الرّبّ تركة لا ينافسهم فيها أحد بعد أجيال من ذلك الحادث، ملك يعاني من إمساك مزمن، فيحكم شعبه متكوّما على نفسه، مستقبلا مأساته في وجه صبيّ صغير كان ينظر إليه مبتسما، ويغافله فيلطّخ وجهه بوحول الشّارع المستنقعيّ، ملكة قد يئست من زوجها الملك، وأدركت أنّ الحزن لا يمكنه أن يعيد ما انقضى وفات، ففتحت باب غرفة نومها، وباعدت ما بين فخذيها على أمل أن تنسى، غريقة بين آهات العاشقين وسمّار آخر اللّيل...

اختلطت عليّ الجهات... تعدّدت المسارات... المكان صار باهتا تكتنفه غلالة شفيفة من الضّباب... والزّمن تحوّل إلى مجرّد دفق فجائيّ مؤقّت من المشاعر والأحاسيس، لا تنضبط بسحر اللّحظات وقوّة الدّقائق والسّاعات... وحدها الأصوات،

أسمع وشيشها دون انقطاع، تخفت في بعض الأحيان، توشك على الهمود، تتناجى بالقرب منّي، لكنّها أبدا لا تصمت... تضجّ، تتعاضد نبراتها، تتشابك، يلفحني أوّار حميّاها، فتخترق أذنيّ، ودون سابق إنذار، فوضى حروف وكلمات لا رابط بينها. قال صوت: «المجد لله في الأعالي»... قال صوت آخر: «خير من الكلام الصّمت!»... قال آخر: «سيضنيني الحزن إذا رأيتك حزينا»... تساءل صوت لم أكن قد سمعته من قبل: «الله رحيم... لماذا يعذّبنا الله الرّحيم إذ كان قد خلق فينا أفعالنا؟!!» فردّ عليه صوت آخر، كان يسمعه: «أنا ديمقراطيّ جدّا، فلن أجيب عن هذا السّؤال حتّى يطرح للنّقاش العامّ!»... قال: «ما شكل السّماء إذا كانت الأرض كرويّة؟»... قال: «لا عزاء اليوم بأرض التّوت!»... قال: «في البدء كان الكلام ولا حرف! يعيش الوطن! ليحيا الفقراء!»... قال: «هلّلويا! هلّلويا! سوف تنهض أورشليم ويورق البيت القديم جدئالا في أورشليم»... قال صوت جديد آخر فتنني سحره وترجيع نبره: «أكتفي من مرايا الحدائق بالمرأة النّاحلة/ والغليل الّذي كان عندي/ والقليل الّذي صار عندي/ والحوار الّذي يتجانس في امرأة ناحله...»[١٣]... تجاوب مع صدى الصّوت الأوّل صدى صوت آخر، لا يقلّ عنه سحرا وفتنة وهو يقول: «يطير الحمام/ يحطّ الحمام/. أعدّي لي الأرض كي أستريح/ فإنّي أحبّك حتّى التّعب.../ صباحك فاكهة للأغاني/، وهذا المساء ذهب/ ونحن لنا حين يدخل ظلّ إلى ظلّه في الرّخام/ وأشبه نفسي

١٣ الصّوت الأوّل: سعدي يوسف. قصيدة «خطوات»

حين أعلّق نفسي/ على عنق لا تعانق غير الغمام/ وأنت الهواء الّذي يتعرّى أمامي كدمع العنب/ وأنت بداية عائلة الموج حين تشبّث بالبرّ/ حين اغترب»[١٤]... قال الصّوت الأوّل: «كم رأيتك خلف الزّجاج، وعبر الزّجاجة.../ كادت يدي تتحوّل بابا ويفتح، سيّارة وبطاقة/ ملهى صغير بأعلى العمارة، أو أسفل القبو،/ ها أنت هادئة تستكينين للشّاي ينحلّ شيئا فشيئا... ويأتيك، يدفأ فيك... انتظرت/ ولكنّ شايك مازال ينحلّ، يحمرّ، يدفأ فيك»... قال الصّوت الثّاني: «يطير الحمام/ يحطّ الحمام/ . رأيت على البحر إبريل/ قلت: نسيت انتباه يديك/ نسيت التّراتيل فوق جروحي/ فكم مرّة تستطيعين أن تولدي في منامي/ وكم مرّة تستطيعين أن تقتليني لأصرخ: إنّي أحبّك كي تستريحي؟/ أناديك قبل الكلام/ أطير بخصرك قبل وصولي إليك/ فكم مرّة تستطيعين أن تضعي في مناقير هذا الحمام/ عناوين روحي/ وأن تختفي كالمدى في السّفوح/ لأدرك أنّك بابل، مصر، وشام»... قال الصّوت الأوّل: «لم يعد ملمس العشب مثل زهور القماش/ إنّ في الشّجرات القديمة رائحة للحنين/ ورائحة لاحتراق دفين/ إنّ في الشّجرات القديمة رائحة للفراش»... قال الصّوت الثّاني: «يطير الحمام/ يحطّ الحمام/ . لأنّي أحبّك، خاصرتي نازفه/ وأركض من وجعي في ليال يوسّعها الخوف ممّا أخاف/ تعالي كثيرا، وغيبي قليلا/ تعالي قليلا، وغيبي كثيرا/ تعالي تعالي ولا تقفي، آه من وقفة

١٤ الصّوت الثّاني: محمود درويش. من قصيدة «يطير الحمام»

واقفه/ أحبّك إذ أشتهيك. أحبّك إذ أشتهيك/ وأحفن هذا الشّعاع المطوّق بالنّحل والوردة الخاطفه/ أحبّك يا لعنة العاطفه/ أخاف على القلب منك، أخاف على شهوتي أن تصل/ أحبّك إذ أشتهيك/ أحبّك يا جسدا يخلق الذّكريات ويقتلها قبل أن تكتمل/ أحبّك إذ أشتهيك/ أطوّع روحي على هيئة القدمين . على هيئة الجنّتين/ أحكّ جروحي بأطراف صمتك... والعاصفه/ أموت، ليجلس فوق يديك الكلام/ يطير الحمام/ يحطّ الحمام»... قال الصّوت الأوّل: «هل أرى وجهك اليوم في ساحة السّوق؟/ إنّ الكنائس إذ تنحني وهي تعلن ساعاتها/ كلّ ربع، تناديك، والحارس التّتريّ الّذي/ ظلّ يطلق بوقاته من ألف يناديك، هل/ أنت مثقلة بالصّفات الّتي تجهلين؟! انتظرتك/ في ساحة السّوق، كلّ اللّواتي يجئن،/ أيدنين لي صورة منك؟ ها أنت خلف الزّجاج،/ وعبر الزّجاجة، للعنق المشرئبّ تهاويل/ وحشيّتي والنّوادي الغريبه»... قال الصّوت الثّاني: «يطير الحمام/ يحطّ الحمام/. أراك، فأنجو من الموت. جسمك مرفأ/ بعشر زنابق بيضاء، عشر أنامل تمضي السّماء/ إلى أزرق ضاع منها/ وأمسك هذا البهاء الرّخاميّ، أمسك رائحة للحليب المخبّأ/ في خوختين على مرمر، ثمّ أعبد من يمنح البحر والبرّ ملجأ/ على ضفّة الملح والعسل الأوّلين، سأشرب خرّوب ليلك/ ثم أنام/ على حنطة تكسر الحقل، تكسر حتّى الشّهيق فيصدأ/ أراك، فأنجو من الموت. جسمك مرفأ/ فكيف تشرّدني الأرض في الأرض/ كيف ينام المنام»... قال الصّوت الأوّل: «في النّبيذ الّذي تشربين/ كنت

أستفّ طعمك، أو أمسك الفاخته/ كنت بالنّظرة الثّابته/ أتحصّن أو أمسك الرّاقصين»... قال الصّوت الثّاني: «يطير الحمام/ يحطّ الحمام/ حبيبي، أخاف سكون يديك/ فحكّ دمي كي تنام الفرس/ حبيبي تطير إناث الطّيور إليك/ فخذني أنا زوجة أو نفس/ حبيبي، سأبقى ليكبر فستق صدري لديك/ ويجتثّني من خطاك الحرس/ حبيبي، سأبكي عليك عليك عليك/ لأنّك سطح سمائي/ وجسمي أرضك في الأرض/ جسمي مقام»... قال الصّوت الأوّل: «غادر الرّاقصون الموائد، ضوء الصّباح الشّفيف، على الشّجر المتطاول والأعين المجهدات. الشّوارع/ تمتصّ أقدامنا والحديث الأخير، تجيئين أنت معي؟/ بل تجيء إلى شقّتي. أين معطفك؟ البرد/ يمضي بنا مسرعين، تلوكين كلّ الحديث المشاع، وتنسين أنّا انتهينا، وأنّا بدأنا، وأنّا/ نسير إلى شقّة في الضّواحي»... قال الصّوت الثّاني: «يطير الحمام/ يحطّ الحمام/ رأيت على الجسر أندلس الحبّ والحاسّة السّادسه./ على وردة يابسه/ أعاد لها قلبها/ وقال: يكلّفني الحبّ ما لا أحبّ/ يكلّفني حبّها./ ونام القمر/ على خاتم ينكسر/ وطار الحمام/ رأيت على الجسر أندلس الحبّ والحاسّة السّادسه./ على دمعة يائسه/ أعادت له قلبه/ وقالت: يكلّفني الحبّ ما لا أحبّ/ يكلّفني يحبّه/ ونام القمر/ على خاتم ينكسر/ وطار الحمام/ وحطّ على الجسر والعاشقين الظّلام/ يطير الحمام/ يطير الحمام.»

على إيقاع ذينك الصّوتين، وصخب الأصوات العربيدة الأخرى، رأيت معالم الفضاء السّدوميّ الّذي كنت رأيته أوّل

مرّة تنهار، وتنبق. بدلا منها. حدود عالم جديد، كانت الرّوائح الّتي تضوع من جنباته وأركانه توحي أنّ المكان لا يمكن أن يكون سوى مستشفى من المستشفيات الكبيرة، لا أدري تحديدا أهو ينتمي إلى عالم الحقيقة الواقعيّ، أم العالم الجديد حيث الواقع تنطمس ملامحه في حضور الغياب الدّائم. رائحة اليود القويّة، رائحة كحول وأدوية مختلفة، تنتشر ممزوجة برائحة الأمراض والموت... ولكن لا شيء ثابت هنا، الحقائق الثّابتة الّتي لا تتحوّل، في وقت ما، تصبح الآن مجرّد وهم واحتمال، والأفكار والآراء القديمة تلتبس. دون مقدّمات. بأخرى جديدة، غاية في الغرابة والفرادة؛ ففي الوقت الّذي اعتقدت فيه أنّي كائن محدود بين زوايا مستشفى ذي روائح تحدّد. بما لا يقبل مجالا للشكّ. نوعه وصفته، انهار هذا الاعتقاد لحظة أوشك أن يصير قناعة راسخة أمام اعتقاد آخر قد يتحوّل هو بدوره إلى مجرّد قناعة بالية بعد قليل، لا يمكنها أن ترتكز على أسس ثابتة... ما الّذي جاء بهذه المشاعل؟ ومتى كانت المشاعل تنوب عن مصابيح النّيون في المستشفيات الكبرى؟ وهذه العقود الكورنثيّة، وهذه الأساطين والأعمدة والتّخاريم المنبثّة في كلّ مكان... لقد كان المكان في حدّ ذاته ملغزا؛ ففي لحظة ما، لم أكن قادرا على تحديد ما إذا كنت تحت الأرض أو فوقها؛ ورغم المشاعل الّتي كانت تلتهب في وقدة أوّارها، فقد بدا لي أنّ طرفي المكان، الأيسر والأيمن، يفتحان على أقيانوس ظلمة أبديّة، معلّقة فوق صخرة الأبد القاهرة... كانت المشاعل متقابلة على الجانبين، مثبتة على الأساطين والأعمدة المتوازية؛ وفي

نهاية بهو فسيح، مبلّط برخام مجزّع، كان يلوح مذبح، على يساره نضد مرتفع قليلا عن الأرض، فوقه ميزان مذهّب قديم، على إحدى كفّتيه ريشة طاووس ملوّنة... تأمّلت الفضاء وراء المذبح؛ في البداية، لم أرشيئا، ثمّ دقّقت النّظر، مظلّلا عينيّ بكفّي اليمنى، فبدا لي عرشان أبنوسيّان مبطّنان بالذّهب، ينتهيان بقوائم من معدن مشعّ... لم يكن المشهد في حدّ ذاته غريبا عنّي، بل على العكس من ذلك، بدا لي مألوفا جدّا إلى حدّ أنّي لم أتمالك نفسي عن الصّراخ، فصحت، وفي ذهني تلك الصّورة القديمة الّتي كانت طالعتني في أحد كتب التّاريخ الكثيرة الّتي كانت تعمرها مكتبتي، هذان عرشا «أوزوريس» و «إيزيس»، فأين تراهما يكونان الآن، يا ترى؟!

لم يحدث شيء يدلّ على أنّ أحدا قد سمعني؛ فقد ظلّ المكان على حاله، هادئا، ساكنا، باستثناء الأصوات الكثيرة الّتي صحبتني في رحلتي غير المتوقّعة، والّتي ظلّت توشوش من حولي بين حين وآخر... فجأة، سمعت ورائي بداية جلبة تأتي من جانب قصيّ في نهاية الممرّ... التفتّ بدافع غريزيّ، فتراءت لعينيّ طلائع موكب تتقدّمه بقرة عظيمة صفراء اللّون فاقعته، يمسك بها عبدان نوبيّان، سادران، لا تغطّيهما سوى خرق بيضاء قصيرة، تسترعورتيهما... كان الموكب يتقدّم نحو المذبح، وكان يتكوّن من رجال ونساء، يرتدون حبائك كتّانيّة وقلانس طويلة شبه مستديرة، وتنانير تختلف طولا وقصرا... عند المذبح، تعالت أصواتهم بصلوات مؤثّرة موقّعة، وهم يدورون في حلقة واحدة كبيرة، حول تلك البقرة، الّتي رأيتها

تختفي شيئا فشيئا، مخلّفة وراءها عبقا شذيّا من روائح نفّاذة كانت تنتشر في فضاء المكان... وباختفاء البقرة وانتهاء الطّقوس، انفتح باب صغير في أصل واجهة كانت تزيّنها كتابات معقّدة، قد خطّت بلسان أجنبيّ قديم، وولج منه إلى داخل البهو رجل وامرأة كانت تبدو عليهما ملامح السّلطان والملك، تقدّما بكلّ ثبات حتّى استقرّ بهما المقام على ذينك العرشين الغارقين في جلال أبّهتهما... لم أكن في حاجة إلى من يدلّني عليهما، فقد عرفتهما منذ الوهلة الأولى... كانا «أوزوريس» وزوجته «إيزيس».

قام على جانبي المذبح صفّان: الرّجال إلى اليمين والنّساء إلى اليسار، وكلّهم مطأطئو الرّؤوس، بادية عليهم أمارات التّخشّع والاحترام... كانت قوّة خفيّة، لا أراها ولكنّي أحسّ إحساسا غامضا بوجودها، تدفعني بين الصّفّين، تحثّني على المسير باستمرار، فإذا ما توقّفت، أحسست بها تنخسني... كنت أدرك أنّه يتوجّب عليّ أن أستسلم، أن أذعن، فلا خيار أمامي سوى أن أفعل ذلك، ودون اعتراض... نظرت إلى ذلك الرّجل، «أوزوريس»... نظرت إليه بضراعة... توسّلت إليه في صمت، ولكنّ عينيه الأزليّتين الأبديّتين لم تكونا لتمتدّا إلى كائن مثلي، ضعيف، مثقل بخطاياه، ومحكوم عليه بالفناء. سمعته يقول، لا أدري لمن تحديدا:

.شقّ صدره!

لم يمنحني الوقت حتّى لإبداء رعبي...! فما إن قال ذلك حتّى رأيت قلبي فوق الكفّة الأخرى من ذلك الميزان، وقد رجح

رجحانا بيّنا على ريشة الطّاووس الملوّنة... خفّف ذلك من رعبي الّذي لم أتمكّن من التّعبير عنه، واستشعرت طمأنينة شاملة تستقرّ في أعماقي... سمعته يقول لي هذه المرّة:

.هو الحبّ ما جعل كفّتك ترجح.

ثمّ، وهو يقف، مشيرا بذلك إلى انتهاء المحاكمة:

.بشرى لك الخلود، يا ابن الإنسان الفاني.

تلفّت حولي... نظرت إلى نفسي، بعين الخالد هذه المرّة، لا بعين ذلك الكائن الضّعيف المثقل بالخطايا فلم أجد يديّ ولا رجليّ، ووجدت مكانهما جناحين طويلين ناعمين، وذيلا مرقّشا، تزيّنه ألوان غاية في الرّوعة والجمال... مشيت قليلا إلى الأمام... وجدت نفسي أرتفع تلقائيّا... تجسّدت تلك الأصوات الّتي كانت تصحبني هي الأخرى... طرت... طارت معي... درت حول نفسي باستدارات ليّنة متناهية الدّقّة... دارت حول نفسها هي الأخرى... أحاطت بي، وقد أشرفنا على حدود برزخ الأرواح الخالدة، وهي تردّد:

. بشرى لك الخلود... بشرى لك الخلود، يا ابن الإنسان الفاني.

تجلّيات المراقي

هذا النّزيف... من يوقفه؟ باب القلب المفتوح على صحارى الضّياع ومهامه الذّكريات الفاجعة من يغلقه؟ من يمنحني . شفقة . ترياق النّسيان، فأبذل له مفارش الرّوح يطأها بقدميه؟ من يوقف هذا النّزف؟... من يوقف هذا البكاء؟ من يفتح لي في غابة الأشجار الشّائكة، ملتفّة الأغصان، مسربا . ولو كان . صغيرا . للخلاص... مسربا خالدا لنعمة الموت!! الألم... هذا الألم الرّازح بثقله القاهر عليّ ما عدت قادرا على احتماله؛ بلى استعذبته كثيرا، تشرّبته إلى آخر قطرة حتّى الثّمالة، تماهيت معه في أقصى تخومه القصيّة، صرت ترجمة له، بديلا عنه في غيابه، ولكنّي الآن أعلن استسلامي... أعترف تحت تأثير الضّعف، هذا صحيح، ولكن دون خجل، بأنّ رحلتي في خضمّ التّجربة السّابقة كانت مجرّد مهزلة، قمت أنا على امتدادها بتقمّص جميع الأدوار غير المشرفّة... كلاّ، لم أحاول من قبل الدّفاع عن نفسي، ولست في الحالة الرّاهنة بأحسن ممّا كنت عليه، إذ لا أدّعي أنّي في موقف يسمح لي .حتّى ولو رمت ذلك .بالتّحفّز للدّفاع، لأنّه، بكلّ بساطة، لا شيء قد تبقّى لديّ لأدافع عنه... ها أنذا أقول ذلك، ولست أقوله في غير أسف، أو دون ذلك الشّعور الّذي يحسّه المحتضر ساعة

الوفاة، وهو لا يعي فقط أنّه على وشك خسران حياته، في تلك اللّحظة القصيرة الّتي سيزوره فيها ملاك الموت شاهرا حربته، وإنّما يعي أيضا، وفي نفس تلك اللّحظة، أنّه سيلفظ مع نفسه الأخير ماضيا كان حافلا بالملذّات بقدر ما كان حافلا بالآلام، وحاضرا بات فيه مطمئنّا إلى صلابة الأرض تحت قدميه، ومستقبلا كان يؤمّل لو كان له وحده، دونا عن جميع الكائنات من بني جنسه... بلى، كنت آسفا جدّا، وأدرك تماما أنّ شعور المحتضر ذاك كان حاضرا بداخلي، ويعتمل في أعماقي مثل خلد صغير، لا يمكن أن يستريح، أو يجتاحه الإحساس بالرّاحة، ما لم يحدث نفقا في الأرض، يطلّ من خلاله على رحابة الفضاء المبشّر بالحرّية. ولكن، ما العمل، ولا حيلة لي في الأمر؟ أين المفرّ، وجميع الأبواب مغلقة من دوني، وجميع النّوافذ تطالعني مقفلة المصاريع، مسدلة السّتائر، فكأنّها تلتئم على جراح بيوت نكأها الوباء منذ آلاف السّنين، دون أيّ أمل في الحشر أو البعث؟ ... لو لم تتلاش تلك الرّائحة! لو لم يخدعني طعمها الّذي أصبح مراوغا، زئبقيّا، مشاكسا! طيلة الأيّام الأولى الّتي تلت إعلان القطيعة، من خلال نافذتها المشرعة على ضعفي وهزيمتي، كان طعمها سرعان ما يوافيني، ما إن أستحضره، ولا يتأخّر عنّي لحظة أثناء طقوس التّدخين وحفلات الشّراب المجوسيّة الّتي اهتديت إليها بإلهام منها، وصارت مثيرا لا يخيب في استدعاء طيفها وجلاء فتنتها. فلماذا يراوغني الآن؟... لماذا يشاكسني طعمها الّذي ضاع منّي مرّة، وإلى الأبد؟ لقد كان الألم محتملا في حضورها... في

رائحتها المتوحّشة البرّية الّتي تذكّرني برائحة حلم كنت رأيته في طفولتي عن العصر الجوراسيّ... في شذى أريجها الدّافق بغياب مكين موغل في جلال الحضور؛ بل لقد كانت تلك الرّائحة وذلك الشّذى هما ما جعلاني أستلذّ ذلك الألم؛ هما ما جعلاني أستعذبه وأستطيبه. فلماذا يتبخّر ذلك الطّعم؟ لماذا تضيق دوائرتلك الرّائحة وحلقاتها؟ ولماذا أدخّن فيتمكّن منّي الصّداع؟ وأشرب، فأصحو ورأسي ينوء بثقل الخمار؟

هذا النّزيف... من يوقفه؟ هذه الأصوات النّائحة الّتي ما تنفكّ تعربد في شراييني، فائرة مع الدّماء، والّتي تحاصرني، مضيّقة عليّ الخناق من الجهات الأربع، تريدني على الانتقام والكيل بمكيالي الحقد والضّغينة، من يخلّصني منها، أو يخلّصها منّي؟ من يفتح لي زقاقا ضيّقا إلى باب بيتها الموارب، ونوافذه الكبيرة المشرعة على مملكة الشّمس، حيث أشعّة الصّباح الذّهبيّة تتسلّل عبرالشّقوق الكثيرة، لتغرق كلّ شيء في عربدة سعادتها الكونيّة، ابتداء من شجرة الحور المعمّرة، والأشياء الصّغيرة في الفناء من دكك خشبيّة ومفارش مطرّزة وآنية الشّاي، إلى أكثر الأشياء الأخرى حميميّة، والّتي رغم انزوائها في مناطق الظّلال، كانت تلك الأشعّة المشاكسة تعرف كيف تصل إليها، باذلة أروع الأساليب في المجون والإغواء؟!... كانت الأشعّة، كخطوة أولى، وفي محاولة لإخفاء نواياها المضمرة، تنصبّ على باحة الدّار الدّاخليّة، ثقيلة، كسلى، متظاهرة باللاّمبالاة وعدم الاهتمام، ثمّ تشتبك لبرهة بأشباح أغصان الشّجرة العملاقة، تتمسّح بأوراقها، تتمطّى

فوقها، تلتحم بالجذع العظيم والجذور الممتدّة داخل مربّع كبير مسيّج بالآجرّ والإسمنت، ثمّ ترتدّ فجأة، ودون سابق إنذار، إلى جميع الاتّجاهات الممكنة وغير الممكنة، وداخل النّتوءات والفجوات المنبثّة هنا وهناك... تغزو الممرّ الصّغير الّذي يفضي إلى الدّاخل عبر الباب الرّئيسيّ، ولا تلبث أن تتفرّق نظرا لكثافة الظّلمة، فتنعكس على الفناء المبلّط برخام مجزّع، يشكّل في الزّوايا مربّعات سوداء متراصفة، وينتهي إلى الوسط بوردة جميلة متفتّحة التّويجات؛ فإذا ما التأمت على المساحة الواسعة المغسولة، وأحالت بللها إلى بخار تستنشق عبيره حفنات الهواء اليسيرة المباغتة، أنشبت أظافرها الطّريّة المدرّبة في واجهات الجدران العالية، ومن هناك تشرع في تنفيذ خطّتها المضمرة الأولى... دائما، ودون استئذان، تلج غرف البيت جميعها، ولا تسلم منها إلاّ تلك الغرف المغلقة، وحتّى هذه الأخيرة كانت أبوابها ذات الطّلاء الأزرق المائل إلى خضرة عرضة لهجومات عنيفة ما تفتأ تزداد حدّتها كلّما أوغل النّهار في سفره الاعتياديّ... غرفتها الوحيدة، من بين سائر الغرف، الّتي لم يكن بابها ليوصد قطّ، سيّما في الصّباح وحتّى ساعة متأخّرة من فترة ما بعد الظّهر. لذلك كانت تغرق دائما في بركة من النّور الّذي كان ينطرح على كلّ شبر من الغرفة في يسر وسهولة، إلى حدّ أنّها قالت لي ذات يوم من أيّام الرّبيع، وكنّا وحيدين، على خلاف العادة منذ تعارفنا: «لقد صرت أعتبره ضيفا دائما لا غنى عنه في هذه الغرفة»؛ وعندما أسألها متغابيا: «من يكون هذا الضّيف إذا لم أكن

أنا نفسه؟» تضحك مليّا، وهي تنظر إليّ بتحديد، كأنّها تشير بذلك إلى أنّها كشفتني، وتقول بصوتها الرّقيق الحازم: «انظر ما أجمل نور الشّمس يتوهّج في الغرفة.» وبالفعل، فإنّ النّور كان يتوهّج دائما، بتألّق ضيف قد نسي منذ زمن بعيد كونه ضيفا؛ وكان، رغم تظارفه الوقح، غالبا ما يبدو جميلا، حتّى في قساوة برودة أشهر الشّتاء، عندما كانت السّماء الحبلى، المثقلة بالغيوم، تسمح بفرجة صغيرة، تتسرّب عبرها أشعّة الشّمس الوانية إلى داخل الغرفة الّتي لم تتخّذ أيّة احتياطات استثنائيّة لحمايتها، اللّهمّ إلاّ ما يكون من إغلاق الإطارين الزّجاجيّين للنّافذة، وجعل الباب مواربا بدل فتحه على سعته، وكأنّما ترمي بذلك إلى كونها معصومة، لا تقدر أيّة قوّة . مهما بلغت درجة جبروتها . على اختراق مناعتها... لقد انتهى الأمر بذلك الضّيف أن يعتبر نفسه المالك الشّرعيّ لغرفتها وما تحويه من مظاهر التّرف والرّياش؛ يطأ بقدميه الذّهبيّتين عتبة الباب، ويفيض بقوامه الممتلئ على مدخله، دون أن يكلّف نفسه عناء إلقاء السّلام، شامخا برأسه المتوّج الجسور، كأنّه يحتجّ إذ يرانا منشغلين عنه، مستغرقين في رتابة حديث كنّا نستعيض به، إلى حين، عن فورة العواطف الّتي لا يندر أن يمسك بها والدها أو والدتها متلبّسة بخجل بوح، غالبا ما كان يغافلنا ليفصح عن نفسه بصوت مرتفع جهير... يتنحنح الضّيف قليلا، لا بهدف الإعلان الكيّس عن قدومه، وإنّما لجعلنا نتفطّن إلى خطئنا في عدم إيلائه ما يستحقّه من فروض الطّاعة والولاء، والهبوب لاستقباله بما هو أهل

له من آي التّبجيل والاحترام؛ وإذ نرنو إليه بنظراتنا الممتنّة الضّاحكة، تعلو وجهه مسحة رضى مشيرا بذلك إلى صفحه عنّا، ويدخل متبخترا، فينظر ذات اليمين وذات الشّمال، وهو يتهادى، بخطواته الحذرة، على أديم السّجّادة الفارسيّة الّتي كانت تغطّي أرضيّة الغرفة كلّها... لا يبطئ كثيرا في إبداء انطباعه الأوّل، الّذي يعلن عنه بابتسامة كبيرة تعلو شفتيه، كاشفا بذلك عن مدى سعادته بمنظر تلك الصّورة الجميلة المبروزة، والمثبتة بعناية يد ماهرة على الحائط المواجه للباب... كانت صورة من الحجم الطّبيعيّ، تزهو بألوانها المائيّة، تعكس ارتفاعا سرابيّا لجبل مثلّث، مجلّل بالثّلوج، على خاصرته قد نمت بعض الأعشاب البريّة الخضراء، وفي سفحه، على أرض منبسطة، تكسو أديمها طبقات كثيفة من الثّلج الشّفّاف، ارتفع بناء موارب في روعة لا توصف، بسقفه الخشبيّ، شديد الميلان، وجدرانه الخشبيّة المطليّة بلون أزرق سماويّ، وحديقته الصّغيرة الغافية في بكور صباح جليديّ... لا تكاد عيناه تستقرّان على شيء محدّد بعد ذلك: فيرمق المكتبة العامرة بشتّى أنواع الكتب لبعض الوقت، ثمّ تسترعي انتباهه دقّات السّاعة الحائطيّة، فيصوّب نحوها نظرة محايدة لامبالية، ويقترب أخيرا من نضد وسط أريكتين، حيث نجلس متقابلين، فيمكث بجانبنا قليلا، واقفا، وقد تملّكته واحدة من تلك التّهويمات العديدة الّتي تحلّق به فوق عوالم أكثر حرارة ودفئا... لا ينتظر منّا أن نوقظه، ولا نفعل نحن ذلك لعلمنا بطباعه الحادّة؛ ولكنّه يثوب إلى نفسه في

اللّحظة المناسبة، دون أن تبدو عليه أيّة بادرة توحي بأنّه قد كان منذ قليل مستغرقا في شروده، قاطعا بذلك أيّ اتّصال بعالم الغرفة المخمليّ، العابق بشذى الرّبيع؛ ويشقّ طريقه، في صمت الزّاهد المتوحّد، إلى أقصى ركن في الغرفة، حيث يرتمي بثقله على دكّة بجانب السّتارة، بين السّرير والكومودينو، مستسلما لهواجس القيلولة وأفكار ما بعد الظّهر...

لم أكن متقيّدا في علاقتي بها بجدول محدّد للمواعيد؛ وحتّى لو وجد هذا الجدول فإنّي أشكّ في مدى انضباطي به؛ وقد ساعدني والدها ووالدتها، بتواطؤهما الضّمنيّ ونواياهما المضمرة، على الذّهاب بعيدا في التّخلّي عن خجلي، الّذي ظلّ إلى وقت طويل يفرض تلك المسافة في المعاملة بيني وبينهم. استقبلاني، بادئ الأمر، في منزلهما، وبناء على طلب منها، بشكل رسميّ لا يخلو من مسحة تلطّف. كانا يدركان أنّ العلاقة بريئة إلى أبعد الحدود، تفرضها حاجتها إلى مدرّس يذاكر لها موادّ من الأدب القديم لتقدّم إلى امتحانات السّنة النّهائيّة. وحتّى تبدو المسألة أقرب إلى الحشمة والسّلوك المتّزن الرّصين، فقد استقدمت، وبإيحاء منهما، زميلتين لها تدرسان معها في نفس الصّفّ؛ وقد قالت لي آنذاك، وهي تضحك ضحكة قصيرة ذات معنى، كاشفة لي بذلك عن إصرار والديها في الحفاظ على الأصول: «إنّه الشّرف؛ فقبل كلّ شيء وبعده، تظلّ أنت رجلا وأنا امرأة»... ثمّ بتتالي الزّيارات، ونجاحي منقطع النّظير في التّسلّل إلى وتيرة حياتهم الهادئة، صارا ينظران إليّ نظرتهما إلى الابن الّذي أبت العناية الإلهيّة أن تمنحهما إيّاه، وقد

تكفّلت الأيّام بالباقي، وبالطّبع كانت الأمور تسير بشكل طبيعيّ لصالحي، حيث بدأت أقتنع أنّهما قد أدركا، وبحسّ عميق لا تعوزه السّلامة، أنّ اهتمامي بابنتهما قد تجاوز، ومنذ الأيّام القليلة الأولى، كونه اهتماما عاديًا يبديه مدرّس إزاء طالبة بالمدرسة الثّانويّة، ليتحوّل إلى رغبة لم يقع الإعلان عنها بعد في الارتباط. إلاّ أنّهما، رغم ذلك الإدراك الّذي بات أكثر من جليّ في نظرهما، كانا من التّهذيب والاتّزان بحيث لم يجبهاني قطّ بذلك الإلحاح الّذي عرفته في آباء آخرين يريدون التّخلّص من بناتهم على أهون السّبل وأيسرها، واكتفيا . دونما صخب . بوداعتهما الحالمة معتبرين إيّاي الخاطب المرتقب... في المقابل، أنا وهي، كنّا قد ذهبنا بعيدا، حتّى من قبل أن ألمس في ملامح والديها ذلك الإدراك لجوهر حقيقة علاقتنا؛ فقد كنّا نتصرّف على أساس من شعور مشترك بالارتباط؛ إذ كانت هي، ومن خلال القليل المتاح من الكلمات البسيطة، تتعامل معي بتلقائيّة الزّوجة المحبّة الرّصينة، وكنت أنا بدوري أشعر حيالها بأحاسيس الزّوج الّذي يرى لزاما عليه أن يدلّل زوجته الصّغيرة... زوجان صغيران، بمقاييس عصر صاخب وتقاليده، لا يبقى فيه شيء على حاله؛ زوجان صغيران، الآن، أو في وقت لاحق، لم يكن ذلك ليهمّ كثيرا في نظرنا على كلّ حال، فارتباطنا كان ارتباط زوجين فوق الزّمان، ولا سلطة للمكان في رسم حدوده ومراميه...!!

كانت أيّام الآحاد الأسعد من بين جميع الأيّام السّانحة للّقاء؛ فأثناءها، ومنذ أن ركن والداها إلى صلابة عواطفهما

تجاهي، واطمأنّا إلى جدّية مشاعرنا الّتي تكفّلت الأيّام بتهذيبها وإنضاجها، صرنا نمكث وحيدين في غرفتها السّاعات الطّوال، نتحدّث في شتّى المواضيع، حتّى إذا ما تأكّدنا من انشغال والدتها في المطبخ، وذهاب والدها إلى المقهى، استسلمنا لمباهج الحديث المفضّل بيننا... لقد كنّا، حتّى في أكثر المواقف حرجا، وأقلّها ملاءمة، لا نعدم وسيلة في التّفاهم بيننا. وكانت أكثر هذه المواقف حرجا على الإطلاق حين تدخل غرفتها مصحوبة بزميلتيها للمذاكرة... حينئذ، أغرق معهنّ في أتون مقرّرات الأدب القديم، وأنا أدرك تمام الإدراك أنّه لن يطول بي الحال مع صرامة المتنبّي ونرجسيّته، وتشاؤم المعرّي وسوداويّته، حتّى يركبني الملل، ويعتريني ضجر لا فكاك منه إلاّ بالهروب والزّوغان... زميلتاها، رغم أنّهما في نفس سنّها، ورغم أنّهما على قدر من الصّراحة يسمح لهما بتبادل الأسرار معها، بريئتان، طيّبتان، تحسنان الظّنّ بالنّاس كثيرا، ولا يمكنهما أن تلمّا بأساليبنا المختلفة في التّواصل؛ وربّما كان أحد أسباب ذلك أنّ سمعتي كمدرّس وجدّيتي البادية في التّعامل مع المسائل والأشياء كان من شأنهما أن تضعاني فوق الشّكّ والظّنون، في نظرهما... كنت أهرب، ودائما بطريقتي الخاصّة، متذرّعا بشتّى الأسباب... «المتنبّي شاعر مفلق، ولكنّه يبدو كراهب في مسوح يلقي عظة ثقيلة أمام معشر من العميان!»... «المعرّي... شيخ انزوى، بمحض اختياره، في زاوية يكتنفها الصّمت، يخاطب الأرواح والجنّة، أكثر ممّا يخاطب أشخاصا واقعيّين ينتمون إلى نفس عصره، وينهلون

من نفس ثقافته!»... هي كانت على علم بأسرارلعبتي الصّغيرة، تعرف أنّي سأختلي بها دون الحاجة إلى خلوة... تعرف أنّي بمجرّد هزّة يسيرة من رأسي، سأقصي زميلتها من الغرفة، وسأفرغ لها وحدها في مناجاة حميمة، فتبتسم ابتسامة غامضة متواطئة... كان الشّعر أحد أساليبنا، وكنت أختار منه أجزله وأكثره دلالة... أقرأ للمجنون... أتخيّلها «بثينة» فأخاطبها على لسان «جميل»... تتملّكني حالة من الانبهار، فأكون كلّ الشّعراء الّذين أحبّهم لأنّهم أحبّوا: «كثير»، و «عروة بن حزام»، و «عنترة»، و «غيلان»؛ ومدفوعا بنفس ذلك الإحساس بالانبهار وفيض الإلهام، تتراءى لعينيّ كلّ أولئك النّساء يتقمّصن شخصها، مرّة، وإلى الأبد... تصير كلّ النّساء، في لحظة تجلّ ليست من الزّمان... تكون هي «عزّتي»، و «عفرائي»، و «عبلتي»، و «ميّاي»، نتهامس، نتعاتب، نتلاوم، ثمّ نفترق على سفح قصيدة، وسرعان ما نلتقي على مشارف قصيدة أخرى!!

أيّام الآحاد كانت لنا وحدنا...

كنت أكتشفها في تلك الأيّام، أكثر ممّا كنت أتحدّث إليها؛ وأظنّ أنّها كانت تفعل الشّيء نفسه؛ إلاّ أنّني مازلت إلى حدّ الآن لا أدري أكانت الصّورة الّتي ظفرت بها منها، وانطبعت في ذهني، حقيقيّة، أم أنّها لا تعدو أن تكون مجرّد مبالغة فرضها الحبّ، فاستسلمت لها مدفوعا بضعفي حيالها وخضوعي لفتنة إرادتها... كان خالها أكثر ما شدّني إليها، تلك الغمّازة السّوداء فوق شفتها العليا من جهة اليسار، كانت الهالة الّتي

شدّتني إلى إسار محورها بلا رحمة أو تسامح؛ تشمخ بكبرياء توحّدها على صفحة وجهها الحلبيّ، الّذي زاده أنفها الأقنى، وعيناها الدّعجاوان، وأهدابها الطّويلة، تحت حاجبيها الرّقيقين، مهابة إلهة وثنيّة قديمة... كنت نادرا ما أخفي عنها ميلي إليها وكلفي بها، لأدعها تتكلّم، تقول كلّ ما عندها، دون ذلك الإحساس بالحياء أو الخجل الّذي قد يحتّمه فارق السّنّ الّذي يفصل بيننا... كنت أكبرها بسبع سنوات كاملة؛ ولكن كان لديّ شعور غامض بأنّي أصغر منها بكثير، وأنّ كفّتها في ميزان علاقتنا لا بدّ وأنّها سترجح كفّتي بعدد تلك السّنين الّتي لم تكن تمثّل في الحقيقة إلاّ ميزة، من جملة ميزات أخرى، تحسب لها لا عليها... متسلّطة رغم ظرفها، ذات كبرياء أجنبيّ، لعينيها نظرة جسور لا تخطئ هدفها أبدا... قطعا كانت ستتكلّم حتّى من قبل أن أمنحها الفرصة لتفعل ذلك؛ كانت ستقول كلّ ما يجول بخاطرها دون مراوغة أو مواربة؛ بل إنّها في المرّات القليلة الّتي كنت أصمت فيها، كانت تتطلّع إليّ بجرأة لبؤة متوحّشة، وتقول بشجاعتها المعتادة: «لماذا سكتّ؟» حينئذ، لا تكون لديّ الجرأة لأقول لها الحقيقة؛ فلو جازفت مثلا وقلت لها إنّي فعلت ذلك لأمنحك فرصة للكلام، لضحكت ملء فيها ساخرة، وهي تقول: «يمكنني أن أتكلّم إذا كنت تتكلّم أنت أيضا، أليس كذلك؟» وينتهي بها الأمر إلى أن تمسك بزمام المبادرة فتقول كلّ ما لديها، وأكتفي بالصّمت، وأنا أرنو إليها مفتتنا بسلطتها وكبريائها... لا تكذب أبدا؛ ولا تلجأ إلى الكذب في أيّ ظرف من الظّروف، ومهما كانت

الملابسات، متحصّنة دائما بدرع شجاعتها الّذي لا يفلّ... في مرّة من المرّات، وكان ذلك قبل سنوات حين كانت ما تزال بالصّفّ الثّالث المتوسّط، تعرّضت إلى عقوبة الطّرد لمدّة سبعة أيّام، لأنّها رفضت أن تخبر عن زميلة لها قامت بشتم المدرّس على السّبّورة... كان الخطّ يقرب كثيرا من خطّها، وقد اتّهمها المدرّس مجبرا إيّاها على الاعتراف، ولكنّها أصرّت على الإنكار والرّفض. قال لها: «الخطّ خطّك، فلا داعي للتّهرّب»: فردّت عليه، بكلّ بساطة، وفي حزم لا يدع مجالا للتّراجع أو التّسليم: «الخطّ ليس خطّي، وأنا لم أقم بكتابة أيّ شيء على السّبّورة.» قال: «فخطّ من إذن هذا الّذي على السّبّورة؟» فقالت: «لا أعرف»... وهكذا، راحت ضحيّة شجاعتها وعنادها، رغم أنّها كانت تعرف صاحبة الفعلة حقّ المعرفة. كانت تلك الشّجاعة وذلك العناد هما ما حبّباها إليّ، وربّما جعلاني، في مرّات كثيرة، أخافها بسببهما... قد أكون أحببت فيها ذلك الشّخص الّذي لم أكنه أبدا!! قد أكون أحببت شجاعتها وعنادها لأنّي لم أكن شجاعا ولا معاندا!! قلت لها ذات يوم: «إنّ أروع ما يعجبني فيك خالك!» فنظرت إليّ في عتاب، وقالت بنفس بساطتها وجرأتها: «قل إنّك لا تحبّني إذن! فإمّا أن تحبّ في شخص ما كلّ شيء أو لا تحبّ شيئا!» ثمّ تصمت قليلا، وكأنّها ترتّب في ذهنها أفكارها المشتّتة، ثمّ تواصل بشجاعة كانت تخيفني أحيانا: «أمّا أنا فأحبّك كما أنت... أحبّ فيك كلّ شيء دون استثناء.» تحبّني؟! لم يكن لديّ شكّ في ذلك من قبل!! فما الّذي يحدث الآن؟ أين ذلك

الحبّ الكبير والآمال العراض؟!

كثيرات هنّ النّساء اللّواتي عرفتهنّ في طرح الزّفاف، يتصدّرن أبهاء عذريّتهنّ، في بيوت حسنة التّرتيب والتّأثيث، أو فنادق معروفة بترف ذوقها وبذخها، محاطات بذويهنّ في حليّهنّ وحللهنّ، تتقدّمهنّ غير بعيد عن موقفهنّ على دكّة خشبيّة فسيحة فرقة موسيقيّة تمّ جلبها إمّا لصيت المغنّي الّذي يحيي الحفلات بصحبتها أو لارتفاع أجرها وغلاء كلفتها... يكون المدعوّون دائما في الطّرف الآخر، في أسفل الدّكّة، مقابل الزّوجين الشّابّين، يحتويهم دفء الكراسي المرتبّة المنظّمة، وهم يتمايلون برؤوسهم على أنغام الموسيقى، ويصفّقون ويضحكون... أولئك النّساء الشّابّات الفارهات الجميلات اللّواتي عرفتهنّ، يتربّعن على عرش سعادتهنّ الأزليّة ما كانت كلّ تلك الجلبة العارمة وأصوات الموسيقى وصخب المدعوّين لتجتثّهنّ من بين أحضان عالمهنّ المخمليّ الجديد، ينظرن إلى طرحهنّ البيضاء المنمنمة بالدّانتيلاّ، مأخوذات، مشدوهات، أكثر ممّا ينظرن إلى أزواجهنّ المواربين بدورهم بين جناحي فرحة طاغية بلا حدود... لم تكن الطّرحة، تلك الطّرحة البيضاء، رمزا لعذريّة ستفتضّ وردتها الحمراء في حميميّة اللّيل فحسب، بل كانت أكثر من ذلك دليلا على ارتباط ملزم لا فكاك منه إلاّ بالموت... كانت أولئك النّساء المتصدّرات على عروش ممالكهنّ يدركن ذلك الشّيء جيّدا، بغريزتهنّ حتّى وإن لم يكنّ قادرات على التّعبير عنه بشكل جيّد وصريح؛ وبهذا المعنى تكون الطّرحة، في نظرهنّ، أهمّ من

الزّوج الّذي قد تتغيّر ملامحه، أو يستبدل بآخر، أو يختفي ليظهر غيره في اللّحظة الأخيرة بقميصه الأبيض المنشّى، وبنطاله وسترته البيضاوين، وحذائه الجديد اللّمّاع، في حين تظلّ الطّرحة هي نفسها دائما وإن اختلف نوع القماش الّذي حيكت منه... إنّه هوس، وأيّ هوس هذا الّذي يتملّكهنّ في تلك اللّحظة، ويجعلهنّ بالكاد قادرات على سماع وشوشة أزواجهنّ وهم ينفثون فيهنّ استثارة الإغراء استعدادا لقضاء ليلة كاملة، دون عوائق على السّرير ذي النّاموسيّة الورديّة الشّفّافة!! فما بالها هي؟ لماذا لا يبدو عليها افتتان أولئك النّسوة الصّغيرات بطرح زفافهنّ، وهنّ يتصدّرن تخت عذريّتهنّ؟... تنظر هنا وهناك، ساهمة، شاردة، لا تعني لها تلك الأصوات الّتي تحيط بها شيئا، وكأنّها تزفّ امرأة أخرى غيرها؛ يضع زوجها باطن كفّه على يدها، ويسرّ إليها ببعض الكلمات القصيرة المحمومة، فلا يبدو عليها ما يشير إلى أنّها سمعته... تشعر أنّها وحيدة، مستوحشة، معزولة، لا أحد يقدرعلى مساعدتها، في هذه السّاعة الحرجة، لتعلن رفضها الّذي لم تعلن عنه في البداية، عندما كان الوقت يسمح بذلك... لم يجبرها أحد، في الحقيقة، على القبول! والدها الّذي كان على علم مؤكّد بعلاقتنا، وكان مقتنعا بأنّ النّهاية الحتميّة لتلك العلاقة الرّاسخة القويّة هي الزّواج، أشار عليها بالتّروّي حينما تقدّم إليها ذلك الرّجل. من سيصيرزوجها طالبا يدها... لم يكن يميل إلى فرض آرائه وأفكاره عليها، بل كان يمنحها دائما هامشا من الحريّة؛ ولم يكن مردّ ذلك إلى

علمه بعنادها ويباسة رأسها، بل إلى إيمانه بحريّة كلّ شخص في الاختيار، سيّما إذا تعلّق الأمر بمسائل الزّواج والمصير... اختلى بها مليّا في غرفتها، وبعد أن قام بتهدئة عواطفها، قال يخاطبها مخاطبته لصديق أكثر من مخاطبته لابنته الوحيدة: «هذا الأمر من بدايته إلى نهايته يخصّك أنت وحدك؛ لك أن تقبلي أو ترفضي، لكنّ الشّيء الوحيد الّذي أوصيك به هو التّروّي، لأنّي فيما بعد سوف لن أكون مسؤولا عن اختيارك.» والدتها في المقابل لم تقل شيئا؛ اكتفت حيال هذا الوضع الحرج بالصّمت. صحيح أنّها هي أيضا كانت تحبّني، وكانت تتمنّى لو كان من يطلب يدها هو أنا ولا أحد غيري، ولكن ما حيلتها وهي لا تشكّ في عناد ابنتها إذا أصرّت على أمر من الأمور؟! في المرّات القليلة الّتي حاولت فيها أن تتحدّث معها، أن تثنيها عن رأيها، أن تلفت نظرها إلى مدى الخطأ الّذي وقعت فيه، كان زوجها لها بالمرصاد: «هذا الأمر لا يخصّنا. إنّه قرارها، وهي حرّة فيه!!»... فعلا، كان القرار قرارها هي، والاختيار اختيارها هي أيضا؛ ولكنّها تعلم في المقابل أنّها ستتحمّل المسؤوليّة كاملة، وبمفردها، لأنّ والدها بقدر ما كان متفهّما ومتسامحا في منحها الحريّة الّتي تنشد، فإنّه يرفض أن يتحمّل جريرة أيّ خطأ من أخطائها، وبنفس العناد واليباسة اللّتين تبديهما هي في تقرير مصيرها... والدتها. مجرّد ظلّ لوالدها. هي الأخرى لا يمكنها الاعتماد عليها... فمن تبقّى لها إذن ممّن تعرفهم؟ وماذا تبقّى لديها في خضمّ هذه الحرب الضّروس غير المجيدة، الّتي لم تعد تعني لها شيئا في الحقيقة؟

قطعا، لا يمكنها التّفكير في ذلك الغريب القادم من مجهول تلك المدينة الّتي قدمت هي منها، ذلك الخلد الّذي لا يمكنه أن يستريح ما لم تلفح وجهه القبيح القميء رائحة أديم الأرض الضّائعة بشذى الشّرّ وعبيره، والّذي لا تذكره إلاّ وتفقد السّيطرة على أعصابها، وتستشيط غضبا، إلى حدّ أنّها تصبح قادرة على تقويض أركان عالمها الصّغير بمجرّد الصّياح في وجه ذلك العدوّ الّذي يكون رابضا في إحدى زوايا ذاكرتها وهو يضحك في عربدة من نجح في تحطيمي وتحطيمها بعد ذلك!! كثيرا ما حاولت أن تتجاهله، أن تتخلّص منه بأن تتوقّف عن استحضار صورته أو التّفكير فيه، وكان هو يعرف كيف يستثيرها ويذكي جنونها... قد يفاجئها في أيّة لحظة من اللّحظات، وحيثما كانت، بضحكته الشّيطانيّة، وهيكله الّذي كان يتضخّم أحيانا، حتّى يصبح بحجم ديناصور مفترس، ويتقلّص أحيانا أخرى حتّى يصير مثل جرذ له أشواك حادّة كأشواك القنفد... حينئذ، تصرخ في وجهه، ترميه بكلّ ما تطاله يدها، تجري وراء صورته بحنق لبؤة مستثارة وسرعة غزال، ولكنّه كان يعرف دائما كيف يهرب، وفي اللّحظة المناسبة... عند اختفائه، تسقط أرضا، وتجثو، وهي تبكي ناشجة، ركبتاها ويداها الدّافئتان على أديم ذات السّجّادة الفارسيّة الّتي طالما شهدت عبق خلواتنا، ورأسها الّذي كان أشمّ.وما عاد كذلك.مرفوع إلى السّقف فيما يشبه الضّراعة... في لحظات الضّعف والقهر تلك، كانت على استعداد أن تضرب بكلّ شيء عرض الحائط: عنادها، صراحتها، شجاعتها،

كبريائها الأنثويّ: أشياء طالما شدّني بريق فتنتها، وأسرني جبروت سلطتها... في قمّة يأسها، في قمّة انحدارها، كانت تصرخ غير عابئة بمن حولها: «أين أنت؟» وكنت أعرف جيّدا من تقصد، وماذا تعني كلمة «أنت»، لكن أثناء إطلاقها تلك الصّرخة المعولة، وحتّى قبل ذلك بوقت قصير، كان كلّ شيء قد انتهى؛ وفي الوقت الّذي كانت فيه هي على استعداد للاعتذار، كنت أنا بجناحيّ النّاعمين وذيلي المرقّش أضرب في أتون برزخ الأرواح، دامي القلب، مرهقا بتعاسة لا تطاق، تحوطني أصوات غريبة آتية من كلّ مكان، تدعوني إلى الانتقام، صائحة: يا محسّد بشراك... يا مفدّى حيّاك الله وبيّاك... يا محسّد... يا مفدّى... وأصرخ: «إنّي أرفض الانتقام، فلا غرماء لي!» أبدا لم تخامرني فكرة الانتقام، ولم أجرؤ، حتّى في أقصى درجات الانخذال والإحساس المرير بالخديعة والتّلاشي، أن أتصوّر أنّ وجها، كوجهها بنعومته اللاّمتناهية وإيحائه المتسلّط، يمكن أن تشوّه إهابه طلقة عابرة من فوّهة مدفع الحقد والانتقام... كنت أرفض أن أندفع بفحولة خنزير جريح باتّجاه معاقل حصونها المدلّة في خيلائها، فأبقر بنابيّ الحادّين اللّذين يقطران سمّا ودما بطن عرشها الملكيّ، الّذي كان حينها، في الحقيقة، يطأ بهو قلبي بقوائمه الرّخاميّة البرّاقة... بلى، كنت أتعذّب، منكفئا على ذاتي في ألم، ولم يكن ذلك لرغبة تعتمل بداخلي في الانتقام منها، ولكن لشعور أكيد بفقدها... كنت أرفض أن أنتقم منها، حتّى عندما كانت هي على استعداد متطرّف للقيام بذلك، وأنا أنظر إلى عينيها

الذّكيّتين، ترسلان نحوي شواظا ملتهبا كمارج ناريّ، وفمها يقذف في وجهي تلك الكلمات القليلة المتّهمة: «أنت رجل بائس»... تجرّعت الإهانة برواقيّة متسامحة، ورغم فورة غضبها الجامحة، وعدائيّتها، سعيت إلى مصالحتها... تقدّمت نحوها... حاولت أن أمسك يدها، ولكنّها جذبتها بعنف، وتركتني حائرا، مبهوتا، غيرقادرعلى اتّخاذ أيّ قرار، أوالتّساؤل عمّا يجب فعله: هل ألحق بها لاسترضائها؟ أوأدع استرضاءها لوقت آخر، حين تكون قد استعادت هدوءها وسيطرتها على نفسها من جديد؟... لم أستطع أن أفهم آنذاك ما الّذي كانت تعنيه بقولها: «أنت رجل بائس»؛ كما لم أستطع أن أعرف الدّافع وراء ذلك؛ ولم أكن أتصوّر أنّ لقاء بريئا مع فتاة أخرى غيرها يمكن أن يتسبّب في إحراق ثلاث سنوات من الحبّ الجامح المتأجّج... لقد كان عليّ أن أنتظر... وكان عليّ أن أنتظر كثيرا محتملا احتقارها وصمتها، فيما عدا تلك الجملة القصيرة الّتي باتت هي الهبة الوحيدة الّتي تتفضّل بها عليّ، كلّما ألححت عليها في السّؤال عن سبب قطيعتها إيّاي... وفي الحقيقة، فإنّ تلك المرّة لم تكن هي الأولى الّتي تسمعني فيها تلك الإهانة الصّريحة، فقد سمعتها منها مرّات عديدة، آخرها كانت في ذلك المساء البعيد وهي تهمّ بإغلاق تلك النّافذة، وإطفاء النّور... قيل لي أخيرا، حين تعبت من مطاردتها، دون جدوى، وكدت أيأس من معرفة السّرّ الكامن وراء موقفها العدائيّ: «لقد كشفت خيانتك أخيرا؛ وكان ذلك سبب إصابتها بالصّدمة الّتي أعلنت على إثرها القطيعة... إنّها لم تكن

تتصوّر أبدا أن تحبّ فتاة غيرها، أن تتحدّث إلى فتاة غيرها، أو حتّى أن تنظر إلى فتاة غيرها، ولو مجرّد نظرة عابرة بريئة... أتذكر ذلك اليوم؟! إنّه اليوم الّذي كشفتك فيه تخاطب تلك الفتاة، غريمتها... نعتتك، آنئذ، بالرّجل البائس لأنّ أعراف الحبّ الّتي توصّلت إلى تكوينها وانتهت إلى تبنّيها لا تجيز الحديث إلى أيّ طرف آخر، باستثناء الطّرف الثّاني في علاقة الحبّ... أعرافها المقدّسة لا تبيح الخيانة، وتدينها في أيّ أشكالها كانت!!» يا إلهي! هل يمكن أن تكون متطرّفة إلى ذلك الحدّ؟ هل يمكن أن تضحّي في سبيل أعرافها الجائرة تلك بحبّ كبير يحمل أملا أكبر؟ ثمّ... هل كان اكتشافها بمحض صدفة عابرة؟ أم أنّ هناك من كان يحفر أديم الأرض تحت قدميّ بكل ثقة وثبات ليسقطني؟ أجل... أجل، إنّه هو، دون شكّ: ذلك الغريب القادم من أرض مجهولة، غاية في الغرابة... النّذل... الحقير... السّافل... لقد ندمت كثيرا، حيث لم أهشّم رأسه في ذلك اليوم، عندما تجرّأ على جرّها من يدها، كما تجرّ شاة جرباء... إلحاحها وإصرارها جعلاني أفقد صوابي، ودفعاني إلى آخر الطّرق المسدودة... لم أدرك أنّي كنت أتحدّاها صراحة حين قابلت والدها، في حضورها هي، طالبا يدها، إلاّ حينما صرخت في وجهي، وهي تتميّز قهرا وغيظا: «ألم تفهم بعد. إنّي لن أتزوّجك، حتّى ولو كنت الرّجل الوحيد على وجه الأرض!» وحثّت خطاها إلى غرفتها الّتي أغلقت بابها بالمفتاح، على خلاف العادة في تلك السّاعة من ساعات ما بعد الظّهر... ربّت والدها كتفي بحنان، قائلا كأنّه يواسيني، وهو في الحقيقة

يواسي نفسه، متحسّرا على سوء حظّها هي:
. إنّه قرارها، يا ولدي، ولا مفرّ من الرّضوخ له.
وقالت لي والدتها، وهي تذرف دمعة كبيرة نزلت على خدّها في صمت:
. إنّ شفقتي عليها أكبر، لأنّها سوف لن تجد رجلا خيرا منك.
مستثارا، مأخوذا بحرارة الموسيقى والصّخب في الدّاخل، لا تكاد قدماه المخدّرتان من النّشوة تحملانه، وفي غمرة شرودها الّذي حملها إلى أقاصي الحبّ والقطيعة والألم، احتملها زوجها بين ذراعيه القويّين الفتيّين، وهما في أسفل السّلّم، وصعد بها الدّرجات جميعا، بين زغاريد النّسوة المترقرقة، وهزيج الأطفال، ودعاء العجائز الضّامرات المتسربلات في ملاءاتهنّ اللّفّ... فتح باب غرفة النّوم، دون أن يفكّر في إنزالها، ودفع بقدمه اليمنى ضلفة الباب دفعة خفيفة، ثمّ دخل تكتنفهما ظلمة المكان وكثافة الصّمت... حاولت أن تنفلت من بين ذراعيه، فشدّ عليها شدّة يسيرة، وهو يتقدّم بخطى ثابتة نحو السّرير، دون أن يخطر بباله أن يضيء النّور؛ ولمّا لامست ركبتاه حافّة اللّحاف، خطر بباله، في ذروة انتشائه واستثارته، أن يدفعها ويرتمي فوقها، مستسلما لفوضى رغبة طفوليّة، ولكنّها صدّته... كانت غاية في الرّقّة وهي تصدّه، انفلتت منه رغم محاولته الاحتفاظ بها بين ذراعيه، وتنحّت جانبا، وهي تقول بنبرة لم تسع إلى إخفاء مسحة الحزن المندسّة فيها: «ليس الآن أرجوك. إنّي متعبة جدّا.» بهت، وأسقط في يده، وظلّ للحظة فاغرا فمه، لا يدري

ماذا يقول... بدا له موقفها غريبا، ومع ذلك لم يقل شيئا... لم يكن قادرا على الاحتجاج... كان . مثلي . يحبّها بصدق، وهو مستعدّ، في سبيل الظّفر بها، للتّضحية بكلّ شيء... في النّهاية خرج صوته مسكينا، وهو يقول لها: «ولكنّك زوجتي»... أحسّت به... شعرت بضعفه وعجزه على الرّغم من كثافة الظّلمة، راقبته بعينيها المستبصرتين وهو يستدير ليخفي عنها ارتباكه، ثمّ وهو يجلس على حافّة السّرير واضعا مرفقيه على ركبتيه ومخفيا وجهه بكفّيه المتشنّجتين... ظلّت متسمّرة في مكانها، غير قادرة على الاقتراب منه؛ وفي محاولة لتهوين الأمر عليه، وتهدئة نفسها المضطربة، قالت برقّة لا تتناسب مع حرج الموقف: «لا تقلق؛ فلن أكون مضطرّة إلى التّراجع... لقد قبلت بك زوجا بمحض إرادتي، وأعرف واجبي جيّدا... ولكن كلّ ما في الأمر أنّي متعبة... يمكنك أن تنتظر يوما آخر... يمكنك أن تفعل ذلك، أليس كذلك؟! افعل ذلك من أجلي، أرجوك»... صمته العميق كان دليلا على موافقته؛ وكبرهان آخر على تفهّمه اللاّمتناهي قام متسربلا بجرحه الدّامي، وهو يجهد أن يخفي عنها ضراوة المأساة القاتلة الّتي كانت ترشح بها شرايينه... أخذ وسادة من فوق السّرير، واتّجه صوب الصّوان فتناول بطّانية وخرج وهو يقول، بحياد هذه المرّة، ودون ألم أو تأثّر أو مأساويّة: «تصبحين على خير.»

كان انتظار اللّيلة الفاصلة ممضّا لا يطاق، بالنّسبة إليه: وهو يشبه إلى حدّ بعيد انتظار حرب لن تقع أبدا، ولكن يظلّ احتمال اندلاعها متوقّعا رغم ذلك... في اللّيلة التّالية لحفل

الزّفاف، استعدّ، استجمع كامل قوّته، شبه يقين بداخله يقول إنّها لن تمانع. لقد طلبت منه منحها ليلة أخرى، وقد فعل، فما عليها إلاّ أن توفي هي بوعدها... في صمت، دخلت الحمّام الّذي يفصله عن غرفة النّوم مجاز ضيّق؛ ورغم أنّها مكثت به طويلا، فإنّه لم يقلق؛ كان يفكّر في اللّحظة الحاسمة، يستحضر بخياله فورة النّشوة الّتي ستمنحه إيّاها... غيّر ملابسه، خلع في البداية ربطة عنقه، وهو ينظر إلى نفسه في المرآة، ثمّ فكّ أزرار قميصه، وهو يدندن، وقام في النّهاية بخلع بنطاله، وهو يفرقع بأصابعه مردّدا بصوت هامس مقطعا من أغنية قديمة... ألقى على نفسه نظرة أخيرة، ولمّا اطمأنّ إلى جاذبيّة مظهره عاد إلى السّرير فتوارى تحت اللّحاف، وهو يرنو إلى باب الحمّام بعينين زائغتين متشهّيتين... عندما خرجت، ندّت عنه حركة تحت اللّحاف تشي باضطرابه الدّاخليّ، غير أنّها لم يبد عليها أنّها لاحظت شيئا من ذلك؛ وبدلا من أن تتّجه نحو السّرير لتلطو بجانبه، عدلت إلى طاولة زينتها، حيث اتّخذت مكانها مقابلها، دون أن تكلّف نفسها عناء إلقاء نظرة . ولو عابرة . عليه... كانت تنظر في المرآة إلى صورتها، ولكنّها لم تكن ترى نفسها، لم تلاحظ شرودها الّذي نأى بها إلى عوالم قصيّة غير معلومة، حيث يكون الحبّ مجرّد قربان يقدّم على مذبح الغيرة والانتقام؛ كما أنّها لم تنتبه إلى سيطرة خيالها الجامح الّذي قادها من يديها المرتعشتين، في لحظة خارج الزّمان، إلى مكان غريب، بعيدا عن غرفة نومها، حيث الامتداد يكتنف كلّ شيء، وينساح حتّى يبلغ ذرى جبال قديمة

تكسوها الثّلوج، وسهول خصبة قد غطّت خضرتها على الأفق الرّحب الّذي لا يدرك... في وقت ما، في لحظة بعينها، كانت يدان مدرّبتان تضغطان بهدوء على كتفيها البيضاوين، من تحت الإهاب الرّقيق لغلالة نومها الخمريّة... كانتا تنبسطان، تتضامّان، تقتربان، تبتعدان، ترسلان إلى الجسد المتعب حرارة مغرية؛ وكانت الأصابع الطّويلة تنغل في البياض الشّفيف بخفّة جرذ جريء، تتباعد حينا لتبثّ أكبر قدر من اللّذة، ثمّ فجأة تنفصل السّبّابة والإبهام عن سائر الأصابع، ويتضامّان استعدادا لرحلة استكشاف طويلة، عبر المجاهل الخفيّة لجسد فائر متوحّش... أحسّت بنشوة عارمة تسري في كامل أوصالها... استسلمت... ألقت برأسها إلى الوراء، فتلقّاه صدر رحب، قويّ، غزير الشّعر... كانت مغمضة العينين، ترى قمم الجبال المجلّلة بالثّلوج أقرب إليها، في هذه اللّحظة الّتي تعبر فيها برزخ سعادتها، من أيّ وقت مضى، والسّهول الخصيبة أكثر خضرة، كأنّها لم تكن في يوم من الأيّام، ذابلة تسفي عليها رمال العقم والذّبول... انفرجت شفتاها بألم ممضّ... صرّت أسنانها بقسوة، فخرج من بينها نشيج أشبه بالصّفير... ضغطت برأسها أكثر على الصّدر المبذول في دعة لمملكة شعرها اللّيلكيّة، ولم تتمالك أن أطلقت، في ضعف مشوب باستسلام لامتناه لسلطان عذابها: «مظفّر... مظفّر، أحرق جسدي في محراب فحولتك، حطّم عظامي... دكّ حصوني... فجّر ينبوع العذاب بداخلي، واقتلني... اقتلني... اقتلني...» فجأة، توقّفت حركة اليدين المدرّبتين، وانكمشت الأصابع في

اضطراب؛ ولمّا فتحت عينيها، مأخوذة، بالكاد قادرة على تمييز ما يحدث حولها، رأت زوجها يخرج كالمصعوق، وهو يتأبّط مخدّة وبطّانيّة: لقد ضبطها متلبّسة إذن... كشف سرّها الصّغير... ولكن، ما يمنعه من الثّأر لشرفه؟! ما الّذي يصدّه عن الدّفاع عن كرامته المهدورة، فيقذف في وجهها، وبكلّ ثبات ووثوق، ودون أن يطرف له جفن: «أنت طالق... أنت طالق... أنت طالق؟!» أهي الصّبابة؟ أهو الحبّ المقدّس الّذي يصنع المعجزات؟ أم هو، بكلّ بساطة، الرّضوخ، الاستسلام لسلطة عينيها الذّكيّتين، وكبريائها الّذي لا يقهر؟!

وأخيرا، دقّت السّاعة الصّفر...

جاءت تلك اللّيلة الفاصلة بأسرع ممّا كان يتوقّع، وبعد أن كاد يفقد الأمل، هو الّذي لم يسع إلى مضايقتها حتّى بعد أن نكأت جرح فحولته في تلك اللّيلة البائسة. فكان لها أطوع من بنانها، يلبّي كلّ طلباتها . على قلّتها . ويتوخّى عدم التّحدّث إليها . إلاّ فيما ندر. كي لا يثير كوامن غضبها وألمها معا... لقد انطبعت نظرته إليها بحزن عميق، وكانت تطلّعاته الخاطفة إليها، ورؤيته إيّاها منزوية في محراب وحدتها الّتي ما انفكّت تضيّق عليها الخناق شيئا فشيئا، تبعث في نفسه إحساسا فاجعا بالرّثاء، ورغبة في البكاء كان يكبحها في اللّحظة الأخيرة، كي لا يزيد من تعاستها وشعورها بالنّدم وتبكيت الضّمير فيما لو ضبطته يفعل ذلك...

جاءت تلك اللّيلة ، بعد أسبوعين مريرين من حفل الزّفاف، حين لم يكن يتوقّع ذلك، وقد وطّن نفسه على التّأسّي

والنّسيان، مسلّما أمره لقدر رحيم، أو مصادفة بإمكانها أن تخترق قساوة الواقع إلى عالم الخوارق والمعجزات؛ لقد حدث كلّ شيء بشكل فجائيّ، ودون تخطيط مسبق منه، إلى درجة أنّه قال في نفسه، وهو يشعر بامتلاء لم يشعر بمثله قطّ طيلة حياته: «لو كنت أعلم، منذ البداية، أنّ ابتعادي عنها، هو الطّريق الّذي سيقرّبني منها، لكنت فعلت ذلك منذ اللّيلة الأولى!!»

كان الطّقس باردا جدّا، في ذلك اليوم، وقد نزلت الأمطار بغزارة غير معهودة خلال فترة ما بعد الظّهر، وعند رجوعه إلى البيت، بعد أن أنهى عمله في السّادسة مساء، وقضى ساعتين مع بعض زملائه المقرّبين في المقهى، كان متعبا مهدود الحيل، لا شيء أحبّ إليه من وضع رأسه على مخدّته فوق الكنبة في الصّالون كي يستغرق في نوم عميق، حتّى لو بذل في سبيل ذلك أعزّ سنوات عمره، الّتي لم يكتب له أن يعيشها بشكل جيّد في الحقيقة... لقد اعتاد على النّوم في الصّالون، وألف لذلك برودة الكنبة، لدرجة أنّ ملامح غرفة النّوم قد بدأت تتلاشى من ذاكرته، لأنّه حين يدخل إليها لقضاء بعض شؤونه، يكون المكان غارقا في الظّلمة والإعتام. بلى، كان يحنّ إليها، يشتاقها، يودّ لو يجتني لذائذ وردتها الحمراء، لكنّ حرصه على عدم استثارتها، وشفقته عليها، كانا أكبر بكثير من رثائه لنفسه... وجد عشاءه، في المطبخ، مهيّأ ومغطّى، فألقى عليه نظرة تائهة، محايدة، بعثت في نفسه تقزّزا طارئا لا يدري مصدره... تراجع القهقرى، بخطى خفيفة، صامتة، وصعد درجات السّلّم في

بطء شديد كي لا يحدث جلبة، قد توقظها من نومها... فتح الباب... أدار مقبضه بحذر متناه، ودلف إلى الدّاخل بخفّة مدرّب على القفز... تناول المخدّة من فوق السّرير... خيّل إليه أنّها كانت نائمة، فتنفّسها كان منتظما... خطا نحو الصّوان، تناول البطّانيّة كالمعتاد، وفيما كان يهمّ بالخروج، جاءه صوتها حزينا، حنونا، دافئا:

.تعال.

توقّف، متسمّرا في مكانه. لم يكن الخوف ما اعتراه آنذاك، بل شعور بالمباغتة كان عصيّا على الفهم... ظلّ للحظة مشوّشا، شاردا، لا يعرف تحديدا ما يجب عليه فعله إزاء هذا الصّوت الآسر رغم توحّده واستيحاشه... ردّد في لهوجة. وهو يريد أن يطمئن نفسه، أكثر من رغبته في اتّخاذ قرار نهائيّ: «أتقدّم... لا أتقدّم... أتقدّم... لا...» صوت في أعماقه الموحلة كان يدعوه أن يتقدّم... فجأة، قرّر أيه على المجازفة. قال: «إمّا الآن، أو أبدا!!!» في عجلته الّتي كانت تخفي اضطرابه، في سرعته الّتي كانت تنطوي على جوع كافر إليها، سقطت من يديه المخدّة والبطّانيّة، وما عتم أن ألفى نفسه على السّرير بجانبها... انطلقت يدها تبحث عن يده، لمّا أحسّت بوجوده قربها، وفيما هو يرفع راحة كفّه ليمسك بكفّها، وقعت مصادفة على خدّها، فسرت فيها حرارة الدّموع... كانت غزيرة، كثيفة، ومتخثّرة... مال نحوها، وبكلتا يديه، احتضن رأسها... قرّب رأسه منها فلفحته سخونة أنفاسها... اقترب منها أكثر، احتضنها... كان وجهها قريبا منه هذه المرّة... أخرج لسانه المستكشف... تذوّق

ملوحة دموعها... رسم دوائر وحلقات صغيرة على امتداد خدّيها... لحس أنفها الأقنى... رحل عبر زوايا شفتيها... قبّل عينيها وجبينها... ولج لسانه داخل أذنها... مرّر على شحمتها بإغراء... شعرت بدفء لمساته... لطت بجانبه ككلب صغير... التحمت به... انطلقت أناملها الطّويلة المضطربة، في الظّلمة، تبحث عن ياقة قميصه... فكّت أزراره بكلّ رعونة، وهي تكاد تقتلعها اقتلاعا... دسّت رأسها في غابة الشّعر الكثيفة، وهي تستنشق رائحة رجولته النّافرة المتوحّشة... تخلّلت شعره بأناملها... انبعثت من داخلها آهات قصيرة شبه مكتومة... وبينما كانت كفّها النّديّة الخائفة تنزل إلى مستوى إليته، قبّل هو جيدها بقبلات سريعة خاطفة، وأزاح غلالتها القصيرة عن كتفيها الشّفيفين... لحسن الحظّ، لم تكن تضع حمّالتي نهود، رمى برأسه، دفعة واحدة، بين نهديها النّاهضين، امتصّ نسغها، وهو يكتنف حلمتيها بشفتيه... تأوّهت... شيء ما طقّ في عمودها الفقريّ... نزلت يدها دون إرادة منها إلى هناك... بحثت عن ذلك الشّيء بين فخذيه... كان مستوفزا مستثارا، بلا شكل محدّد... دعكته بكفّيها... هالها حجمه... تمدّدت على ظهرها فوق السّرير، حرّكت وسطها، أمالته إلى اليمين، ثمّ إلى الشّمال، قالت:

.الآن، أرجوك.

تماسّ الجسدان، التحما، كانت ممالك الشّوق واللّذة، القابعة وراء حدود اللاّوعي، تتخايل وراء أفق سرابيّ، رأت نفسها، هي وهو، وحيدين، عاريين، قاب قوسين أو أدنى

من ذروة الألم... رأى نفسه، هو وهي، فرسا ومهرة، يجريان، يتحاذيان، كأنّهما قطبا مغناطيس، لا يكتمل وجود أحدهما إلاّ بوجود الآخر.

وهما على شفا هاوية الانمحاق، مكدودان، مرهقان، احتضنت رأسه، وشدّت بكلّ قوّة على جمّته... صرخت، وهي غارقة في نوبة حادّة من البكاء:

- مظفّر... حبيبي، حطّم عظامي، أحرقني وانثر رماد جسدي في ممالك التّيه والضّياع!!

أراد أن يتراجع، بكى داخله من القهر، ولكنّها لم تدع له فرصة للهروب، صاحت به متوسّلة متضرّعة:

- الآن، أرجوك...

لا مفرّ... ها هي ذي الهاوية أمامه، ولا مفرّ له من الانزلاق فيها! ها هي الحقيقة تتجلّى أمامه عارية، ولا قدرة له على مواجهتها! سيكون عليه منذ الآن، وإلى النّهاية، أن يخضع لمنطق الاستعاضة... أن يكون الوجه الآخر لـ «مظفّر»، بل سيكون عليه أن يكون «مظفّرا» آخر، تحبّه في صورة القديم، الّذي لا تخجل من استحضاره حتّى وهو فوقها، بفحولته المهدورة، ورجولته الّتي تسقط أخيرا منكّسة الرّايات... إنّها لا تحبّه، ولكنّها تشفق عليه!! إنّها تمنحه نفسها لتريحها من الألم وتبكيت الضّمير!! لكن ما حيلته هو؟ إنّه أحبّها، ويحبّها، وسيحبّها، حتّى ولو لفظته كما تلفظ الثّمرة النّواة!!

كان فوقها، مرهقا من التّعب، وقد أحسّ بهمود جسدها، الّذي كان منذ قليل يتقلّى على جمر اللّذة والشّوق. لم ير

وجهها، فقد كان الظّلام كثيفا في الدّاخل، غير أنّه رأى بعيني قلبه بدايات تشنّجات قاسية على زوايا عينيها المغمضتين، وتقلّص شفتيها الرّقيقتين الشّاحبتين، وذهاب رواء خدّيها الموّردين اللّذين كانا يلتهبان تحت سياط لسانه اللاّهبة؛ ورغم أنّها كانت صامتة، متواربة في محيط سكونها، فقد لمس احتجابها على ثقل جسده فوقها في تململ وسطها، وسعيها إلى تخليص ذراعيها المتشابكين تحت غابة الشّعر الممتدّة على مساحة صدره الرّحب... تحامل على نفسه، وانطرح بكلّ هدوء إلى جانبها على السّرير، في الجهة المقابلة، وقد عقد أصابع يديه تحت رأسه. وصله صوتها، من الضّفّة الأخرى، مترجرجا زئبقيّا، منطمس الملامح والمعالم:

.اذهب الآن من فضلك.

في قرارة نفسه، كان يشعر أنّها ستقول له ذلك... كان يحسّ إحساسا غامضا أنّ هذه هي النّتيجة المتوقّعة للقاء لم يكن الحبّ دافعه، بل الشّفقة والغضب والرّثاء... لبس ثيابه على عجل، والتقط المخدة والبطّانيّة من الأرض، ثمّ خرج من الباب الّذي تركه مواربا... عندما اطمأنّت إلى مغادرته الغرفة، فتحت عينيها، فلم تطالعها غير أطياف العتمة الّتي كان يصوّرها لها عقلها الباطن في ألوان وأحجام مختلفة... سحبت نفسها، في تثاقل، من تحت اللّحاف، اعتمدت بيدها على مسند السّرير، وقد بدأت تعي ، في تلك اللّحظة الشّائهة، أنّ كثافة نفسها قد فاضت لتمتزج بكثافة الغرفة، دون أيّ أمل في ولادة مرتقبة... إحساسها المفاجئ بأنّ أحدا ما يرنو إليها

في الظّلمة جعلها تتفطّن إلى عريها، فجذبت اللّحاف، قلقة، وشدّته حولها، وهي تعقده في مستوى منبت نهديها... نهضت أخيرا، فمضت نحو الباب... أدارت المفتاح في القفل دورتين، وأضاءت النّور... انبهرت عيناها، فأغمضتهما لاإراديّا، ثمّ طفقت تفتحهما شيئا فشيئا حتّى استأنستا به في النّهاية... قادتها خطواتها المتعثّرة الحائرة إلى الصّوان، فشدّتها صورتها في المرآة... لم تشعر أنّها غريبة عن نفسها، كما كانت في تلك اللّحظة... الصّورة صورتها، ما في ذلك شكّ، ولكنّ تلك النّظرة التّائهة في عينيها هي لأخرى غيرها، والاضطراب المتقلّص في وجهها، ورقّة الجفن اللاّإراديّة، والخوف الّذي يكتنفها في هالة معربدة من رأسها إلى أخمص قدميها... الشّيء الوحيد المتبقّي لها من سيماء صورتها القديمة . جمالها، ذلك اللّيلك المتهدّل المنساب على كتفيها وقذالها، والّذي نفرت بعض خصلاته، لتطوّق تفّاحتي صدرها الرّابيتين... لم يكن ذلك الاكتشاف ليسعدها، ولا لمسحة الجمال تلك أن تجعلها تصالح نفسها من جديد، بل على العكس من ذلك، فقد انتابتها موجة غضب طاغية، وتملّكتها ثورة متأجّجة على نفسها، على العالم من حولها، على حظّها السّيّئ... كان لا بدّ أن تفعل شيئا ما... أن تردّ فعلا، من أيّ نوع، لتكسر حدّة الغضب، لتحطّم ثورتها على صخرة كبريائها الجريح الّذي استكان لخنوع الاستسلام، وغرورها الّذي تبخّر، دون سابق إنذار، في أتون هواء كثيف متعفّن... خطت، بتصميم، نحو طاولة زينتها، أخذت مقصّا، عادت إلى موقفها الأوّل

أمام المرآة. نظرت إلى صورتها ثانية، عساها تلتقط أيّ تعبير، ولو كان يسيرا، من شأنه أن يكون مبرّرا يجعلها تتراجع عمّا انتوت القيام به؛ ولكنّ الصّورة . صورتها . جامدة، قاسية، نائية، تعكس أقصى ما في أعماقها . هي . من لامبالاة وحياد. قالت بحدّة تحدّث نفسها: «اللّعنة! إنّها النّهاية؛ لكن لا مفرّ من خوضها... إنّه الموت الّذي لا بدّ من تذوّق طعمه ومعاشرة رائحته!!»... حفنت ذلك اللّيلك المتهدّل على كتفيها وقذالها وكومتيها الرّابيتين... تأمّلته للحظة بعينيها الذّاهلتين... شدّته بعنف بيدها اليسرى، وباليمنى قصّت جديلته الطّويلة الّتي تشبه ذيل حصان... قصّتها كلّها... بترتها من أصلها... رمت بالمقصّ جانبا، فتحت الصّوان، فانتبهت إلى منظر الطّرحة وثوب الزّفاف اللّذين كانت وضعتهما هناك منذ أسابيع... تناولت طرحتها، ولفّتها حول جديلتها، ثمّ عقدتها بإحكام، وأعادتها إلى موضعها الأوّل.

قالت:

. سأحرق كلّ شيء!

ثمّ تناولت منديلا من الصّوان لفت به رأسها.

قلت، وأنا أدرك أنّها لن تسمعني:

. لا تفعلي.

قالت:

. سأحرق كلّ شيء، ثمّ أحترق بعد ذلك!

قلت، وقلبي يكاد يتمزّق ألما وحسرة:

. لا تفعلي... لا تفعلي.

ولكن هيهات...!!

تراجعت إلى السّرير، فجلست على حافّته، بعد أن أزاحت عنها اللّحاف ولبست ثيابها. لم تكن تشعر بالنّدم، على ما فعلت، بل إنّها لم تشعر حتّى بالألم أو تبكيت الضّمير اللّذين كانا، في أوقات أخرى، يدفعانها إلى حافّة الغضب والجنون. فما الّذي يحدث لها الآن؟ هل اختفت تلك الأنثى الّتي كانتها من قبل؟ لقد فقدت الإحساس بكلّ ما حولها، وصار «كلّ شيء» الّذي كان من قبل يعني لها كلّ شيء «لاشيئا» الآن!! انهار كبرياؤها تماما... بحثت عنه في أعماقها، حيث كانت تحتفظ به شعورا جبّارا متسلّطا، فلم تجده... تتبّعت خطى غرورها في نظرتها الشّاردة، وفي تقاطيع أنفها الأقنى الأشمّ، فلم تطفر بغير السّراب... تلاشى تسلّطها أيضا، وغدت ذاكرتها الّتي عهدتها قويّة لا تفلّ مجرّد خلاء، بلقع لا أثر فيه لولادة وشيكة أو بقايا حياة، حتّى ولو كانت واهية!!... في الوقت الّذي فقدت فيه إحساسها الذّاتيّ بالحياة، وشعورها النّابض بلذّة المجازفة إلى ولوج مجهول يضوع برائحة الأحاجي والأسرار، كانت جيوش العتمة تنحسر أمام غزو خيوط الضّياء الرّقيقة الّتي كانت تتدفّق عبر شقوق وكوى غير منظورة... تراءت لها الأشياء في الغرفة بوضوح من يضفي من تشوّش مشاعر ذاته على عناصر المكان الّذي يكون فيه: الصّوان يتحوّل إلى خيال لعملاق حزين تائه يميل ذات اليمين وذات الشّمال، دون رغبة واضحة في إخافتها أو السّخرية منها، الكومودينو يستبدل بقوائمه الخشبيّة سيقانا رشيقة، وينخرط في

رقص عربيد مجنون، طاولة زينتها تسري بين ثناياها النّيران، لتصبح في النّهاية ركاما من الرّماد تحلّق فوقه أسراب هاربة من الدّخان... الغرفة نفسها، تتحرّر من قيد أساساتها، وتطير بعيدا غير عابئة بسرب السّنونوات الصّغيرة الّتي كانت تفرّ من أمامها فزعة مرعوبة. ما الّذي حلّ بكونها الصّغير؟ أين يسير كلّ شيء هكذا؟ إلى الفناء؟ إلى العدم؟ هي لا يهمّها كلّ ذلك، ولا تعني لها هذه الأسئلة الكثيرة شيئا محدّدا يحمل معنى واضحا، أو مضمونا صريحا!!

تحاملت على نفسها... استندت بكفّيها إلى حافّة السّرير، ووقفت ثمّ اتّجهت نحو مصدر الضّوء. تريّثت أمام النّافذة قليلا قبل فتحها، أزاحت السّتارة وعالجت الإطارين الزّجاجيّين، وأخيرا دفعت بيد واحدة المصراع الخشبيّ، فانفتح، واصطدمت ضلفتاه بواجهة الحيطان الخارجيّة... كانت الشّمس ما تزال متوارية وراء سلسلة الجبال الهرمة فيما وراء خطّ الأفق، وما يظهر منها مجرّد طابة حمراء قانية اللّون، قد امتزجت حمرتها الدّامية برماديّة بعض السّحابات الجفلى الّتي كانت تخترقها، من حين لآخر، في يسر ولين... لكم كان هذا المنظر يستبيها، يستهويها إلى حدّ الفتنة والانسحاق! لكم كان مجرّد رؤيتها للقرص الشّفقيّ يختزل داخلها كلّ فرحة الطّفولة الرّاحلة، حين كانت تستفيق في الصّباح المبكر، على نباح الكلاب، في الحيّ، وهي تبكي، فتهدهدها والدتها على السّرير، لتنيمها من جديد، وتنام وآخر ما ارتسم في خيالها منظر الشّفق وهو يتراقص أمام عينيها الذّكيّتين العسليّتين،

من خلال النّافذة ا لمفتوحة! هي قالت لي ذلك، وسمعت شيئا مشابها من والدتها الّتي كانت تحرص حرصا كبيرا أن تسرد لي أحداثا من صدى طفولة ابنتها البعيدة، لأنّها لا تجد في وتيرة حياتها الرّتيبة ما يستحقّ الذّكر، لسبب بسيط جدّا، وهي أنّها لا تعرف شيئا عن ثراء تجربتها، وإلغاز أسرارها خارج البيت... وقتئذ، وهي أمام النّافذة، في ساعات الصّباح المبكرة، تنظر من خلال غشاوة أمام عينيها، تعكس قتامة أشياء لا وجود لها في الواقع، فترتدّ إلى ظلمة أعماقها، لم تكن تستشعر تلك الفرحة الآفلة الّتي تعود سنين إلى الوراء، إلى زمن طفولة بريئة، تتجدّد كلّ يوم في وشي جديد، وإنّما كانت تحيط بها أطياف عطالة محايدة... لا تشعر بشيء... لا تفكّر في شيء... كانت مجرّد حضور موغل في الغياب، تنظر ولا ترى، وتسمع زقزقات العصافير على أغصان الأشجار المنتشرة في أرجاء الحديقة الخلفيّة، فلا تعي... كان زوجها يغطّ في نوم عميق، عندما نزلت درجات السّلّم، تحمل الكيس الّذي وضعت فيه طرحتها المعقودة على جديلة شعرها وثوب زفافها... لم تنظر إليه، ولم يبد عليها أنّها تشعر بوجوده، وكأنّما هو ليس ذلك الشّخص الّذي جنى بمقطف فحولته تويجات وردتها الحمراء المتضامّة في ظلمة اللّيل الشّاردة... دلفت من باب البيت الدّاخليّ إلى الباحة الخارجيّة، ثمّ اتّجهت يمينا، واستدارت بعد ذلك حيث استقبلتها طراوة الحديقة الغافية، الّتي ما تزال مخدّرة، تحت تأثير ألق الصّباح النّديّ... سارت باتّجاه شجرة عملاقة معمّرة، قد شقّت جذورها الكبيرة باطن

الأرض، و امتدّت إلى الأمام في وثوق وتحدّ... وضعت الكيس على الأرض... نظرت إليه مليّا... فكّرت أن تحفر له حفرة عميقة تحت، ثمّ تردمه... لم ترق لها الفكرة...

تنفّست الصّعداء، قلت، ولم أستطع إخفاء آهة، ندّت عنّي فجأة:

.إنّها تتراجع، وهذا حسن.

ولكنّها لم تكن لتتراجع بتلك السّهولة، وقد بلغت ذروة اللّحظة الحاسمة... طفت على سطح ذاكرتها فكرة جديدة، فعلت شفتيها بدايات ابتسامة قصيّة، موغلة في البعد، قالت:

.سأحرقه.

قلت، وأنا أدرك أكثر من ذي قبل أنّها سوف لن تسمعني أبدا:

.أرجوك، لا تفعلي... لا تفعلي.

رجعت إلى المطبخ فأحضرت أعواد ثقاب وإناء فيه بعض البنزين... صبّت البنزين على الكيس، وأشعلت عود ثقاب رمته فوقه، وهي تنظر إلى ألسنة اللّهب الّتي سرعان ما أتت على كلّ شيء: الطّرحة، الجديلة، وثوب الزّفاف... عندما خمدت النّار أخيرا، وتحوّلت تلك الأشياء الّتي كانت تنتمي إليها إلى رماد، قالت في استهانة، وهي ترتدّ على عقبيها:

.الآن، انتهى كلّ شيء.

غزت أنفها رائحة الحريق، فالتفتت وراءها بدافع فطريّ. كانت قد ابتعدت كثيرا عن مصدر النّار، ولا أثر للدّخان في

الهواء.فمن أين تأتيها هذه الرّائحة إذن، سيّما إذا كانت النّار الّتي أثارتها قد خبت، ولا يمكنها أن تصدر كلّ تلك الرّائحة الكريهة النّفّاذة؟!... عند الباب، وهي تهمّ بالدّخول، ولا تكاد تميّز موطئ قدميها من الانفعال، ذكرت حكاية روتها لها والدتها، منذ سنين عديدة، عن جدّها، وهو على سرير الموت، في النّزع الأخير من حياته. قالت لها آنذاك، وهي تجهد أن تسيطر على تأثّرها كي يبدو حديثها طبيعيّا خاليا من أيّ تزيّد أو مبالغة: «لقد اكتشفت أنّ جدّك . رحمه الله . كان يموت حتّى من قبل أن يلفظ نفسه الأخير على سرير الموت. في الصّباح .وهو الوقت الوحيد من النّهار الّذي تسمح لنا والدتنا فيه بعيادته كي لا ينقل إلينا عدوى مرضه، كما كانت تقول.كنت أنظر إليه باستغراب، فيشير إليّ أن أقترب منه، وحين أدنو منه يحتضنني بين ذراعيه، ويقبّل خدّي. حينئذ، كنت أشتمّ في نفسه رائحة غريبة جدّا... لقد كانت مزيجا من رائحة الحريق والرّماد، يعبق بها فمه، وتضوع بها ثيابه جميعها، ثمّ تنتشر في فضاء الغرفة، فتحيلها إلى مقبرة لروائح الموت والفناء.» كانت والدتها تصمت أحيانا، ريثما تلتقط أنفاسها المبعثرة، ثمّ تواصل جاهدة أن تستحضر المشهد كما كانت عاشته في حينه: «لقد كنت صغيرة آنذاك؛ لكنّي مازلت أذكر ذلك المشهد جيّدا... والدي الّذي كنت أسأله، حين أشتمّ تلك الرّائحة، هل يشمّها هو أيضا، كان يبتسم في وجهي ابتسامة عذبة، ويجيبني بهدوء من يدرك وشوك نهايته، فلا تخيفه: «إنّي أموت من الدّاخل، يا ابنتي؛ لذلك ترين الحريق يندلع في أعماقي، فيصدر دخانا،

وتنطفئ النّار ليكون الدّخان أخيرا»... جدّها الّذي لم تعرفه إلاّ من خلال تلك الصّورة القديمة المبروزة، والمعلّقة بعناية، على أحد الجدران، في المنزل العائليّ، مات منذ سنوات طويلة؛ وقصّة موته هذه لم تسمعها من أحد آخر سوى والدتها، لذلك ظلّت تسمعها مرّات كثيرة، وهي بين مصدّقة ومكذّبة، وقد اعتبرتها في أحيان كثيرة دليلا إضافيّا على سعة خيال والدتها. أمّا الآن، فتجد نفسها مربكة، حائرة، لا خيار آخر أمامها سوى أن تعيد النّظر في تلك الحكاية من جديد. تساءلت، بينها وبين نفسها: «لنفرض أنّ ما روته والدتي صحيح، وذلك ممكن على كلّ حال، فهل تعاد تلك القصّة وتتكرّر معي؟ وهل يمكن أن يعزى الأمر إلى عامل وراثيّ مجهول؟ ثمّ لماذا أنا بالذّات؟!!»... كانت الرّائحة الكريهة العابقة بالحريق والرّماد تنتشر شيئا فشيئا، فتسطع أنفها بقوّة، وتطالعها في كلّ مكان، محاصرة إيّاها بلا فكاك... لقد كانت قريبة منها جدّا، إلى حدّ أنّها كانت تنبعث من تحت منديلها الّذي لفّت به شعرها الّذي قامت بجزّه دون رحمة، ومن فمها، ومن بين أناملها، وكلّ ثيابها، كأنّها لعنة حلّت فجأة، لتطحنها بين رحى فكّيها الحادّين... كبرياؤها وغرورها اللّذان كانا قد تلاشيا في ساعات الصّباح الأولى، مرّة وإلى الأبد، حلّ محلّهما، بغتة، وعلى غير انتظار، خوف رهيب وخشية بلا حدود، لا توصف؛ ولكن، رغم ذلك، فقد بقيت لديها بقيّة من وعي جعلتها تفكّر، ولأوّل مرّة منذ بزوغ فجر مأساتها، بشكل سليم، وكان أوّل ما فكّرت فيه أن تغتسل فورا، ودون تأخير، في محاولة مميتة لإزالة هذه

الرّائحة الطّاغية... في الحمّام، نزعت ملابسها كيفما اتّفق، واغتسلت، غاصّة بأنفاسها الحارّة المتراكبة. شعرت ببعض الطّمأنينة والدّفء، وهي تلبس ثيابها من جديد، ثمّ نظرت إلى نفسها في المرآة، كخطوة أخيرة، لترى ذلك الدّفء وتلك الطّمأنينة اللّذين استشعرتهما منذ قليل مرتسمين بشكل ملموس على صفحة وجهها... ذهبت إلى المطبخ، لتعدّ لنفسها فنجانا من القهوة: وضعت الماء فوق النّار، ثمّ أضافت إليه قليلا من البنّ والسّكّر. وفي غضون لحظات، كانت القهوة جاهزة... صبّت قليلا منها في فنجان صغير، وفيما هي تقرّبه من شفتيها لترشف أولى حسواتها، طالعتها رائحة الرّماد والحريق مرّة ثانية... كانت الرّائحة لا تحتمل، وقد ضاع بها فمها، ومنديل شعرها وأناملها وكلّ ثيابها كما في أوّل مرّة... مفزوعة من الخوف، هلعة لأثر المباغتة، رمت الفنجان بكلّ عنف، فارتطم بالحائط، محدثا قعقعة ذات جلبة، وهو يتحطّم... صرخت صرخة حادّة، فجاء زوجها الّذي كان نائما في الصّالون، واستفاق على صوت صياحها، مهرولا. سألها في إشفاق، وقد أرعبه منظروجهها المخطوف:

.ما الّذي حدث؟

قالت، وهي تهمّ بمغادرة المطبخ مسرعة:

.لا شيء.

في طريقها، وهي تقطع بهو الصّالون، رأت فوق منضدة صغيرة ذات قاعدة رخاميّة علبة سجائر زوجها وولاّعته، فالتقطتهما، دون أن يكون في ذهنها أدنى فكرة عمّا يمكن أن

تفعله بهما... حتّى ذلك الحين، لم تكن قد دخّنت، ولو سيجارة واحدة؛ وكانت السّجائر، بشكل أو بآخر، تبعث في نفسها شعورا بالتقزّز لا تدري مصدره تحديدا... دلفت إلى الحمّام، فأوصدت بابه بالمفتاح، وتناولت من علبة السّجائر سيجارة أشعلتها... تريّثت قليلا، قبل أن تضعها بين شفتيها... قرّبتها رويدا رويدا، وكانت كلّما قرّبتها، بدأت رائحة الحريق والرّماد تتلاشى لتتماهى بين ثنايا رائحة أخرى أقوى وأشهى... لم يعد لديها شكّ في تلك الرّائحة، إنّها رائحة السّجائر... أخذت نفسا عميقا من سيجارتها... أصابتها فجأة نوبة من السّعال، ودمعت عيناها، ثمّ شيئا فشيئا، بدأت تعتاد الرّائحة والنّسغ الجديدين. قالت لنفسها: «هي على الأقلّ أخفّ وطأة من رائحة الحريق الكريهة.» وجذبت أنفاسا متسارعة أخرى، حتّى لم يبق من السّيجارة إلاّ عقبها... تناولت سيجارة أخرى وأشعلتها من عقب الأولى... دخّنت للمرّة الثّانية... دخّنت بشهيّة... دخّنت بشغف حدّ الذّوبان والفناء.

قالت:

. سأحرق رائحة الحريق برائحة الدّخان، مرّة وإلى الأبد.

قلت، وأنا أكثريقينا من ذي قبل بأنّها لن تسمعني:

. أرجوك، لا تفعلي... لا تفعلي.

أنا لا غرماء لي... زوجها ليس غريمي، هذا المسكين الّذي نأت به الأبعاد والمسافات، واكتهل قبل الأوان متعثّرا بخطاه في متاهة السّنين الّتي فرّخت بداخله صديدا، وأينعت شجرا زقّوما. إنّي لا أحسّ حياله بغيرة، ولا أشعر كلّما رأيته أنّ هذا

الرّجل المتعب المترهّل يمكن أن يكون عدوّا لي، في يوم من الأيّام، بشعره الّذي تساقط، وغزا الشّيب البعض المتبقّي منه، وعينيه الذّابلتين المنطفئتين، ويديه النّحيلتين اللّتين أصبحتا ترجفان، دونما سبب ظاهر... إنّي لأرثي له أكثر ممّا أرثي لنفسي، لأنّ مأساته قد فاقت فاجعتي بكثير، هو الّذي كان يخرج من معارك الحبّ القصيرة القليلة مهزوما، في كلّ مرّة، منكّس الرّأس والسّلاح معا، لا تبدو عليه أمارات الغضب أو العدوانيّة، بل يكتنفه رضى وتسليم خرافيّان... لقد كان يحبّها، هذا صحيح. وكان أيضا على استعداد لأن يفعل من أجلها كلّ شيء. لو قالت له: هذا البحر دونك، فارم نفسك فيه، لأنّه يسعدني أن أراك تغرق، لما تأخّر لحظة واحدة!! لو أشارت إلى أتّون نار موقدة، لقذف بنفسه فيه فورا!! الشّيء الوحيد الّذي لن يقدّمه إليها، حتّى لو طلبت هي منه ذلك، رغم أنّه يعلم ما سيكلّفه ذلك من جهد ومشقّة، هو الطّلاق... سيكون مستعدّا للموت قبل أن يلفظ تلك الكلمة البغيضة، سيقدم على الانتحار رضيّ البال هادئ النّفس، ولن تتفوّه شفتاه بتلك الكلمة الّتي ستحكم عليه بالوبال والقطيعة... في أحيان نادرة، كان يفاجئه صوت مشاكس ينبع من داخله، فيلحّ عليه في لجاجة، حتّى ليكاد يختنق به: «أيّ حبّ تنشد؟ بئس الحبّ الّذي تطلب من امرأة لم تعرف الحبّ! وحتّى لو أحبّت، فإنّ الرّجل الّذي أحبّته، هو قطعا رجل آخر غيرك!! ألم تسمعها تتفوّه باسمه، حتّى وأنتما في ذروة الألم والنّشوة، حين تكون فوقها، تلفظ اسمه دون خجل، كأنّها تستعيض بذكر اسمه

حتّى تكون قادرة على المضاجعة، وإنّها لأحطّ أنواع المضاجعة لو تعلم، سيّما حين تدرك أنّك رجل غير مرغوب!! ثمّ ألا تراها تومئ إليك، كأنّما تومئ إلى عبد من عبيدها، لا إلى زوجها، قاذفة في وجهك تلك الكلمة المبتورة الآمرة الفاسدة: «تعال.» أجبني، بكلّ صراحة، ودون خجل: «كم مرّة ضاجعتها؟ كم مرّة سمحت لك هي بذلك؟» أجل، إنّها هي، ولست أنت، من يقوم بالمبادرة في كلّ مرّة. قل لي: «كم مرّة ضاجعتها؟ مرّة، مرّتين، ثلاث مرّات. أيّ ذلّ هذا! أيّة مذلّة! طلّقها لتريحها وتريح نفسك.» ولكنّه يتجاهل هذا الصّوت، يقوم بإخماده في اللّحظة المناسبة، حتّى لا يتضخّم، وتجرفه قوّة التّيّار... هو راض بذلك، بذلّه ومهانته معا؛ وحتّى في قمّة شعوره بالضّآلة والقهر، سوف لن يجرؤ على التّفكير في طلاقها، لأنّه لا يمكن أن يتخيّل حبّها إلاّ هرما صغيرا تقيم صرحه مشاعر التّناقض والتّطرّف لبنة لبنة... كان حبّه لها يترعرع في صمت، دون كلام كثير؛ يرقبها من بعيد، يتأمّلها، مترصّدا أيّة حركة من حركاتها، يلبّي رغباتها الّتي كانت تفصح عنها إيماءاتها وإشاراتها الخفيّة، يفعل أِشياء أخرى كثيرة لأجلها، دون أن تطلب هي منه ذلك... جلب خادمة إلى المنزل، دون أن يستشيرها في ذلك، حتّى لا يجرح مشاعرها ويثير فيها أحاسيسها القديمة بالألم وتبكيت الضّمير، حين لاحظ إهمالها المباغت لشؤون البيت وشؤونه هو بالذّات. وقد همّ بسؤالها غير مرّة، لكنّه كان يتراجع دائما ليلقي باللاّئمة على نفسه... أجل، هو المذنب، هو المقارف لكلّ أنواع الخطايا، وهي بريئة براءة الذّئب من دم يوسف... لكنّ

ذلك لم يمنعه من مراقبتها، في أغلب الأحيان، وذلك بدافع من حمايتها والخوف عليها. إذ ذاك كشف سرّ إهمالها، عرف سبب انطوائها ، ولياذها بالهروب إلى الزّوايا الحالكة القصيّة من البيت... كانت لا تلمس آنية من آنية المطبخ إلاّ تحطّمت بين يديها، ولا تهيّئ له طعاما إلاّ ضاع برائحة الحريق والرّماد، وأفرز دويبات ذات ألوان خضراء مقرفة، ولا تغسل ثيابه إلاّ تمزّقت واهترأت على حبل الغسيل، ثمّ أتت عليها العثّة أخيرا... كانت لا تنظر إلى الحيطان في ضوء النّهار إلاّ تقشّر طلاؤها، وإلى نجفات السّقف إلاّ اضطربت وأحدثت صخبا، ثمّ سقطت على الأرض لتتحطّم جميعها. وكان أسوأ ما تفطّن إليه، وكانت هي وراء حدوثه طبعا، طالع النّحس الّذي سيلازمها إلى آخر رمق في حياتها... تختفي أموال كثيرة إذا اتّفق أن لمستها أو رأتها، يتضاءل الطّحين في المطبخ، مهما كانت كمّياته، إذا أخذت منه شيئا لإعداد الطّعام... قام . هو زوجها . بتجهيز المطبخ مرّتين، وبكلّ سرور وتسامح، حين لاحظ خلوّه من آنية الطّعام والمؤونة، وفي النّهاية لم يستطع أن يخفي إحساسا بالارتياح عندما اختارت، بمحض إرادتها، أن تلوذ بصمتها في أحد أركان البيت المنسيّة.

ظلّ هاجسه الّذي لم يقدر على نسيانه أو تناسيه جوعه إليها...

كان يقمع أصوات رجولته الفائرة، ويدوس على شموخ فحولته وكبريائه ليقنع نفسه أنّه راض منها بتلك الخلوات اللّيليّة العابرة، حين تومئ إليه أن «تعال». حينئذ، كان يلبّي

نداءها، ودون تأخير، يهرع إليها ليضاجع فيها امرأة أخرى تسلم . في اللّحظة الحاسمة . نفسها لحرارة رجل آخر. «ولكن، لا يهمّ»، كان يقول في نفسه، بصوت هادئ فيه الكثير من المصالحة، ثمّ يواصل: «لا يهمّ ما دامت تشعرني أنّي قريب منها، ولو في تلك اللّحظات القصيرة الرّاحلة»... حين كانت تتأخّر عليه في النّداء، ممّا يوحي بأنّها قد تجاهلته أو نسيته، فإنّه لا يحتجّ، ولا يبدو عليه ما قد يشي بإحباطه وألمه، وإنّما يسعى إلى أن يريح نفسه بنفسه: يدخل إلى الحمّام، فيوصد بابه بالمفتاح، بحذر شديد وبرودة أعصاب، لا يدعان مجالا للشّكّ أنّه بصدد قضاء حاجة بشريّة، وهناك ينبطح على البلاط، بعد أن يكون قد خلع بنطاله، يستحضر صورتها كما كان يرسمها له عقله الباطن أثناء ا لمرّات القليلة الّتي ضاجعها فيها، عارية، ناضجة، تفوح منها رائحة بشريّة مدمّرة، يضغط بكلتا يديه على موطن الألم، يبلغ ذروة الانتشاء، يضجّ السّائل المتخثّر بين فخذيه، يهمد أخيرا، مغمض العينين، ملصقا وجهه في استسلام ببرودة البلاط وطراوته... الآن، لم تعد تلك اللّقاءات العابرة الّتي تدعوه إليها، ولا حفلات «هدهدة الجرو الصّغير»، كما أصبح يطلق على خلوات الحمّام تلك، لتسكت أصوات النّواح الضّاجّة في أعماقه، ولا قادرة على إخماد ثورة جسده المفاجئة الّتي كانت تأبى أن تنطفئ بين أحضان امرأة أخرى غيرها... صار يتحدّث في نومه إلى أشخاص غير منظورين، يشكو إليهم بثّه، ثمّ أصبح الحديث عادة ملازمة، تصحبه إلى كلّ الأمكنة الّتي يرودها، سيّما في

الشّارع حيث يخلو إلى نفسه... شكا جوعه إلى تراب الأرض، وعقاب الجوّ... نذر النّذور للمجاهيل والأولياء وأصحاب الكرامات إن هي منحته نفسها زوجة وفيّة إلى الأبد... زار في حمارّة القيظ، وعتمة اللّيل، قبورا بلا شواهد قيل له إنّها لأناس خيّرين شرفاء باعوا أنفسهم لله، فأودع في أنفسهم سرّ الكلمة... زار مزارات كثيرة في أقاصي المدينة، وفي مدن أخرى، تضوع منها رائحة العود والصّندل، ويضوع في أرجائها المظلمة عبق البخور وروائح العطور... كان يجثو على ركبتيه، مستقبلا المقام، الموارب في خضرة أقمشته الشّذيّة، فيغمض عينيه، عاقدا يديه على صدره، وهو يدعو، ويهينم بكلمات مترقرقة، كانت من دونها أبواب السّماء موصدة مغلقة... في أحد الأيّام، اقترب منه رجل غريب، مازال في الحلقة الوسطى من عمره، إلاّ أنّ ملامحه الفارقة كانت شبه ممحوّة. هزّه من كتفه هزّة كانت كفيلة بأن توقظه من استغراقه المحموم في الدّعاء، وقال له بنبرة لا تحتمل المراجعة: «اتبعني.» وبعد قليل أضاف: «سأقودك إلى مكان، فيه امرأة عرّافة، قادرة على شفائك، فمهما سمعت منها . وكان الّذي تسمعه عجيبا غريبا . فلا تقاطعها، لا تسألها، وخاصّة لا تحاول أن تعترض على ما ستقوله.» ثمّ سأله: «هل فهمت؟!» مأخوذا، ما يزال تحت تأثير الدّهشة، قال بصوت ضعيف: «نعم»... وما إن دخل حتّى قالت المرأة، وهي غارقة في سواد كثيف، لا تظهر منها غير عينيها اللّتين تشعّان ببريق خاطف لا يقاوم: «جئت أخيرا... لقد انتظرتك كثيرا، غير أنّي لم أيأس من لقائك...

كنت أعرف أنّك ستأتي في يوم من الأيّام.» كان ينظر إليها مشدوها، مفتونا بغرابة المكان، مسحورا بكلام هذه المرأة الّتي لم يرها قطّ، من قبل، ويبدو أنّها تعرفه معرفة محقّقة لا شكّ فيها ولا ارتياب... طفت على شفتيه مخايل سؤال، إلاّ أنّه تذكّر الشّرط، فأحجم. كان الشّرط واضحا صريحا. لا تقاطع، لا تسأل، لا تعترض!!... أعطته المرأة صرّة صغيرة، ولفافة مدرجة في قطعة من الحرير، مخيطة بإحكام، وتنبعث منها رائحة بخور محروق. قالت له: «في هذه الصّرّة بخور... تحرقه في غرفة النّوم، وحاذر أن تراك... إذا رأتك قد ينتهي كلّ شيء، فكن في غاية الاحتراس والحذر... وهذه اللّفافة، تشقّ الحشيّة، وتدرجها بين ثناياها، ثمّ تخيط الحشيّة من جديد... ثاني يوم، تكون طيّعة، تحت أمرك، على استعداد تامّ لأن تعاطيك.» صمتت لحظة، ثمّ قالت ثانية: «الآن، الوداع، وكان الله في عونك»... مدّ يده إلى جيبه... أدركت مقصده... أومأت إليه بيدها، أن يتوقّف، ثمّ قالت له بصوت عذب غاية في الرّقّة: «قد حصلت على أجري سلفا، وأجرت على عملي من ربّ العالمين!!»

كانت امرأة عابرة في حياته، أكثر منها زوجة؛ وكانت زوجته وفق قوانين الأرض وشرائع السّماء، فغدت زوجته جسدا وقلبا وروحا، تمنحه نفسها في الفراش، بكلّ استسلام، زهرة فوّاحة تفوح بأريج الحقول والغابات الجبليّة، تعاطيه في رضى، تعاطيه هو دون غيره، تلهج باسمه في قمّة الذّوبان، تنكمش تحته كعصفور صغير مقرور يبحث عن الطّمأنينة

والدّفء، وكان هو يعرف كيف يحتضنها، يحميها، ويظلّل عليها بجناحيه... كان يعرف أنّها تدخّن بشراهة، وتفعل ذلك سرّا في الحمّام، وفي ليالي المتعة واللّذة، كان جسدها اللّدن ينضح عرقا ممزوجا برائحة الدّخان، فلا يتأفّف أو يعترض، وقد انتهى به الأمر أن يعشق تلك الرّائحة، بل تحوّلت، مع الأيّام، إلى مثير يذكي رغبته، ويساهم في تهييجه وإثارته.

ذات يوم، وقد كان وحيدا في الصّالون، في فترة ما بعد الظّهر، يستمتع بقيلولته المعتادة على الكنبة الّتي طالما شهدت قساوة إحباطاته، استفاق على حمّى نبوءة انطلق بها لسانه، في لحظة غموض كانت أقرب إلى الإلهام والتّجلّي: «أريد ولدا... أريد ولدا»؛... كان الصّوت طاغيا إلى حدّ أنّه لم يعد قادرا على مقاومته حينما حلّ المساء، فخرج من المنزل لا يلوي على شيء، وقادته قدماه، دون وعي، إلى عيادة طبيب الحيّ، كانا صديقين منذ سنوات طفولتهما الأولى... دلف من الباب إلى البهو، وأخبرته الممرّضة أن لا أحد في مكتبه، فدخل. حيّاه الطّبيب، وهو يبتسم، وأشار إلى كرسيّ شاغر، ثمّ قال له معاتبا:

.ما لك؟ صار لنا دهر لم نتقابل!!

لم يجبه فورا، ولكنّه تريّث مليّا قبل أن يقول له في إعياء:

.أنا أعرف أنّي مقصّر، ولكنّها المشاغل، لعنة الله عليها.

استعاد الطّبيب سيماء الجدّ الّتي تفرضها مهنته، وقال وهو يستعدّ لتشخيص المرض الّذي يعاني منه صديقه:

.والآن، أخبرني، بماذا تحسّ؟

قال فورا، وقد جرى الكلام على لسانه دون تفكير:

.إنّي لا أحسّ، يا صديقي، ولكنّي أريد.

سأله الطّبيب، وهو يبتسم ابتسامة كشفت عن إدراكه ما يريد أن يعلمه منه سلفا:

.وماذا تريد؟

.أريد ولدا.

سأله الطّبيب متضاحكا:

.وما الّذي يمنعك من ذلك؟

قال:

.لا أدري. فربّما يكون العيب منّي.

قال له الطّبيب:

.سنعرف ذلك إذا قمنا ببعض الفحوصات والتّحاليل.

وقاده إلى غرفة خلفيّة صغيرة، حيث قام له بالفحوصات اللاّزمة. وحينما عاد إلى المكتب من جديد، قال له:

.سيكون خيرا، إنّ شاء الله.

ثمّ، وهو يصافحه مودّعا أمام الباب:

.عد بعد أيّام لتعرف نتيجة الفحوصات.

كانت التّحاليل إيجابيّة جدّا، وقد أسعده ذلك قليلا، وأدخل إلى قلبه بعض الطّمأنينة. وقال الطّبيب، وهو يداعبه لمّا لاحظ على ملامحه بوادر سعادة طفوليّة:

.بقي عليك شيء أخير، لا بدّ من القيام به!

فسأله، وهو مدرك لما يعنيه، ولكنّه أراد أن يتأكّد:

.وما ذاك الشّيء؟

قال الطّبيب:

تقوم أنت بإحضار زوجتك إلى هنا، وأتكفّل أنا بالباقي.

هو... زوجها، يعرف أنّ إحضارها إلى العيادة أمر غير وارد لصعوبته أو شبه استحالته، ولكنّ المصادفة . والمصادفة وحدها .قد جعلت كلّ شيء ممكنا، فعلى إثر صداع شديد ألمّ برأسها، وحرمها من النّوم في سلام أيّاما عديدة، اقترح عليها الذّهاب إلى عيادة الدّكتور صديقه، فلم تمانع... في العيادة، قادها الطّبيب إلى نفس تلك الغرفة الخلفيّة الصّغيرة، وأجرى لها الفحوصات الضّروريّة، دون أن يخبرها بحقيقة نواياه. وعند انتهاء المعاينة، وصف لها بعض الأدوية المخفّفة للصّداع، وقال لصديقه الّذي تعمّد تعطيله قليلا في المكتب:

.عد إليّ بعد أيّام.

وعاد... وعندما قال له مطأطئ الرّأس، وقد ترقرق صوته من الحزن والأسف:

. يؤسفني أن أخبرك أنّ الولد الّذي أردته لن يكتب له المجيء إلى هذه الدّنيا.

قال، وهو يرنو إليه بعينيه، تائه النّظرات، محطّم النّبرات:

.هل تعني أنّ...

فقاطعه الطّبيب ليكفيه مؤونة الألم والعذاب:

.نعم، إنّ العيب منها... زوجتك عقيم، لا تلد.

لم يحزن لهذا الاكتشاف حزنا شديدا، ذلك الحزن الّذي يتمنّى معه لو تنطبق صفحة السّماء على أديم الأرض في إعصار جارف أو زلزال مدمّر، ولو يلقي بنفسه من أعلى قمّة جبل

حزيز ليتهشّم رأسه، ويتلاشى جسده المتعب رمما وأشلاء، ولو تنطفئ العيون، وتخمد الأصوات، ولو ينسحق المحتضرون في وهدة الألم، ويقوم الأموات من قبورهم ليحملوا عنه بعض عبئه وعذابه. صحيح أنّه أحسّ بوخز الحسرة، أشبه بشكّة الإبرة، في قلبه. وصحيح أنّه ودّ لو يقايض بأغلى ما يملك من أعضائه وعدا بالحصول على وريث يحمل اسمه وتركة عذابه من بعده، غير أنّه لم يحزن ذلك الحزن... في ليلة الاكتشاف المنحوسة، ودون أن يكون لديها أدنى فكرة عمّا حدث في العيادة، أسلمته نفسها بلا أحكام مسبقة أو شروط مجحفة. أحسّ بها وهي تقترب منه، فوجدها دافئة، تضوع بمخمليّة جسد ذي لفائف ومكوّرات رابية سحريّة... ضاجعها، وهو يبكي بدموع صامتة في داخله... ضاجعها بشوق ولهفة وحزن... ضاجعها كما لم يضاجعها من قبل. ومن على روابي العدم اللّذيذة، والإحساس بالذّوبان في برك الانتفاء، قال لها: «أحبّك.» فجاوب صدى صوته صدى صوتها، يتردّد من داخل أعماق كثيفة بلا قرار: «وأنا أحبّك، ولكنّي حزينة لأنّي منذورة لشخص آخر ظلمته ومات قبلنا جميعا.»

اعترافها دفعه إلى التحفّز، وسيلازمه تحفّزه إلى مرحلة متأخّرة من حياته. كان يسمعها وهي تبكي في ليالي الشّتاء الطّويلة، وتتقلّب على سريرها مرارا متظاهرة بالنّوم، وهي في الحقيقة تندب حظّها السّيّئ هامسة من بين شفتيها الحائلتين: «مظفّر... مظفّر، أين أنت؟ أين أنت، يا حبيبي؟!»... كانت تنهض في بعض اللّيالي، مسحوقة بالأرق، فتذرع أرض الغرفة

جيئة وذهابا، تفتح النّافذة، تغلقها، تفتحها من جديد، ثمّ تعيد إغلاقها، تتّجه نحو الباب، تفتحه، ثمّ تغلقه، تعود إلى السّرير، تحاول أن تنام، فلا تستطيع. تهمس من بين شفتيها، منهوكة من الإحباط والحزن: «مظفّر... مظفّر، أين أنت؟ أين أنت، يا حبيبي؟!» من مكان ما داخل الغرفة، وفي لحظة ما، في ليلة مظلمة معتمة هجرها فيها النّوم، نبع صوت مشرشر. لم يكن صوتي. يدعوها قائلا: «تعالي... تعالي، يا حبيبتي لنحلّق معا في حقول البرزخ وبساتينه.» انتبهت من بين غشاوة الأرق الّتي كانت تلفّها، واضطربت في السّرير قليلا، متّجهة بكلتا أذنيها إلى مصدر الصّوت... اعتدلت في جلستها... قامت من السّرير، رافلة في غلالة نومها الخمريّة القصيرة... قلت، وأنا على يقين أنّها لم تعد قادرة على سماعي إلى الأبد: «أرجوك، لا تفعلي... لا تفعلي.» سمعني الصّوت اللّعين، فاعتقد أنّها تسمعني، لذلك قال مناديا إيّاها بصوت أكثر إغراء: «تعالي... تعالي، يا حبيبتي، لنذهب من هنا، مرّة وإلى الأبد!!»... استفاق زوجها على صوت جلبتها في الدّاخل... حدّد موقعها بدقّة... كانت خطاها تتّجه نحو النّافذة... سمع صريرا، وصدى خبط مصاريع على حيطان المنزل، ثمّ تناهى إلى مسمعه ثقل جسد آدميّ يرتطم بأرض الحديقة الخلفيّة. قال، وقد خانه صوته، فانطلق في الظّلمة كما الرّصاصة: «إنّها هي!» وقبل أن يمنح نفسه فرصة للتّفكير، كان يقفز من النّافذة... لمح خيالها في أقصى الحديقة... كانت تعدو دون وعي نحو باب السّور الخارجيّ... جهد أن يتبعها... كانت تتّجه نحو امتداد الغابة

المفتوحة، وقد نشر فوقها القمر رداء أنواره الباهرة... اتّجه حيث اتّجهت... توقّفت لحظة وسط الغابة، تلهث من التّعب والإعياء. همس الصّوت في أذنها، وكان زوجها ينظر إليها من بعيد، في وضع دفاع فيما لو تعرّضت لخطر ما: «ها قد وصلنا، يا حبيبتي، أخيرا. انظري الأطيار... انظري الأشجار، وهذه الثّمار!! كلّ هذه الجنّة ملكك، وكلّ شيء فيها طوع بنانك.» ثمّ مضيفا بأمر: «إنّي أنا حبيبك مظفّر، آمرك أن تنحني لتأكلي من لذائذ جنّة الخلد المبذولة أمامك»؛... قالت، وهي تتقلّص من اللّذة والفرح والشّوق، وقد نسيت للحظة أنها ذلك الكائن الجميل الرّائع ذو الكبرياء والسّلطة الّذي كانته منذ اثنين وعشرين عاما: «أمرك، يا مولاي... أمرك، يا حبيبي.» انحنت... جثت على ركبتيها ويديها، كما يفعل خروف صغير، وقد اطمأنّ إلى وجود أمّه بقربه، وقرّبت فمها الشّهيّ الرّقيق من الحشائش الخضراء الغزيرة، وأخذت تأكل بنهم، تأكل بوحشيّة حيوان جائع، تأكل وقد تلاشت ذاكرتها القديمة، وانهار كبرياؤها وغرورها إلى الأبد... إنّها الآن كائن آخر، بل هي حيوان آخر، في ثوب أنثى وحيدة معزولة مستوحشة... أرادت أن تتكلّم، فلم يطاوعها لسانها، أرادت أن تتكلّم، فلم تسعفها سوى همهمات حيوانيّة بلا معنى... من وراء دغل، كثير الأشجار، متكاثف الأغصان، نطّ قرد متوحّش ذو شعر غزير، قد غطّى كامل جسده... حدّ بصره، فرأى من خلال أنوار القمر السّاطعة، شبح الأنثى الشّهيّة، شبه العارية، بغلالتها الفاتنة وجسدها المربرب... جرى نحوها... لم يبد عليها في البداية أنّها

رأته، وما إن تناهت إلى مسمعها آثار خطواته ووقعت عيناها التّائهتان على جمّته الكثيفة وهيكله الهلاميّ، حتّى هرعت نحوه... شدّها إلى صدره شدّا عنيفا، وقد مزّق غلالتها ورماها بعيدا... احتضن عريها... طوّح بها فوق العشب النّديّ، ارتمى فوقها، حتّى لم يعد يرى منها إلاّ يداها وقدماها المفلطحتان، وآهات حيوانيّة، مشحونة بالشّبق والإغراء... قلت، وأنا أغطّي وجهي الّذي نزّت مسامّه بعرق بارد، تفوح منه رائحة الموت: «لا... لا... لا»؛ وعندما أزلت كفّي ونظرت ثانية رأيت زوجها ينطلق بجنون نحو ذلك الحيوان المتوحّش فوق زوجته... تلفّت يمينا، ثمّ شمالا، جرى هنا وهناك، رأى حجرا ضخما بجانب شجرة عملاقة... تحامل على نفسه... استجمع كامل قوّته... حمل الحجر وهو يتعثّر بخطوه... تريّث لحظة وهو يرى الحيوان الضّخم يهمد، وهو يشخر شخيرا مريعا، بعد أن انتهى من حفلة اغتصابه الفظيعة... أمسك الصّخرة بكلتا يديه... سدّد بقوّة، وبكلّ ما يعتلج في نفسه من ضعف ونقمة وذلّ وغضب... رمى بالحجر أخيرا، فهشّم الجمجمة، وسالت الدّماء قانية، فوّارة، ساخنة... أزاح الجثّة جانبا... رآها . زوجته . ساكنة، مغمضة العينين، ترفّ على شفتيها ابتسامة ملؤها الرّضى والسّكينة.

قال:

.لماذا؟

فتحت عينيها، لم يبد عليها أنّها عرفته، حاولت أن تقول شيئا، فخرجت من بين شفتيها غمغمات مبهمة بدل الكلمات،

ولاحت في محيط حدقتيها الكبيرتين المستديرتين ملامح نظرة بريئة، هادئة، هي نظرة حيوان صغير، يشعر بسعادة غامرة بعد لحظات من الامتلاء... في ذلك الوقت، في تلك اللّحظة بالذّات، أدرك أنّه فقدها إلى الأبد، أدرك أنّها لم تعد له، لأنّ لعنة كان مقدّرا لها من قديم الأزل أن تصيبها، لتجعل منها جوهر حيوان في عرض آدميّ، لا قدرة له على الحياة، لأنّه ينشد الموت.

الأصوات... في كلّ مكان... من كلّ مكان... أصوات ضاجّة إلى حدّ الجنون، كثيفة، صاخبة... أصوات يترجّع صداها في الأعالي... أصوات تغزوني بعنف وتستقرّ أخيرا بداخلي... تغزو كلّ خليّة من خلاياي، ولا أفهم شيئا... تكاد تغرقني، وأنا لا أفهم شيئا... أكاد أختنق بها، وأنا لا أفهم شيئا... يا محسّد... يا مفدّى... فجأة، همد الوجه الّذي كان منذ قليل يتقلّص ويتشنّج، وهمد الجسد كلّه، ولانت اليدان اللّتان كانتا متشبّثتين بمسند السّرير، وسقطتا بإعياء على الحشيّة... طرفت عيناها لحظة، ثمّ غارتا تحت أهدابها الطّويلة الذّابلة، وبقايا ابتسامة حائرة اجتثّتها في لحظة الخلاص الأخيرة، مرتسمة على شفتيها الجافّتين الحائلتين... كادت الدّاية المولّدة تطلق زغرودة، إلاّ أنّها سرعان ما تراجعت، مكتفية بقطع الحبل السّريّ للوليد... لفّته في خرقة بيضاء كانت ملقاة على السّرير، دون أن تخفي اشمئزازها البادي على محيّاها، ثمّ وضعته بجانب والدته، وخطت نحو الباب مسرعة... استقبلها ذلك الرّجل المتعب صامتا.

خفضت رأسها... رفعته، ثمّ خفضته ثانية، وهي تقول:
.إنّه مسخ، يا سيّدي.

كان يعلم ذلك، ولكنّه كان يداري خوفه إلى آخر لحظة. وذا هاجسه القديم الّذي اعتراه وسط الغابة، وهو يرى ذلك المشهد الحيوانيّ، قد تحقّق أخيرا بولادة المسخ الّذي زرع ذلك القرد المتوحّش نطفته في رحم زوجته.

كدت أبكي ساعة سمعتها تنطق تلك الكلمة، وتمنّيت صادقا لو تحوّلت هي. حبيبتي. إلى كائن بجناحين ناعمين وذيل مرقّش لنطير معا ميّممين شطر البرزخ... لنطير بعيدا حيث لا مسوخ ولا آلام، ولا موت ولا ولادة، ولكن هي تلك الأصوات تمنعني حتّى من مجرّد التّمنّي والتّملّص من الانتقام.

.وأنا أقسم أنّي ما كنت أريد لما حدث أن يحدث... كنت أتألّم قبل أن أرى ما رأيت، وقد تعاظم ألمي أكثر، لأنّه كان مقدّرا لي أن أرى بعينيّ، وأسمع بأذنيّ، وأن يفعم القلب الّذي طالما امتلأ حبّا بالحقد والتّشفّي... أقسم أنّي ما كنت أريد لحبيبتي أن تلد مسخا... أقسم أنّي ما كنت أريد لحبيبتي أن تموت!!!

خاتمة المطاف

((هل كانت الزّنزانة في داخلي؟))

ـ ١ ـ

يا إلهي ما الّذي يحدث حولي؟!

هل كنت نائما فاستيقظت؟ أو كنت مستيقظا طوال الوقت أستمع إلى ذلك الصّوت الّذي زعم لي أنّه صديقي «مظفّرعبد الله»، وهو يروي لي حكايته؟ ثم، هل سمعت ذلك الصّوت حقّا؟ أو ما سمعته كان مجرّد وهم صوّره لي خيالي الجامح في لحظة ضعف ووهن؟ إنّي، على الأقلّ، لا أدّعي أنّي رأيت صورة واضحة، أو شخصا بعينه واضح المعالم والملامح. فإذا افترضت أنّي سمعت صوتا، وكنت أسمعه، (إذا صدق حدسي)، طيلة ثلاثة أيّام بأكملها، فإنّ ذلك الصّوت اشترط عليّ كي أراه، كي أرى جناحيه النّاعمين وذيله المرقّش، أن أطفئ ذبالة المصباح الواهنة، وأنا.على ما أعتقد.لم ألق بالا إلى قوله، وتركت النّور مضاء!! ثمّ، أين هذا المصباح؟ وهل مكثت فعلا في هذه الزّنزانة لمدّة ثلاثة أيّام متوالية؟ إنّي لا

أرى المصباح، ولست متأكّدا من المدّة الّتي توهّمت أنّها كانت محدّدة لإيقافي؛ كما أنّي لا أسمع صوتا، ولا أرى ما يشير إلى أنّ هذا الصّوت كان يملأ المكان بترقرق نبراته، وعمق طبقاته. فما الّذي كان يدلّ على وجود هذا الصّوت إذن؟ ما الّذي كان يدلّ على وجود هذا الشّخص الّذي زعم لي أنّه صديقي الّذي لا يمكن أن يخطئ صدق صحبتي وثبات صداقتي؟ حضوره المكثّف وسط الصّمت؟ رائحته؟ هيئته العلويّة كما يخيّل إليّ أنّي أثبتّها على جدران الزّنزانة جميعها؟... إنّي أصرّ، مرّة أخرى، على أنّي متأكّد من كلّ ما رأيت، ومن كلّ ما سمعت؛ غير أنّي أعود، مرّة ثانية، لأسأل نفسي، تتنازعني قوى خفيّة متضاربة إلى حدّ التّناقض: «هل رأيت فعلا ما رأيت، وسمعت ما سمعت؟!»

فإذا لم أر، ولم أسمع، فما هذه الرّائحة الّتي أشمّها، وأراها تزكم أنفي، حتّى لتكاد تمنعني من التّنفّس...؟ إنّها لا يمكن أن تكون سوى تلك الرّائحة القويّة المنبعثة من آنية صفيح مركونة في زاوية قصيّة لزنزانة مهجورة؛ رائحة غائط آدميّ مضت عليه أيّام حتّى تيبّس، فضاع بروائح كريهة، تبعث على التقزّز والغثيان؟ ثمّ، ما هذه الفوضى الّتي تظهر في تشوّش شعري وسوء هندامي؟! وما هذه الحكّة المؤلمة الّتي أحسّ بها تنغل في كامل جسدي، دونما رحمة أو هوادة؟! لقد كنت دائما حريصا أشدّ الحرص على حسن مظهري وهندامي، لا أغفل عن تسريح شعري، حتّى في أكثر الأوقات ضيقا. فما الّذي جرّني إلى تلك الحالة من الإهمال واللاّمبالاة، إذا لم أكن قد أقمت

لمدّة ثلاثة أيّام متواليات في زنزانة؟!... لكنّ المكان الّذي أجد نفسي فيه الآن لا يمتّ إلى الزّنزانة بأيّة صلة على الإطلاق. إنّه أرحب بكثير، وأنظف بكثير، ومضاء بشكل جيّد، ويصلح، أكثر من ذلك، لأن يكون مقرّا يحلو فيه العيش والسّكنى الهانئة... تلفّت يمينا، تلفّت شمالا، استدرت حولي، أجلت بصري بتركيز فيما حولي، فلم أر الجدران الضّخمة، ولا السّقف المتداعي، ولا الأرضيّة ذات الشّقوق الكثيرة، ولا السّرير القديم، ولا الباب الموارب في كثافة صمته، ولا ذلك الحارس الّذي أخبرني أنّ اسمه «جاد المولى». إذا لم يكن ذلك اسما لشخص أعرفه، فمن أين أكون أتيت به إذن؟ وهل يمكن أن تبلغ بي القدرة على اختلاق الأشياء إلى تلك الدّرجة؟ هل أكون مسطولا، وأنا لا أدري؟! ربّما يكون ذلك هو التّفسير الوحيد والمنطقيّ. للحالة الّتي أعيشها الآن... في المصلحة، كان لنا زميل مدمن، وقد اعتاد أن يعطي الفرّاش حبّة ليضعها له في فنجان القهوة كلّ صباح. فهل يكون ذلك الفرّاش الملعون قد خلط، في لحظة سهو أو نسيان، بين كأسينا، فسلّمه كأسي وسلّمني كأسه؟! كلّ شيء جائز على كلّ حال.

لم يكن المكان الّذي ألفيت نفسي فيه سجنا أو زنزانة، ولكن مكتبة واسعة الأبهاء، حسنة التّرتيب، ذات رفوف كثيرة، مذهبّة الحوافّ، تنوء تحت ثقل كتب لا يحيط بها عدّ أو حصر؛ ومن بين هذه الرّفوف، كان هناك رفّ منعزل عن البقيّة، في طرف قصيّ من الأطراف المعتمة، لا يضيئه سوى مصباح خاب شاحب، تنبعث منه ذبالة من نور بالكاد كانت

تسمح برؤية العناوين المبذولة أمامي في إغراء... في اللّحظة الّتي ثبت فيها إلى نفسي، واستعدت وعيي، وجدتني في غاية الانزعاج أمام ذلك الكمّ المهول من الكتب الّتي تتحدّث عن الأرواح واستحضار الموتى... جعلني ذلك أتساءل من جديد: «هل أكون قد وقعت تحت تأثير تهويمة من تهويمات العقل الجامحة؟ هل أكون قد اندمجت في عالم الأرواح، فظفرت بهذه الحكاية العجيبة الّتي لا يمكن أن يصدّقها إلاّ مسطول أو مجنون؟» لكن، كم مرّ عليّ من الوقت، وأنا في هذه المكتبة؟... أذكر الآن أنّي في عديد المرّات، حينما أكون بصحبة بعض الرّفاق في المقهى، كنت أطيل الإغراق في الصّمت، أتظاهر بالاستماع إليهم، وأنا في الحقيقة لا أعي ما يقولون، وأنظر إليهم، وأنا أستحضر صورا غريبة لشخوص آخرين. وذات مرّة، قال لي صديق عندما لاحظ إفراطي في الصّمت والسّكون: «ما لك لا تتكلّم؟ هل أنت مريض؟» فأجبته بكلّ بساطة وطبيعيّة، كأنّي كنت منخرطا معهم في الكلام، ولم أتأخّر لحظة واحدة عن الإدلاء برأي أو المشاركة في حديث: «إنّي أفكّر في حالة مستحيلة، لم يسبقني إليها أحد، في الانتقام؟!!»

حين خرجت من المكتبة بهرتني أنوار الشّارع، ولفتت نظري الحركة غير العاديّة فيه، فرغم أنّ الوقت كان متأخّرا، والقمر يتلألأ في السّماء، فإنّ النّاس كانوا يضطربون في الأزقّة والأرباض والميادين بكلّ هدوء وطبيعيّة، وكان روّاد المقاهي وزبائنها يملأون الأبهاء الخارجيّة، حول نضدهم وأراكيلهم،

تعلو ضحكاتهم، ويضوع الفضاء برائحة أحاديثهم المثيرة ونكاتهم البذيئة في أغلب الأحيان... رأيت أكشاك السّجائر، كما اعتدت أن أراها دائما في زمن ما لم أعد أذكره، وكان العالم... العالم بأسره يستريح على صفحات الجرائد باسترخاء: نساء فارهات جميلات، بينهنّ عارضات الأزياء، وممثّلات الإغراء على شاشات السّينما والتّلفزيون، ونساء على درجة كبيرة من الخصوبة، قد أخذت لهنّ صور مع أبنائهنّ الثّمانية أو التّسعة الّذين ولدنهم في بطن واحدة... أحوال الطّقس مستقرّة، لا تشوبها سوى بعض الغيوم العابرة في طريقها إلى مدن الثّلج والجليد... فرق كرة القدم تستعدّ لخوض مقابلات الكأس والدّوريّ... جنزال من الجنرالات العتاة في بلد من البلدان على ساحل الكاريبيّ، وهو «سانشيز لوبيز»، يضع إصبع ديناميت في مؤخّرته، فيتناثر أشلاء وشظايا، ويضع حدّا بذلك لحياته كلواطيّ ذي تاريخ حافل... إلخ إلخ.

كانت السّاعة تشير إلى السّابعة والنّصف في ذلك الوقت: وحسب اعتقادي فإنّ حالة الحظر كان من المفروض أنّها أعلنت قبل ساعة ونصف من الآن؛ ولكن لا يبدو أنّ أحدا يبالي بالحظر أو الاعتقال أو المساءلة أو السّجن... لا أنكر أنّ اضطرابي قد تضاعف، واعترتني حالة من الدّهشة والاستغراب، وأنا أضرب على غير هدى في أتون الشّارع، أنظر كالأبله هنا وهناك، غير قادر على التّركيز أو التّصديق أو التّحديد... سألت أحد المارّة، وكان منخرطا في سيل طابور بدأت تخفّ حركته:

. أو ما يزال النّاس يضطربون إلى الآن في شوارع المدينة ومقاهيها؟

نظر إليّ باستغراب وهو يقول:

. إنّه أمر طبيعيّ؛ ثمّ إنّه لا يجوز أن يعودوا إلى منازلهم وما يزال الوقت مبكرا كما ترى.

قلت مستغربا:

.ولكن ألا يخافون؟

فأجابني بدوره سائلا، وقد تضاعف عجبه أكثر من ذي قبل:

.يخافون ممّن؟

فقلت:

.من السّجن!!

قال:

.ولماذا السّجن؟!

قلت:

.لأنّهم يخترقون قانون الحظر.

حينئذ، سألني متهكّما:

.وأنت، ألا تخاف؟

فقلت صادقا:

.لقد انتبهت فألفيت نفسي ههنا.

فقال، وقد غدا تهكّمه رغبة في التّلاعب بي:

.وأين كنت؟

فقلت:

.كنت في زنزانة.

ما إن سمع ذلك، حتّى أغرب في الضّحك، وأشار إليّ إشارات غريبة؛ وسمعته يقول، وهو يستدير، كأنّما يشكّ في سلامة عقلي:

.أنصحك أن تذهب إلى عيادة طبيب نفسانيّ!!

_ ٢ _

كانت كلّ رغبتي أن أصل إلى المنزل. منزلنا.. وبأقصى سرعة ممكنة؛ وقد اضطرّني ذلك إلى حثّ خطاي: وضبطّتني في لحظات الانفعال القصوى أهرول هرولة أقرب إلى العدو. ولحسن الحظّ، فإنّ الطّريق الّتي سلكتها كانت خالية، وإلاّ اعتبرني مجنونا كلّ من كان سيراني على تلك الحالة.

دخلت من باب الحوش الكبير، وأنا ألهث جرّاء التّعب والإرهاق، وقطعت ممرّا صغيرا في السّقيفة إلى المطبخ... كانت جدّتي جالسة على فروة في أقصى الرّكن الأيسر، وهي تدير حبّات مسبحتها في طمأنينة وهدوء... ابتسمت حين رأتني، ولم يبد عليها أيّ أثر للدّهشة أو التّعجّب، وكأنّي لم أمكث خارج البيت ثلاثة أيّام بلياليها، وهي الّتي كانت لا تصبر على بقائي خارج البيت ولو ساعة واحدة... اقتربت منها، متقطّع الأنفاس، ولذت بركنها الحصين، واضعا رأسي على فخذها الضّامر، وأنا أقول مغمضا عينيّ في استسلام:

.ها قد عدت أخيرا.

قلت ذلك، وكأنّما أخطّ أهمّ قرار في سجلّ حياتي.

توقّفت أصابع جدّتي عن التّسبيح لحظة؛ وبدا لي أن حيرة طاغية وشعورا بالدّهشة قد اكتنفا نظرات عينيها، وقد تأكّد

لي ذلك، حين فتحت بدوري عينيّ ونظرت إلى وجهها الّذي علا صفحته الشّحوب. قالت لي:

.لقد كنت تذهب وتعود كلّ يوم، يا ولدي.

أغمضت عينيّ ثانية، وقلت وأنا مازلت مستندا برأسي إلى فخذها:

.إنّي كنت مسجونا، يا جدّتي.

ثمّ توقّفت لحظة، وواصلت مشدّدا على نهايات الحروف:

.إنّي كنت بمفردي في زنزانة.

انتفضت جدّتي فجأة، في فروتها، كأنّ بها مسّا، أو كمن لدغها ثعبان، ولم تتمالك أن قالت في خوف وإشفاق:

. اسم الله عليك، وحواليك، يا ولدي. لقد كنت البارحة نائما في فراشك، وقبل البارحة، وقبل ذلك أيضا.

وصمتت قليلا، ثمّ قالت:

.اللهمّ رحماك.

ولم يهدأ بالها حتّى رقتني، وقرأت «على رأسي».

ـ ٣ ـ

في الصّباح، ذهبت إلى المصلحة.

وأنا ألج البوّابة الخارجيّة الكبيرة، طالعني منظر الحارس، وهو يجلس على كرسيّه، زائغ البصر شارد النّظرات.

قلت:

.صباح الخير.

وقبل أن يردّ، التفتّ إلى الجهة اليسرى ناحية تلك الغرفة، فألفيتها مغلقة، وكأنّها لم تكن مفتوحة في يوم من الأيّام.

سألته متظاهرا باللاّمبالاة، وأنا أخطو إلى الأمام في اتّجاه باب المصلحة الرّئيسيّ:

.كيف حال العائلة؟

قال، وقد تملّكته دهشة ممزوجة برعب وخشية، فقد كان رجلا ريفيّا شديدا صعب المراس، لم يسمع يتحدّث عن عائلته قطّ:

.بخير.

قلت محاولا أن أعيد إليه ثقته بفحولته وهيبته كسيّد مطلق ضليع في السّيادة:

.لقد اتّفق لي أن رأيت العائلة هنا.

وقف فزعا، وهو يتّجه نحوي؛ ثمّ توقّف أخيرا وهو يقول

لي:

.وأين هنا؟

قلت:

.في تلك الغرفة.

وأشرت إلى الغرفة المغلقة.

قال يسألني، وهو ما يزال دهشا مستثارا:

.ولماذا تكون عائلتي في تلك الغرفة، يا سيّدي؟ هل تسخر منّي؟

ثمّ مواصلا بعد لحظة صمت:

. صحيح، نحن أناس فقراء، يا سيّدي. ولكن، من الشّرف بالنسّبة إلينا أن يكون لكلّ عائلة بيت، وعائلتي في البيت موفورة بألف خير.

التفتّ إليه، وقد آثرت أن أضع حدّا لهذه المهاترة الصّباحيّة، رغم الثّورة الجامحة الّتي كانت تعتمل بداخلي:

. أنت أخبرتني بكلّ ذلك، يا عمّ إبراهيم، وقلت لي إنّك ستقيم مع العائلة في هذه الغرفة ريثما تنتهي مدّة الحظر.

لم يبد عليه أنّه فهم شيئا. قال لي فاغر الفم، تلوح في عينيه نظرات غبيّة جامدة:

.وأيّ خطر، يا سيّدي؟!

عنّ لي أن أصحّح خطأه الّذي جعله يخلط بين «الخطر» و «الحظر»، غير أنّي تراجعت في اللّحظة الأخيرة.

_ ٤ _

في المكتب، وجدت جميع الزّملاء، وكانت «مشيرة» بينهم، منهمكة في عملها؛ صعقت من أثر المفاجأة، ولكنّي لم أقل شيئا، وجلست في مكاني، متظاهرا بتقليب بعض الأوراق والملفّات على مكتبي. تساءلت بيني وبين نفسي: «أين تلك المستخدمة الجديدة؟ وهل قرّرت مشيرة أن تعود أخيرا؟ لقد أشاعوا أنّها رحلت، فلماذا تعود ثانية؟»... ملت ناحية زميلي الّذي بجانبي، والّذي كانت بيني وبينه دوالّ لا تنكر، وقلت له هامسا:

. إنّي لا أفهم شيئا!!

فقال مداعبا، دون أن ينظر إليّ:

. وماذا تريد أن تفهم؟

قلت، وأنا أشير بطرف خفيّ إلى مكان «مشيرة»:

. أين المستخدمة الجديدة؟

كان يخطّ شيئا في بعض الأوراق، فتوقّف لحظة عن الكتابة ونظر إليّ، وعلى وجهه ملامح دهشة بادية:

. وأيّ مستخدمة تعني؟ إنّها أمامك وراء مكتبها!!

قلت:

. إنّي لا أعني مشيرة.

قال:

.فمن تعني إذن؟

قلت:

.تلك الأربعينيّة الأخرى.

قال:

.لم تكن هناك أخرى، ولكن هي مشيرة، وها هي ذي أمامك.

قلت، مديرا الحديث إلى وجهة أخرى:

.ألم تسافر مشيرة؟

فلم يجبني، ولكنّه قال مشفقا، وهو يتأملّني بفضول:

.ما الّذي جرى لك اليوم؟ هل أنت مريض؟

قلت، وأنا أدرك جيّدا أنّي مقدم على مجازفة كبيرة:

.لست مريضا؛ ولكنّي كنت مسجونا في زنزانة تحت الأرض.

لم يتمالك أن ابتسم، ونظر إليّ بتحديد قائلا:

.هل أنت تمزح؟

قلت جادّا:

.أنا لا أمزح.

ولكنّه كان يريد أن يمزح فقال:

.ومتى سجنت؟

قلت، وأنا أحاول أن لا أنظر إليه:

.خلال الأيّام الثّلاثة الماضية.

قال، وقد بدأ يتخلّى عن مزاحه شيئا فشيئا:

.ولكنّك لم تتأخّر عن العمل في المصلحة يوما واحدا؛ وقد كنت طوال الأيّام الثّلاثة الماضية معنا، تأتي في الصّباح،

وتنصرف عند انتهاء الدّوام.

وأضاف يسألني بعد قليل:

.ولكن، قل لي، لماذا يسجنونك؟ ماذا فعلت؟!

قلت:

.لقد قبضوا عليّ بعد قليل من موعد إعلان الحظر.

بهت... كانت الصّدمة أكبر بكثير ممّا يقدر على احتماله.

قال مستهجنا:

.هل جننت؟ عن أيّ حظر تتحدّث؟

قلت:

.كان الحظر أمرا طبيعيّا كنتيجة لما يحدث في المدينة.

قال:

.وماذا يحدث في المدينة؟

قلت:

. اختفاء الجثث من المستشفى المركزيّ، واختطاف الضّبّاط، وحالة الفوضى.

قال، وهو يتحفّز للنّهوض من كرسيّه، من أثر المفاجأة، وكأنّه يتفرّج على فلم مليء بالمشاهد المرعبة:

. رويدك، أين تحسبنا؟ نحن مازلنا هنا، في هذه المدينة، ولم نكن في يوم من الأيّام في شوارع مدينة شيكاغو العتيدة...

ـ ٥ ـ

اللّيل ساج في الخارج؛ وفي الغرفة ترين الظّلمة والعتمة، وأنا متمدّد فوق السّرير، أنشد النّوم ولا أستطيعه. تقلّبت كثيرا في الفراش... أغمضت عينيّ مرارا... غطّيت كامل جسدي لأمنع الأفكارمن التّسلّل إلى داخلي... أزحت الغطاء لأنفض عن نفسي كلّ الهواجس اللّعينة الّتي تضخّمت بداخلي، في غفلة منّي، ولكن دون جدوى... قمت، وخطوت في وحشة الظّلام نحو الأباجورة فأنرتها. نظرت إلى السّاعة فوق نضد قريب... كانت السّاعة تشير إلى الواحدة والنّصف بعد منتصف اللّيل. ماذا يمكن لأحد أن يفعل في مثل هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل؟!... أن ينام؟ فما حيلته إذا لم يستطع النّوم!!... أن يطالع؟ فماذا يفعل إذا لم تكن لديه رغبة في القراءة... فجأة خطر ببالي ذلك الإعلان القصير في ذلك العدد القديم من تلك الجريدة الأسبوعيّة... اتّجهت صوب ذلك الحاجز الّذي يفصل الغرفة إلى شطرين... فوقه كانت تستريح الجريدة في صمت وسكون مطبقين... بحثت عن الإعلان؛ وبعد لأي وجدته؛ لكن كان إعلانا آخر، مغايرا تماما، وبدل تلك الأسطر السّتّة كانت هناك أسطر أخرى... قرأت، وأنا لا أكاد أصدّق عينيّ:

«بشّـر أحبابي وأهـل مودّتــي
وكلّ قريــب ذا يريــد مســــــرّتي
أفراحنــا قــد أقبلــت أوقاتهــــا
ولذيذ أفراحــي وجـــود أحبّتــي

بعد إهدائكم عاطر التّحيّة وأزكى السّلام، فإنّ عائلتي:
عبد الله مهران وحامد سعد الدّين
لهما عظيم الشّرف باستدعاء جميع الأصدقاء والخلاّن لحضور حفل زفاف ابنهما وابنتهما:
مظفر عبد الله وراوية حامد
والعاقبة لكم في المسرّات.»

جعلني ذلك أتساءل، دون إحساس واضح، على وجه التّقريب:»هل كنت رأيت حقّا ما رأيت؟ وسمعت بأذنيّ ما سمعت؟ أم هي مجرّد تهويمة من تهويمات الذّهن الجامحة؟ وأنّ تلك الحكاية العصيّة القصيّة ما هي في النّهاية إلاّ حدود مرسومة لأركان زنزانة بداخلي؟!»

. انتهت .
المتلوي في: ١٩٩٩.٨.٥

ماستر ©